ليس هناك إله

كيف غَيَّرَ أشهر ملحد رأيه؟

تأليف

أنتوني فلـــو

ترجمة/ الدكتور صلاح الفضلى

جميع الحقوق محفوظة للمترجم
دولة الكويت
الطبعة الأولى
٢٠١٥ م - ١٤٣٦ هـ

الفهرس

الفصل	العنـــــــوان	الصفحة
	■ مقدمة المترجم	٥
	■ المقدمة	١١
	القسم الأول: إنكاري للمقدس	١٧
الأول	صناعة ملحد	٢١
الثانـــي	إلى حيث يقود الدليل	٤٥
الثالـــث	إعادة نظر في الإلحاد	٨١
	القسم الثاني: إكتشاف المقدس	٩٩
الرابـــع	حج العقل	١٠٣
الخامس	من كتب قوانين الطبيعة؟	١١٥
الســادس	هل كان الكون يعرف بقدومنا؟	١٣٥
الســابـــع	كيف حدثت الحياة؟	١٤٧
الثامـــن	هل تأتي الأشياء من لا شيئ؟	١٥٩
التاســـع	إيجاد مساحة للإله	١٧٣
العاشـــر	المجال مُشرع للإله الكامل القدرة	١٨٥
	● الملحق الأول: الإلحاد الجديد	١٩١
	● الملحق الثاني: الوحي الذاتي للإله في التاريخ البشري	٢١٧

مقدمة المترجم

عندمـــا تخرجت من الولايـــات المتحدة قبل أكثر من ٢٥ ســـنة بتخصص علوم الكمبيوتر وعدت إلى الكويت كنت أنوي إكمال دراســـتي في الماجســـتير بتخصص علوم الكمبيوتر أو الرياضيات، ولكن لأن الصدف تلعب دوراً كبيراً في حياة الإنسان فـــإن الصدفة لعبت دوراً كبيراً في دفعي نحو الفلســـفة، وقـــد حدث ذلك عندما التقيت بالدكتور غانم هنا وهو بروفيســـور فلسفة الأخلاق بقسم الفلسفة بجامعة الكويت، وذلك عندما دعاه أبن عمي أحمد لزيارتنا في البيت.

دعاني الدكتور غانم لحضور محاضراته في فلســـفة الأخلاق، وهذا ما حصل بالفعل حيث حضرت جميع المحاضرات ولم أفوت أياً منها طوال الفصل الدراسي، ورغم أنني كنت مجرد ضيف مستمع في المحاضرات فقد وجدتني أشارك بحماس في النقاشـــات الفلســـفية داخل قاعة المحاضرة. في تلك الفترة أكتشفت أن لدي ميولاً فلسفية، لأنني كنت مستمتعاً للغاية بحضور محاضرات فلسفة الأخلاق.

بعد فترة تفكير قررت أن أدرس الفلســـفة، ولكن كان هناك عائق أساسي، وهو أن نظام الدراســـة في الجامعة يشـــترط لمن يريد الدراســـة في مرحلة الماجستير أن يكـــون حاصلاً على درجة البكالريـــوس في نفس التخصص. كان الحل الوحيد أن اقوم بدراســـة مجموعة من المواد الفلســـفية كنوع من التمهيد لمدة ثلاثة فصول دراسية بنظام الدراسة المشـــروط، وهذا بالفعل ما حصل. خلال أخذي لمجموعة المقررات الفلســـفية تعرفت على البروفيســـور ميشـــيل متياس وهو الذي اعتبره

أفضل أستاذ مر عليّ طوال مراحل الدراسة بجميع مستوياتها، وكان يرعاني بشكل مكثف، وشجعني كثيراً على مواصلة الدراسة في مرحلة الماجستير، وهكذا التحقت بنظام الدراسة الرسمي.

خلال فترة الماجستير تعرفت على العديد من طلبة الماجستير والبكالريوس في قسم الفلسفة، وكان أحدهم شاباً متديناً خجولاً أسمه حسين وكان متفوقاً وذكياً، وبعد أن تخرج حسين من مرحلة البكالريوس تقدم للحصول على بعثة لدراسة الماجستير والدكتوراة في الولايات المتحدة الأمريكية باعتباره تخصصاً نادراً لا يوجد من يقوم بتدريسه سوى أحد الأساتذة المصريين الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً. مرت الأيام وقررت أن أعود إلى تخصصي الأصلي في مجال الكمبيوتر لإكمال دراسة الدكتوراة وذلك لأن مجالات العمل في الفلسفة محدودة وبعثات الدراسة لدرجة الدكتوراة مقتصرة على من يكون تخصصهم الفلسفة في مرحلتي البكالريوس والماجستير معاً وهذه، من الأخطاء الشائعة في الأنظمة الجامعية في جامعاتنا العربية.

من بين الأشخاص الذين تعرفت عليهم خلال فترة الماجستير الصديق العزيز الدكتور الشيخ مرتضى فرج، وكان صديقاً في نفس الوقت للشاب الخجول حسين الذي ذكرته فيما سبق، وحين التقيت بالدكتور مرتضى في إحدى المرات سألته عن حسين، فصمت قليلاً وبدا عليه التحسر، ثم أجاب بأن حسين لم يعد حسين الذي كنا نعرفه، فقد تغير كثيراً، وترك التدين الذي كان عليه وحلق لحيته التي كان يعتز بها، وأصبح يلبس السلاسل والخواتم الذهبية، وأنه تغير فكرياً بشكل كبير وأصبح أقرب إلى الإلحاد.

مع ثقتي الكاملة بكلام الدكتور مرتضى إلا أنني لم أستطع تصديق هذا التغير

الجذري الذي حصل لحسين. ولكن بعد عدة شهور علمت أن حسين أكمل الدكتوراة وعاد ليصبح استاذاً جامعياً في قسم الفلسفة، وصادف أن ذهبت في إحدى المرات إلى قسم الفلسفة للسلام على الاصدقاء القدامى من الاساتذة والطلاب فوجدت الدكتور حسين أمامي، وإذا به كما وصفه لي دكتور مرتضى. سلمت عليه وسألته عن أحواله وأحسست أنه يتجنب إطالة الحديث معي. بعد ذلك علمت أن الدكتور حسين لم يكتف بتحوله الفكري بل أصبح يؤثر على طلابه لتبني نفس أفكاره، وقد بلغتني شكوى عدد من أولياء أمور الطلاب الذين تغيرت بعض معتقداتهم بسبب تأثرهم بأفكار دكتور حسين وقد فكر بعضهم في تقديم شكوى ضده إلى إدارة الجامعة.

بعد سنتين تقريباً من ذلك، علمت أن دكتور مرتضى على وشك إصدار كتاب يفند به الشكوك التي تدور في أذهان العديد من الشباب حول المعتقدات الدينية وكيف يمكن مواجهة الأفكار التي تدفع الشباب إلى الإلحاد. بعد ذلك بفترة تكلمت مع دكتور مرتضى عن سبب «إضاعة» وقته في تأليف كتاب قليل الفائدة كوننا نعيش في مجتمع إسلامي تقليدي لم أسمع فيه من قبل عن حالات إلحادية. كان جواب دكتور مرتضى أن هناك موجة خطيرة منتشرة بين الشباب وهي التأثر بالأفكار الإلحادية من خلال مواقع إلحادية كثيرة على شبكة الإنترنت. في الحقيقة لم اقتنع بكلام دكتور مرتضى في ذلك الوقت واعتقدت أنه نوع من المبالغة. ولكن مع مرور الوقت بدأت أسمع عن حالات متعددة من الشباب الذي تغيرت افكارهم واتجهوا نحو الإلحاد، فبدأت أهتم بتتبع هذه الظاهرة، وبالفعل وجدت أنها أصبحت ملاحظة وملموسة والبعض يصرح بتوجهاته الإلحادية رغم آن هذا أمر غير مألوف في مجتمع محافظ مثل المجتمع الكويتي.

وفي يوم من الأيام وصلتني رسالة على الهاتف النقال من السيد علي ابوالحسن، وهـو أحد الطلبة النابغين الذين يدرسـون في مدينة قـم الإيرانية، وفيها يطلب مني أن أسـاعده في ترجمة أحد الكتب المكتوبـة باللغة الإنجليزية التي ترد على الاطروحات الإلحادية، وخيرني بين كتابين لاثنين من مشـاهير الفلاسفة أحدهما كتـاب «هناك إله» لمؤلفه انتوني فلو. في البداية أعتذرت عن المهمة لضيق الوقت، ولكن في فجر اليوم التالي جلسـت أفكر فيما اذا كان من مسؤليتي المساهمة في التصدي لظاهرة الإلحاد، وفعلا اقتنعت بأن عليّ أن أسـاهم في كبح جماح هذه الموجة، وعندها أبلغت السيد علي بموافقتي على القيام بالمهمة، وهكذا كان.

في البداية كنت اتوقع أن تأخذ عملية الترجمة وقتاً طويلاً، أولا لكونها التجربة الأولى لي في الترجمة، وثانياً لضيق وقتي وانشـغالاتي المتعددة، ولكن بمجرد أن شرعت في عملية الترجمة وجدتني أقطع مراحل الترجمة بسرعة كبيرة، وبعد أن كنـت أتوقع أن الوقت اللازم لإنجاز مهمة ترجمة الكتاب لن يقل عن ثلاثة أشـهر على اقل تقدير وجدت أنني أنهيت ترجمة الكتاب ومراجعته وطباعته خلال عشرة أيام فقط.

أهميـة هذا الكتاب تأتـي بالدرجة الأولى من جهة مؤلفه، فكما يشـير عنوان الكتـاب الفرعي فإن المؤلف أنتوني فلو كان واحداً مـن أكبر الملاحدة في العصر الحالي. وبالتالي فإن تجربة فلو التي أسـتمرت أكثر من خمسين سنة في الإلحاد وكتابته للعديد من الكتب التي تؤيد الموقف الإلحادي وخوضه العديد من المناظرات التي تدافع عن الإلحاد ثم تحوله بعد كل هذه السنين إلى الإيمان بوجود الإله لابد أنه يضيف مصداقية كبيرة لما سيقوله في هذا الكتاب. ولد الفيلسوف البريطاني أنتوني ريتشـارد فلـو في فبراير من عـام ١٩٢٣، وهو ينتمي إلى تيار الفلسـفة

التحليلية، واشـــتهر بكتاباته في فلسفة الأديان، وقد قام بتأليف أكثر من ٣٠ كتاباً أغلبهـــا في محاولة دحض فكرة الدين وأشـــتهر عنه مقولته أن على المرء أن يظل ملحـــداً حتى يجـــد الدليل التجريبي على وجود الإله، غيـــر أنه وفي أواخر حياته غير قناعاته، وفي عام ٢٠٠٤ وخلال مناظرة فلسفية أعلن عن تحوله إلى التوحيد وتخليه عن الإلحاد، وقام بتأليف كتاب نســـخ فيه كل كتبه الســـابقة، وهو الكتاب الـــذي بين يدينـــا . على أثر إعلانه لتحوله عن الإلحاد، تعرض فلو لحملة تشـــهير ضخمة من المواقع الإلحادية في العالم، وذلك لأنه ولخمســـين عاماً كان يعتبر من أهم منظري الإلحاد في العالم، وقد شـــكل خبر تحوله إلى الفكر الربوبي صدمة قوية في وســـط الفكر الإلحادي في العالم. توفي الفيلســـوف أنتوني فلو في عام ٢٠١٠ عن عمر يناهز السابعة والثمانين.

قبـــل أن أنهي هذه المقدمة، أجد لزاماً علي أن أتقدم بالشـــكر الجزيل للدكتور الفاضل والصديق الصدوق الشـــيخ مرتضى فرج علـــى مراجعته الدقيقة لترجمة الكتاب، والذي بسبب دقته الشديدة وحرصه على ألا تفوته شاردة ولا واردة تأخر صـــدور الكتاب شـــهرين كاملين، لأنه لـــم يترك لا همزة ولا فاصلـــة إلا أحصاها وعدها عدا.

في الختام، أريد أن أقول أنني أقدم للقراء هذا الكتاب بنسخته المترجمة، على أمل أن يكون هذا الجهد مفيداً لشـــبابنا الحائـــر، الذي تتعرض معتقداته الدينية للهجوم بســـبب ضعف مناعة الدفاعات العقائدية لديه، مما يؤدي أبســـط هجوم فكري عليه إلى إختلال في تفكيره وهو ما يقود في الكثير من الحالات إلى الوقوع في مســـتنقع الضياع الفكري القاتل، نتيجة لســـيل الشـــبهات التي تغزو عقله من إتجاهات عدة، دون أن يكون لديه مصدات تمنع عنه غائلة هذه الشبهات.

المقدمة

هناك إلـه
كيف غَيَّرَ أشهر ملحد رأيه؟

منـذ أن أعلنت عن «تحولي» إلى الإلوهية طُلب مني في مناسـبات كثيرة جداً بيان أسباب تغيير وجهة نظري، أشرت في عدة مقالات متتابعة وكذلك في مقدمة طبعة عام ٢٠٠٥ من كتابي «الإله والفلسـفة» God and Philoaophy إلى الأعمال الحديثة المتعلقة بالنقاش حول وجود «الإله»، ولكنني لم أبين وجهة نظري في ذلك. أما الآن فقد وصلت إلى قناعة بأن أعرض ما يمكن تسـميته وصيتي وشـهادتي الأخيـرة، وباختصـار وكما يدل عليـه عنوان الكتاب فأنا أعتقـد الآن بأن هناك إلهاً.

عنوان الكتاب الفرعي «كيف غَيّرَ أشـهر ملحد رأيـه؟»[1] لم يكن من اختياري، ولكننـي مع ذلك سـعيد بتوظيفه باعتباره مـن العناوين الجذابـة. لقد قام أبي اللاهوتي في إحدى المـرات بتحرير مجموعة من مقالاته ومقالات بعض تلامذته السـابقين وضمّنها كتابا جدلياً وعنون هذا الكتاب بعنوان متناقض ولكنه مناسب وهو «كاثوليكية البروستانتية»[2]. وسيراً على النمط نفسه في طريقة العرض قمت بنشر أبحاث بعناوين مشابهة مثل « القيام بالخيرات ليس أمراً خيراً» و «هل رهان باسكال Wager Pascal's هو وحده الرهان الآمن؟»[3].

(1) How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind.

(2) The Catholicity of Protestantism

(٣) رهان باسـكال: حجة مبنية على نظرية الاحتمالات ونظرية القرار وتسـتخدم للاحتجاج بضرورة إتخاذ قرار بشـأن الإيمـان بوجود الله على الرغم من عـدم إمكانية إثبات وجوده أو عدم وجـوده عقلياً. بليز باسكال هو من صاغ الحجة.

وفي البداية لابد أن أكون واضحاً، فعندما أنتشـرت أخبار تحولي في وسـائل الإعلام وعلى شـبكة الإنترنت سـارع بعض المعلقين إلى الادّعـاء بأن تقدمي في العمر أثّرَ في عملية تحولي، لقد قيل: إنّ الخوف تراكم في عقلي بقوة، وقد انتهى هؤلاء المنتقدون إلى أن توقعات الدخول إلى عالم ما بعد الموت حفزت لدي «تحول فراش الموت» Deathbed conversion. من الواضح أن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا مطلعـين على كتاباتي عـن اللاوجود بعد الموت، وهم ليسـوا مطلعين كذلك على آرائي الحالية حول هذا الموضوع[1].

خلال أكثر من خمسـين سنة لم أنكر وجود إله فحسب، بل أنكرت أيضاً وجود حيـاة بعد الموت، ومحاضراتي التي نشـرت في كتاب «منطـق الفناء» والتي تمثل خلاصـة عملية التفكير هذه شـاهد على ذلك. هذا الأمر هـو من ضمن الأمور التي لـم أغير وجهة نظري فيها، وقد كان ذلك واضحاً في هذا الكتاب من خلال مسـاهمة رايـت N. T. Wright's في الملحق الثانـي. أود أن أضع حد لكل هذه الشائعات التي وضعت موقفي في إطار رهان باسكال. وعليّ أن أشير إلى أن هذه ليست المرة الأولى التي أُغَيِّر فيها وجهة نظري في قضية رئيسية.

إلـى جانب أمور أخرى غيرت رأيي فيها ربما يندهـش القراء الملمين بدفاعي المسـتميت عن الأسواق الحرة عندما يعلمون أنني كنت ماركسياً (للتفاصيل، أنظر الفصـل الثاني من هـذا الكتاب). وقبل عقدين من الزمـن تراجعت عن قناعاتي السابقة بأن اختيارات الإنسان محكومة بنحو شامل بواسطة أسباب مادية.

بما أن هذا الكتاب يتكلم عن سـبب تغيير وجهـة نظري بخصوص وجود الإله فإن السـؤال الواضح سـوف يكون «ماذا كانت وجهة نظري قبل التحول؟ ولماذا؟»،

(١) تعبير إنجليزي عن ظاهرة اعتناق معتقدات إيمانية قبل الموت بقليل لدى بعض الناس.

الفصول الثلاثة الأولى في الكتاب سوف تخصص للإجابة على هذا السؤال، أما الفصول السبعة الأخيرة فسوف تبين عملية اكتشافي للإله. وعند تهيئة الفصول السبعة الأخيرة لابد أن أبين أنني استفدت كثيراً من النقاش مع البروفيسور ريتشارد Richard Swinburne والبروفيسور برايان ليفتو Brian Leftow أستاذي الكرسي السابق والحالي في جامعة أكسفورد.

هناك ملحقان مضافان للكتاب، الملحق الأول هو تحليل لما يسمى الإلحادية الجديدة لريتشارد ديكنز Richard Dawkins وأخرين [1]، وقد كتبه روي أبرهام فارغير Roy Abraham Varghese، أما الملحق الثاني فهو عن النقاش الدائم البالغ الأهمية للمؤمنن بالدين حول وجود نوع ما من الوحي الإلهي في التاريخ البشري، مع تركيز خاص على الادعاء المتعلق بمسيح الناصرة Jesus of Nazareth، وللمهتمين بالاطلاع على المزيد في هذا الموضوع فإن الباحث المتخصص في العهد الجديد رايت N. T. Wright وهو أسقف دُرام Durham الحالي قدم تقييمه للحقيقة التاريخية التي يقوم عليها الإيمان المسيحي بالسيد المسيح، وفي الحقيقة يجب أن أقول: إن الأسقف رايت قدم حسب اطلاعي أفضل رؤية لقبول الاعتقاد المسيحي في هذا الشأن.

لعل من المناسب أن أذكر شيئاً عن شهرتي كملحد -وهو ما يشير إليه العنوان الفرعي للكتاب -، لقد كانت أولى أعمالي المعارضة للألوهية في عام ١٩٥٠ عبر الورقة البحثية «اللاهوت والتكذيب» Theology and Falsification، وقد أعيد طبع

(1) new atheism of Richard Dawkins and others.

هـــذه الورقة البحـثية في كتاب «مقـالات جديدة في اللاهـوت الفلســفي» New Essays in Philosophical Theology عـــام ١٩٥٥ وهـي مقتطفات قمت بتحريرها بالاشتراك مع السدير ماكلانتير Alasadair McClntyre، لقد كان كتاب «مقالات جديدة في اللاهوت الفلسفي» New Essays in Philosophical Theology محاولة لقياس التأثير على المواضيع اللاهوتية والتي سميت فيما بعد «ثورة في الفلسفة» revolution in philosophy.

الاســـهام الثاني المهم كان كتاب «الإله والفلسفة» God and Philosophy، وقد نُشـــر لأول مرة عام ١٩٦٦، وأعيد نشـــره في الأعوام ١٩٧٥، ١٩٨٤، ٢٠٠٥. وفي مقدمـــة طبعة عام ٢٠٠٥، كتب بول كيرتـــز Paul Kurtz، وهو أحد أكبـر الملاحدة فـــي عصرنا الحالـــي، وهـو أيضاً مؤلـــف كتـاب «البيان الإنســـاني الثاني» Humanist Manifesto II، أن دار النشـــر يسرها أن تقدم ما أصبح يعرف بفلسفة الدين التقليدية.

وتبـع نشـــر كتـــاب «الإلـــه والفلســـفة» نشـــر كتـــاب «فرضيـــة الألحـــاد» The Presumption of Atheism عـــام ١٩٧٦، والذي طُبـــع بعنوان «الإله، الحرية، والخلـــود» God، Freedom and Immortality، وكان ذلـــك في الولايات المتحدة الأمريكيـــة فـــي عام ١٩٨٤. أما بقيـــة المؤلفات المتعلقة بالموضوع فهي «فلســـفة هيوم في الإعتقاد والمنطق واللغة» Hume'sPhilosophy of Belief and Logic and Language، و «مدخل إلى الفلسفة الغربية: أفكار وحجج من أفلاطون إلى سارتر والتطور الداروينـي» An Introduction to Western Philosophy، و«منطق الفناء» Logic of Mortality.

في الحقيقة، إنه لمن المفارقات أن أول حجة منشـــورة في تأييد الإلحاد قُدمت

لأول مرة في ندوة عن أعظم المدافعين عن المسيحية، وعقدت في النادي السقراطي ورأس النـــدوة لويس C.S. Lewis، والمفارقة الثانية هـــي أن والدي كان أحد قادة التبشـــير في إنكلترا، ويضاف إلى ذلك أنني في بداية حياتي العملية لم يكن لدي اهتمام خاص بأن أصبح فيلسوفاً محترفاً.

بما أن كل الأشياء الحسنة -إذا لم تكن كل الأشياء دون استثناء- لابد أن تصل إلى نهاية فإنني ســـوف أنهي كلمات المقدمة هنا وأتـــرك للقراء أن يقرروا ما هي أسباب تغيير وجهة نظري فيما يخص السؤال عن الإله.

(١) كاتـــب وباحـــث إيرلندي وُلد في عام ١٨٩٨ وتوفـــي في عام ١٩٦٣. تنوعت اهتماماتـــه بين أدب القرون الوسطى وعلم العقائد في المسيحية والنقد الأدبي والبث الإذاعي والعلاقة الافتراضية بين الخير والشر، بالإضافة إلى سلســـلة الأطفال الشـــهيرة التي كتبها، ســـجلات نارنيا، وكتب خيالية أخرى مثل رســـائل سكروتيب وثلاثية الفضاء.

القسم الأول

إنكاري للمقدس

الفصل الأول

صناعة ملحد

صناعة ملحد

لم أكن ملحداً على الدوام، فقد بدأت حياتي كمؤمن، نشـــأت في بيت مسيحي، ودرست في مدرسة مسيحية خاصة، وفي الحقيقة أنا أبن لمبشر مسيحي. والدي كان نتاجاً لكلية ميرتون في أكسفورد، وكان هو المسؤول الديني في الكنيسة المنهجية التابعة للكنيسة البروتسانتية، وليس في كنيسة إنجلترا الكاثوليكية. ورغم أن قلبه ظـــل تبشـــيرياً Evangelism على الـــدوام فإن ذكرياتي الأولى عنـــه أنه كان يعمل مرشـــداً في دراسات العهد الجديد في كلية اللاهوت المنهجية في كامبردج، وبعد ذلـــك أصبح رئيســـاً للكلية، وبعد ذلك تقاعد وتوفي فـــي كامبردج. بالإضافة إلى مســـؤولياته التبشيرية والتدريسية، اضطلع والدي بمهمة ممثل للمدرسة المنهجية Methodist [1] في عدد من المنظمات الكنســـية، كما أنه رأس لفترة واحدة مدتها سنة كل من المؤتمر المنهجيوالمجلس الكنسي الفيدرالي الحر.

يصعب عليّ تذكر أو تشخيص أية إشارات في مرحلة صباي تدل على قناعاتي الإلحادية اللاحقة. في شـــبابي درســـت في مدرسة كنغزوود في مدينة باث Bath وهي المدرســـة التي تعرف إختصاراً K.S، ولحسن الحظ كانت –ولا تزال– مدرسة عموميـــة. لقـــد تم إنشـــاؤها من قبل مؤسس الكنيســـة المنهـــجية جـــون وسلي John Wesley من أجل تدريس أبناء المبشرين التابعين له. التحقت بمدرسة كنغزوود بالتزام ديني فاتر، ولم أجد أي مغزى للعبادة، وكنت بعيداً عن الاستمتاع والمشاركة

(١) إحدى الكنائس البروتستانتية التي تستمد توجيهاتها من جون ويسلي.

في غناء الترانيم، ولم يحدث أبداً أن قرأت شـيئاً في الأدب الديني بنفس الشوق الذي كنت أقرأ به كتب السياسة والتاريخ والعلوم وبقية المواضيع.

كان الذهـاب إلى الكنيسـة وترديد الصلوات وبقية الطقوس الدينية بالنسـبة لي بمثابة مسـؤولية ثقيلة، ولم أشعر على الإطلاق برغبة ولو قليلة بالاقتراب من الإله. لا أستطيع أن أجيب لماذا كنت غير مهتم بالطقوس الدينية وبقية الأمور التي شـكلت حياة والدي. ببساطة.. لا أتذكر أنني كنت أشعر باهتمام أو حماسة لهذه الاحتفالات، ولم يكن عقلي مأسورا ولا «قلبي مولعاً» (حسب تعبير ويسلي الشهير) بالدراسة الكنسية أو بالعبادة، ولا أدري إذا ما كانت عدم حماستي للدين في أيام شـبابي سبب أم نتيجة؟ ولكن أسـتطيع القول أن أي قدر من الإيمان كان موجوداً لدي عندما دخلت مدرسة كنغزوود كان قد تلاشى عندما تخرجت منها.

لقد قيل لي: إن مجموعة بارنا Barna Group – وهي منظمة مســيحية لقياس إنطباعــات الرأي العام- توصلت من خلال اســتبياناتها إلى نتيجة مفادها أن ما تؤمن به في عمر الثالثة عشرة من عمرك هو ما ستظل تؤمن به حتى موتك. بغض النظــر عن صحــة هذه النتيجة من عدمها، فإننــي أدرك أن القناعات التي كانت لدي عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري بقيت معي في أغلب سنوات حياتي، فقط لا أتذكر بالتحديد متى وكيف بدأ التغيير، ولكن بالتأكيد -كما هو الحال مع أي إنســان يفكر- فإن عوامل عدة تلعب دوراً فــي تكوين معتقداته، ليس أقلها ما أســماه إمانويل كانت Immanuel Kant «الرغبة الجامحة للعقل بعدم الإستسلام للتبشــير»، وهو ما أعتقد أنني أشــترك فيه مع والدي. أنا وهو نشترك في ميلنا الطبيعــي لاتباع «طريق الحكمة» كما وصفها الفيلســوف كانت «إنها الحكمة التي لها خاصية إختيار المســألة التي يكون حلها مفيداً للجنس البشري من بين عدد لا حصر له من المسائل التي تعرض أمامنا».

معتقدات والدي المسيحية أقنعته بأنه لا يوجد شيئ «أهم للجنس البشري» أكثر من توضيح ونشــر وتطبيق الحقائق الموجودة في العهــد الجديد. رحلتي الفكرية قادتنــي لاتخاذ اتجاهات عــدة، ولكن كل منها كانت تنطوي علــى الرغبة العقلية الشديدة، وهو ما أشترك فيه مع والدي.

أتذكر أيضاً أنني اســتفدت كثيراً من تذكير والدي لي في أكثر من مناسبة بأن علماء الإنجيل عندما يريدون استيعاب مفهوم ما من العهد القديم فإنهم لم يكونوا

يبحثون عن الجواب ببساطة من خلال التفكير فيه بمفردهم، وإنما كانوا يجمعون ويفحصون أكبر قدر من النصوص يمكن أن يجدوه.

هذا الأسلوب البحثي شكل من عدة أوجه الأساس لدراستي الفكرية - والذي لازلت محافظا عليه - في تجميع وفحص كل المعلومات التي لها علاقة بالموضوع. إنه من الأمور التي تدعو للدهشة أن مالك البيت الذي نشأت فيه غرس فِيَّ الحماسة للبحث الناقد، وهو ما قادني بعد ذلك إلى رفض إيمان والدي.

لقـــد قلت في بعـــض كتاباتي الإلحادية المتأخرة أنني وصلت إلى نتيجة بشـــأن عدم وجود إله بصورة متعجلة جداً، وبشـــكل مبســـط جـــداً، والذي تبين لي فيما بعد أنها كانت أســـباباً خاطئة. لقد كررت اســـتخدام هذه النتيجة الخاطئة بشكل متكرر ومفصل في مناقشـــاتي وكتاباتي، ولكن بعد ســـبع سنوات من ذلك، لم أجد أي أساس كاف لتســـويغ هذا الموقف الأصولي. أحد الأسباب المبكرة لتحولي إلى الإلحاد كان مشكلة وجود الشرور في العالم.

لقـــد كان أبي يصطحبني أنا وأمي في رحلة صيفية كل ســـنة، ولم يكن ممكناً القيام بهذه الرحلات إعتماداً على راتب والدي كمشـــرف ديني لوحده. لقد أمكن القيـــام بهذه الرحلات لأن والدي كان يقوم بمســـاعدة طلبـــة الثانوية في مراجعة دروسهم في بداية فصل الصيف، وكان يتقاضى أجراً مقابل ذلك. لقد كان السفر بالنســـبة لنا ممكناً وبنحو رخيص نظراً إلـــى أن والدي كان يتكلم الألمانية بطلاقة بعد أن درس اللاهوت لمدة ســـنتين في جامعة ماربورغ الألمانية قبل الحرب العالمية الأولـــى، ولذلك كان بمقدوره أن يأخذنا في أثناء العطـــلات في رحلة إلى ألمانيا، ومرة أو مرتين سافرنا إلى فرنسا دون الحاجة إلى الاستعانة بمكتب سياحي. كما أن والـــدي كان قد تم تعيينه كممثل للكنيســـة المنهجية في عدة مؤتمرات لاهوتية دولية، وقد اصطحبني – وأنا ولده الوحيد– مع والدتي كضيوف غير مشاركين في هذه المؤتمرات.

لقد تأثرت كثيراً برحلات الســـفر الخارجية في الســـنوات التي سبقت الحرب

العالميــة الأولى، ولازلــت أتذكر بوضوح اللافتات والعلامــات المعلقة خارج القرى الصغيــرة مكتوباً عليها «لا يســمح بدخول اليهود»، وأتذكر أيضــاً أنه كانت تعلق لافتات خارج مدخل المكتبات العامة تقول «لا تسمح لوائح المؤسسات بإعارة الكتب لليهود»، وشاهدت أيضاً عرضاً عسكرياً لعشرة آلاف من أصحاب القمصان البنية فــي إحدى ليالي بافاريــا الصيفية. لقد مكنتني رحلاتــي العائلية أيضاً من رؤية مجموعات من جماعة وافن Waffen SS بلباسهم الأسود وقبعاتهم المرسوم عليها صورة جمجمة وعظمين متقاطعين.

هذه التجارب رسمت مخيلتي في مرحلة الشباب وشكلت لي -كما هو الحال مع الكثيرين- تحدياً حول وجود إله محب يمتلك القوة الكاملة، ولا أستطيع أن أقيس درجــة تأثير ذلك على تفكيري، هذه الخبرات إذا لم يكن ســواها أيقظت داخلي الوعي بثنائية الشــياطين وهما معادية الســامية [١] AntiSemitism والشمولية [٢] Totalitarianism.

(١) معاداة الســامية أو معاداة اليهود هو مصطلح يعطى لمعاداة اليهودية كمجموعة عرقية ودينية وإثنية. تم أســتعمال المصطلــح لأول مرة من قبل الباحث الألماني فيلهم مار لوصــف موجة العداء لليهود في أوروبا الوسطى في أواسط القرن التاسع عشر.

(٢) الشمولية هي طريقة حكم ونظام سياسي يمسك فيه حزب واحد بكامل السلطة، ولا يسمح بأية معارضة فارضاً جمع المواطنين وتكتيلهم في كتلة واحدة. وبعبارة أخرى فإن الشــمولية أو نظام المجتمع المغلق هو مصطلح يشير إلى نظام سياسي تكون فيه الدولة تحت سلطة فرد أو فئة أو فصيل واحد ودون أن تعرف الدولة حدوداً لسلطاتها وأن تسعى بكل جد لتنظيم كل مظاهر الحياة العامة والخاصة ما أمكنها ذلك.

مكان مفعم بالحيوية

An Enormously Lively Place

أن تتربى خلال الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين في بيت مثل بيتنا -ينتمي للطائفة المنهجية- يعني أنك تعيش في كامبردج ولكن لا تنتمي لها. بدايةً.. اللاهوت لم يعد مقبولاً على أنه «ملكة العلوم»، وكما هو الحال في باقي المؤسسات كما لم تكن هناك كلية للتأهيل الديني في أجواء الجامعة، وكنتيجة لذلك لم أكن معروفاً بإرتباطي بكامبردج، على الرغم من أن والدي شعر وكأنه في بيته هناك، وعلى كل حال فإنه في عام ١٩٣٦ وعندما بدأت بالترقي في المدرسة فإنني نادراً ما كنت أقيم في كامبردج خلال فترة الدراسة، ومع ذلك فإن مدرسة كنغزوود كانت في أيامي مكاناً يعج بالحياة، وكان يرأسها رجل يستحق أن يُقَيّم باعتباره واحداً من أفضل مدراء المدارس. قبل قدومي إليها بسنة، حصلت المدرسة على جوائز في أكسفورد وكامبردج في مؤتمرات المدارس أكثر من أية مدرسة أخرى، ولم يكن نشاطنا المدرسي يقتصر على قاعات الدراسة والمختبرات فقط.

عندما تكون في مثل هذه البيئة المثيرة فإنه ليس مدعاة للدهشة لأحد أنني بدأت في التشكيك بالإيمان الصارم لوالدي، وهو الإيمان الذي لم أشعر بأي إرتباط عاطفي قوي تجاهه. عندما كنت في الصف السادس العلوي (يماثل الصف الثاني عشر في النظام الأمريكي) كنت أناقش مع زملائي في الصف بشكل متكرر فكرة الإله ذو القدرة المطلقة والخير المطلق، وعدم توافق هذه الفكرة مع وجود الشرور ونواقص العالم. عندما كنت في مدرسة K.S، لم تكن مراسم يوم الأحد المنتظمة تتضمن أية إشارة إلى مصير الإنسان في الجنة أو النار. عندما كان

ســاكيت A. B Sackett – مديراً للمدرســة، وكان في الوقت ذاته أسقفاً، وهو أمر غيــر معتاد في وقته- كانت كلمته دائماً ما تتعلق بعجائب وروعة الطبيعة. وعندما حل عيد ميلادي الخامس عشر كنت قد بدأت برفض فكرة أن الكون قد خلقه إله كامل القدرة والرحمة.

قد يسأل أحدهم عما إذا كنت قد فكرت باستشارة المرشد الديني حول شكوكي المتعلقــة بوجود الإله، ولكنني في الحقيقة لم أفعــل ذلك قط، ومن أجل الحفاظ على اســتقرار العائلة وبشــكل خاص علاقتي مع والدي حاولت قدر المستطاع أن أخفي عن الجميع في البيت تحولي نحو اللادين، وحسب ما أعتقد فإنني نجحت في ذلك لسنوات عديدة. ولكن بحلول يناير من عام ١٩٤٦، وحينما كنت في الثالثة والعشــرين من عمري أنتشر الخبر -ووصل إلى والدي- بأنني ملحد وأنني كذلك لا أؤمن بالحياة بعد الموت، وأنه لم يكن من المرجح أبداً عودتي عن قناعاتي.

لقــد كان تحولي كاملاً وصارماً بحيث إن النقاش في البيت حول هذا الموضوع كان ســيبدو نقاشاً عقيماً، ومع ذلك – فاليوم وبعد خمسين سنة من ذلك الوقت- فإنه يمكنني القول بأن والدي كان سيشــعر بالســعادة الغامــرة بقناعاتي الحالية المتعلقــة بوجود الإلــه، فعلى الأقل ســوف يعتبر أن ذلك يمثل مســاعدة عظيمة للكنيسة المسيحية.

أكسفورد مختلفة

A Different Oxford

من مدرسة كنغزوود انتقلتُ للدراسة في جامعة أكسفورد. وصلت إلى أكسفورد في يناير من عام ١٩٤٢، وكانت الحرب العالمية الثانية وقتها مشتعلة. في أيامي الأولى كطالب، وكنت حينها في الثامنة عشرة من عمري، قمت بإجراء الفحص الطبي وتم بعد ذلك إلحاقي بشكل رسمي في سلاح الجو الملكي. في أيام الحرب تلك، كان مطلوباً من كل الشباب اللائقين بدنياً أن يقوموا بالخدمة يوماً واحداً في الأسبوع في أحد مراكز الخدمة، وبالنسبة لي كان مركز الخدمة هو سرب الطائرات التابع لجامعة أكسفورد.

كانت الخدمة العسكرية لمدة سنة واحدة بنظام العمل الجزئي، وبعد ذلك تكون بنظام العمل الكلي، ولكن خدمتي العسكرية لم تكن ذات طابع قتالي. كانت الخدمة تتضمن تعلم بعضٍ من اللغة اليابانية في قسم الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن، ومن ثَمّ القيام بترجمة الإشارات اللاسلكية التي يتم رصدها وفك شفرتها، وكان ذلك يتم في منطقة بلتشي بارك.

بعد استسلام الجيش الياباني عملت في ترجمة الإشارات اللاسلكية التي كانت تصدر من قبل الجيش الفرنسي الذي كان قد أُنشأ حديثاً للسيطرة على المنطقة المحتلة وهي ما عرفت بالمانيا الشرقية بعد ذلك.

عندما عدت إلى نظام الدراسة الكامل في جامعة أكسفورد في يناير من عام ١٩٤٦، كان عليّ أن أتقدم للاختبار النهائي في صيف عام ١٩٤٧، وجدت أن أكسفورد التي عدت إليها أصبحت أكسفورد مختلفة. يبدو أنها أصبحت مؤسسة

أكثر إثارة مما كانت عليه عندما تركتها قبل ثلاث سنوات تقريباً. كان هناك العديد من الوظائف المدنية، وكانت هناك وظائف عسكرية كذلك، ولكنها كانت وظائف أكثر أماناً مما كانت عليه في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى. حضرت بعض المحاضرات في كلية الآداب الإنسانية، وقد كان يلقي بعض المحاضرات محاربون قدامى من الذين كانوا فاعلين في مساعدة المقاومة اليونانية في جزيرة كريت وعلى الأراضي اليونانية، وكان الهدف من ذلك جعل المحاضرات أكثر تشويقاً وتحفيزاً لطلبة البكالوريوس.

تقدمت للاختبار النهائي في الفصل الصيفي من عام ١٩٤٧، وقد كان مدهشاً ومفرحاً في ذات الوقت أنني حصلت على المرتبة الأولى، وبعد أن حصلت على هذه المرتبة عدت إلى معلمي الخاص جون مابوت John Mabbott في كلية القديس جونز وقلت له: إنني تخليت عن هدفي السابق في العمل على الحصول على شهادة بكالوريوس ثانية في المدرسة التي شُيِّدَت حديثاً في الفلسفة وعلم النفس، فأنا الآن أريد أن أكمل دراستي العليا في الفلسفة.

الأصبوحات الفلسفية
Waxing Phiosophic

قام مابوت بمساعدتي في الالتحاق بالدراسات العليا في الفلسفة تحت إشراف غلبرت رايل [1] Gilbert Ryle، والذي كان وقتها أستاذ مادة الميتافيزيقا في جامعة أكسفورد. كان رايل أحد أساتذة كرسي الفلسفة الثلاثة خلال الفصل الثاني من العام الدراسي ١٩٤٧-١٩٤٨.

بعد ذلك بسنوات، علمت عن طريق كتاب مابوت «ذكريات أكسفورد» Oxford Memories أنه ورايل كانا صديقين منذ أن التقيا لأول مرة في أكسفورد. لو كنت في كلية أخرى وسُئلت من قبل أستاذي الخاص عن الأفضل من بين الأساتذة الثلاثة لفضلت بالتأكيد هنري برايس Henry Price، وذلك بسبب اهتماماتنا المشتركة في علم ما وراء النفس، وهو التخصص الذي كان يسمى بالبحث النفسي في ذلك الوقت. ولذلك فإن كتابي الأول كان بعنوان «مقاربة جديدة إلى البحث النفسي» A New Approach to Psychical Research، وقد أصبحنا أنا وبرايس بعد ذلك متحدثين في المؤتمرات التي تعني بالبحث النفسي، ولكن أنا متأكد أنني لم أكن لأحصل على جائزة الجامعة في الفلسفة في تلك السنة لو كنت تحت إشراف برايس، لأننا كنا سنقضي الوقت في النقاش حول مواضيع الاهتمام المشترك بيننا.

بعد أن قضيت العام الدراسي ١٩٤٨ في الدراسات العليا في الفلسفة تحت إشراف رايل حصلت على جائزة التميز، وكانت عبارة عن منحة جون لوك للدراسة

(١) فيلسوف بريطاني نال شهرته عن كتابه مفهوم العقل (١٩٤٩)، وفيه قال أن الكثير من المعضلات الفلسفية نشأت من الخلط في تفسير المصطلحات اللغوية.

في تخصص الفلسـفة الذهنية، وبعد ذلك تم تعييني بوظيفة محاضر في المجال التدريسي.

خلال السـنة التي قمت فيها بالتدريس في أكسـفورد قمـت بتدريس كتابات الفيلسـوف لودفيـج فتجنشـتين [1] Ludwig Wittgenstein وهو صاحب الاتجاه الفلسـفي الذي أثّر فِيّ عند الدراسة في أكسفورد. نشرت هذه الكتابات بعد ذلك بعنوان «الكتاب الأزرق والكتاب البني» Blue Book، Brown Book و «محاضرات في الرياضيات» Lectures on Mathematics، وقد كانت مرفقة برسائل من فتجنشتين تشـير إلى نوعية القراء الموجهة لهـم، وكذلك نوعية القـراء الذين لا ينبغي لهم أن يقرأوها، وقمت أنا وأحد زملائي بنشـر نسـخ من محاضرات فتجنشتين في أكسـفورد، وجعلناها في متناول جميع من يرغبون بقراءتها. كنا نسأل كل شخص نعرف إهتمامه بالفلسـفة في أكسفورد عما إذا كانت لديه مخطوطات لمحاضرات فتجنشـتين، وإذا كان الجواب «نعم» كنا نسـأله عن المحاضرة المتوفرة لديه، ولأن مكائن التصوير لم تكن قد ظهرت في ذلك الوقت قمنا بتوظيف طبّاع للقيام بمهمة طباعة عدد نسخ كافية لتلبية حاجة من يطلبها.

تعرّف رايل على فتجنشـتين عندما زار الفيلسوف النمساوي جامعة كامبردج، وبعدها كوّن رايل علاقة صداقة مع فتجنشتين، وأقنعه بأن يقوما برحلة على الأقدام إلى منطقة بحيرة Lake District الإنجليزية في عام ١٩٣٠ أو ١٩٣١. لم ينشر رايل

(١) واحد من أكبر فلاسـفة القرن العشـرين، ولد في فيينا بالنمسـا ودرس بجامعة كمبردج بإنجلترا وعمل بالتدريس هناك. وقد حظي بالتقدير بفضل كتابيه «رسـالة منطقية فلسـفية» وتحقيقات فلسفية. عمل في المقام الأول في أسس المنطق، والفلسفة والرياضيات، وفلسفة الذهن، وفلسفة اللغة. اعتقد أن معظم المشـاكل الفلسفية تقع بسـبب اعتقاد الفلاسفة أن معظم الكلمات أسماء. كان لأفكاره أثرها الكبير على كل من «الوضعية المنطقية وفلسفة التحليل». أحدثت كتاباته ثورة في فلسفة ما بعد الحربين.

أي وصف لهذه الرحلة وما الذي تعرف عليه أثناء صحبته لفتجنشـــتين، لكن بعد هذه الرحلة أصبح رايل يتصرف كوسيط بين فتجنشتين و «العالم الخارجي».

وكـــم كانت هذه الوســـاطة ضرورية فـــي بعض الأحيان، وهذا ما يكشـــف عنه التســـجيل الذي يوثق لمحادثة بين فتجنشـــتين –الذي كان يهوديا– وأخواته بعد أن أحتل جنود هتلر النمسا.

في هذه المحادثة، يطمئن فتجنشـــتين أخواته بالقول «أنه وبســـبب علاقاته مع الشـــخصيات الرئيسية والعوائل الكبيرة في النظام السابق وعلاقته بالناس فإنهم جميعاً لن يتعرضوا لأي أذى»، ولاحقاً عندما أصبحت أســـتاذاً للفلسفة كنت أكره أن أكشف لطلبتي أن فتجنشتين – والذي كنت أعتبره والكثير من زملائي فيلسوفاً عبقرياً– كان شديد الغرور في الأمور العلمية.

لقد كنت شاهداً شخصياً على سلوك فتجنشتين مرة واحدة على الأقل، وحدث ذلك عندما كنت في مرحلة البكالرويوس، وكان فتجنشتين يقوم بزيارة إلى جمعية جويت Jowett Society. كان موضوع المحاضرة المعلن هو «أنا أفكر إذاً أنا موجود»، والعنوان مأخوذ بالتأكيد من عبارة الفيلســـوف الفرنســـي رينيه ديكارت الشهيرة. كانت القاعة مكتظة بالحضور، والجمهور يصغي لكل كلمة يقولها الضيف العظيم، ولكن الشـــيء الوحيد الذي أتذكره الآن أن المحاضـــرة لم تكن لها علاقة واضحة بالعنـــوان المعلن للمحاضرة، ولذلك عندما انتهى فتجنشـــتين من محاضرته نهض البروفيســـور ريتشـــارد H.A Richard من مكانه، وكان بادياً عليه السخط، وسأل فتجنشـــتين «يا فتجنشتين (ودكتوراه كامبردج لم يكن معترفاً بها في أكسفورد كما يبدو) مع ذلك أنا أفكر إذاً أنا موجود». وضع فتجنشتين أصبع سبابته على جبهته، واكتفى بالقول: إن عبارة «أنا أفكر إذاً أنا موجود» جملة غريبة جداً. كنت ولا أزال

أعتقد أن الرد الأنسب على فتجنشتين كان ينبغي أن يُستوحى من أحد مشاهد المسلسل الكرتوني «الرجال والنساء والكلاب»، والذي يقول فيه أحدهم «ربما ليس لديك جاذبية يا ليلي، وإنما الذي تقوله مجرد ألغاز».

التصادم مع لويس

Locking Horns With Lewis

خلال الفترة التي كنت فيها طالباً في الدراسات العليا تحت إشراف غلبرت رايل، أصبحت أدرك أن من عادته أن يرد بشكل مباشر وجهاً لوجه على أي إعتراض يوجه لأيٍّ من أفكاره الفلسفية، ورغم أن رايل لم يحدثني بذلك ولا أي شخص آخر حسب علمي، فإن حدسي يقول إن رايل يتبع المقولة التي أوردها أفلاطون في كتابه «الجمهورية» –وهي المقولة التي تنسب إلى سقراط–، وفيها يقول «يجب أن نتبع الحجة أينما قادتنا»، وهذا المبدأ – ضمن أمور أخرى – يتطلب أن يتم نقاش أي إعتراض بصورة مباشرة وجهاً لوجه، وقد حاولت أن أطبق هذا المبدأ طوال حياتي الجدلية.

هذا المبدأ السقراطي شَكّلَ عنصر تحفيز للنادي السقراطي، وهو عبارة عن مجموعة كانت فاعلة في المشهد الفكري في أكسفورد أيام الحرب. لقد كان النادي السقراطي مسرحاً لمناظرات بين الملحدين والمسيحيين، وقد كنت أشارك بانتظام في هذه الجلسات، وكان رئيس النادي في الفترة من ١٩٤٢ إلى ١٩٥٤ الكاتب المسيحي لويس C. S Lewis. كان النادي يعقد اجتماعه في مساء كل يوم اثنين في قاعة السرداب في كلية القديس هيلدا. أشار لويس في مقدمة العدد الأول من «مجلة سقراط» إلى عبارة سقراط «يجب أن نتبع الحجة إينما قادتنا»، وقد لاحظ لويس في هذه المقدمة أن هذه الحلبة المخصصة (النادي السقراطي) للصراع بين الإلحاد والمسيحية كانت أمراً بديعاً.

تصادم العديد من كبار الملحدين في أكسفود مع لويس وأتباعه المسيحيين، ولعل أفضل مناظرة حدثت بين الطرفين كانت في فبراير من ١٩٤٨ وكانت بين لويس Lewis واليزابيث أنسكومب Elizabeth Anscombe، وهي المناظرة التي جعلت لويس يعيد كتابة الفصل الثالث من كتابه «المعاجز» Miracles. لازلت أتذكر عودتي مع مجموعة من الأصدقاء بعد انتهاء المناظرة العظيمة، حيث كنا نسير خلف اليزابيث وأصدقاءها، وكانت مبتهجة وكذلك كان حال أصدقائها. فور الانتهاء من المناظرة، خرج لويس وحيداً وكان يمشي بأقصى ما يمكنه ليلجأ إلى غرفته في كلية ماغدن Magdden College التي كانت تقع بالقرب من المكان الذي كنا نقطع فيه الشارع.

رغم أن البعض أعتبر أن نتيجة المناظرة أثرت بشكل دائم على معنويات لويس، ولكن أنسكومب Anscombe ذاتها كانت تختلف معهم في ذلك. لقد كتبت لاحقاً: «لقد كان اجتماع النادي السقراطي الذي قرأت فيه ورقتي البحثية بالنسبة لمجموعة من أصدقاء لويس فظيعاً وصادماً وهو ما أدى إلى إحباطه بشكل كبير، ولكن لا الدكتور هارفرد Havard ولا البروفيسور جاك بينت Jack Bennett يتذكر أن مثل هذا الشعور كان بادياً على لويس ... أنا أميل إلى التحليل المناقض لهذا الاعتقاد من قبل أصدقائه ... باعتباره مثالاً جيداً على ظاهرة تسمى «الإسقاط»[١] ... لقد كان لويس أكثر المدافعين عن الدين المسيحي تأثيراً في الحقبة الأخيرة من القرن العشرين ... لقد سألتني هيئة الإذاعة البريطانية BBC عما إذا كنتُ قد دحضت دفاع لويس عن الدين بشكل كامل ... أجبت لا، أنا فقط لم أكن أعتقد أن هناك

(١) الإسقاط هي حيلة دفاعية ينسب فيها الفرد عيوبه ورغباتة المحرمة والعدوانية أو الجنسية للناس حتى يبرء نفسه ويبعد الشبهات عنها.

أسباباً كافية للاعتقاد بذلك، ولكن عندما عدت للتفكير في الأمور اللاهوتية، بدا لي أن الوحي المسيحي قوي جداً إذا كنت تعتقد بالوحي من الأساس»[1].

(1) G. E. M. Anscombe, The Collected Papers of G. E. M. Anscombe, vol. 2, Metaphysics and the Philosophy of Mind (Minneapolis: University of Min (Minneapolis: University of Minnesota Prrss, 1981), x.

تطورات إيجابية جداً

Highly Positive Development

خلال الفصل الأخير لي في جامعة أكسفورد، نشر آير[1] A.J. Ayer كتابه «اللغة، الصدق والمنطق» Language، Truth and Logic، وهو ما أقنع عدداً من أعضاء النادي السقراطي أنه لا بد من تفنيد هرطقة آير في الوضعية المنطقية، والتي تقول أن كل الفرضيات الدينية لا أهمية معرفية لها، وأنها يجب أن تُدحض. بدا لي أن الورقة الإولى والوحيدة التي قدمتها للنادي السقراطي وكانت بعنوان «اللاهوت والتكذيب» Theology and Falsification قدمت ما أعتبرته تفنيداً كافياً، وأعتقدت حينها أنني حققت نصراً كاملاً، وأنه لا حاجة لأية مناظرة في المستقبل بهذا الخصوص.

ألتقيت في أكسفورد بأنس دونسون Annis Donnison، والتي أصبحت فيما بعد زوجتي. لقد تعرفنا على بعضنا البعض عن طريق أخت زوجتي التي دعتنا إلى إجتماع النادي العمالي في أكسفورد، وبعد أن تعرفت على أنس Annis لم أعد أعير إهتماماً لأي شخص في هذا الاجتماع سواها، وبعد هذا اللقاء أتفقنا أنا وأنس على أن نلتقي مرة أخرى، وكان ذلك اللقاء الوحيد الذي واعدت فيه فتاة على الإطلاق. كان وضعنا الاجتماعي مختلفاً عندما التقينا لأول مرة، حيث كنت

(١) ألفرد جول آير (Alfred Jules Ayer): فيسلوف بريطاني ولد في ٢٩ أكتوبر ١٩١٠ وتوفي في ٢٧ يونيو ١٩٨٩. أبرز علام الوضعية المنطقية. تمحورت أفكاره حول نقد الميتافيزيقيا بمختلف فروعها كاللاهوت و الجمال و الأخلاق [١]. حيث رأى أن الميتافيزيقيا لا يمكن التأكد من حقيقتها من خلال التجربة. كما أنكر بديهية الأحكام المتعلقة بالماضي، وذهب إلى أنها ليست كبداهة الحاضر، لأننا لا نتمكن من الرجوع إلى الوراء للتيقن من صحة ما وقع في الماضي، والنتيجة أننا لا يمكننا أن نثبت ذلك بطريقة علمية.

أقوم حينها بالتدريس في كنيسة مسيحية مخصصة للرجال فقط، بينما كانت أنس Annis في سنتها الأولى كطالبة في كلية سومرفيل Somerville College في أكسفورد، وهي الكلية التي كانت تقوم في ذلك الوقت بفصل كل طالب يُقدم على الزواج.

لقد كانت والدة زوجتي قلقة من قيام طالب دراسات عليا مثلي بمواعدة أبنتها التي كانت تصغرني كثيراً، ولذلك سألَت أبنها - وهو الذي أصبح بعد ذلك أخو زوجتي- والذي أكد لها أن إبعادي عن أنس سوف يكسر قلبها. كنت أفترض على الدوام أن أخا زوجتي يريد لأخته الصغيرة أن تُترك وشأنها لتدبر أمور حياتها؛ لأنه كان يعرف أنها فتاة عاقلة وأنها محل ثقة وأنها لن تتخذ أي قرار طائش.

في ذلك الوقت كنت قد أبتعدت منذ فترة طويلة عن إيمان والدي، ومع ذلك فإنني طبقت ما كنت تعلمته من آبائي المنهجيين، فلم أحاول قط أن أخدع أنس قبل الزواج لأنني كنت أعتقد دائماً أن ذلك عمل غير أخلاقي. وكوني أيضاً ابناً لأكاديمي لم أحاول إقناع أنس بالزواج مني قبل أن تتخرج وتحصل على الدرجة العلمية. أستمريت في العمل كمدرس غير متفرغ في الكنيسة المسيحية في عام ١٩٥٠، وفي نفس الوقت كنت قد بدأت في العمل كمحاضر في فلسفة الأخلاق بجامعة أبردين الاسكتلندية في أكتوبر من نفس العام.

ما بعد أكسفورد
Beyonf Oxford

خلال سنوات إقامتي في أبردين شاركت بعدة حوارات إذاعية، كما شاركت في ثلاثة أو أربعة نقاشات إذاعية كانت تُنظم من قبل البرنامج الثالث في إذاعة BBC، وقد شـــاركت كموضوع لتجارب نفسية متعددة. من الأمور التي جذبتنا إلى أبردين هو أننا أصبحنا أصدقاء لكل الذين قابلناهم تقريباً، وما جذبنا أيضاً لأبردين تنوع وقوة الحركة التعليمية فيها، ولكون أبردين مدينة جديدة بالنسبة لنا توفرت فرص عديدة للتنزه، ومنها الســـير على الشواطئ وبالخصوص في منطقة كيرنجورمس Cairrgrones.

في صيف عام ١٩٥٤، غادرت أبردين في طريقي إلى أمريكا الشـــمالية لأصبح بروفيسور الفلســـفة بكلية ســـتانفورد Stanford College الشمالية والتي حصلت فيمـــا بعد على رخصة لتصبح جامعة كييل University of Keele، وخلال الســـبعة عشـــرة عاماً التي قضيتها هناك، كانت جامعة كييل أقرب ما تكون المملكة المتحدة إلى كليات الآداب في الولايات المتحدة. سرعان ما كرست جهدي للعمل هناك، ولم أغادر جامعة كييل إلا عندما بدأت تفقد ببطء تميزها.

قضيت العام الأكاديمي ١٩٧٠-١٩٧١ كأستاذ زائر في الولايات المتحدة، ولكنني استقلت في نهاية عام ١٩٧١ من جامعة كييل وانتقلت في يناير من عام ١٩٧٢ إلى جامعـــة كالغاري بكندا. كان هدفي الأول أن أســـتقر هناك ولكن بعد ثلاثة فصول فقط انتقلت إلى جامعة ردينـــغ University of Reading، وبقيت فيها حتى نهاية عـــام ١٩٨٢، وقبل أن أتقدم بطلب التقاعـــد المبكر وأحصل عليه من جامعة ردينغ

وقعت على عقد للتدريس فصلاً واحداً كل سنة في جامعة يورك في مدينة تورنتو الكندية، واستمر ذلك لآخر ستة أعوام من حياتي الأكاديمية. في منتصف هذه المدة استقلت من جامعة يورك لكي يتسنى لي قبول دعوة مركز الفلسفة الاجتماعية والسياسية في جامعة باولنغ غرين بولاية أوهايو الأمريكية، وذلك للعمل كباحث متميز، وقد تم تمديد الدعوة لثلاث سنوات أخرى، وبعد ذلك تقاعدت بشكل كامل، ومازلت أقيم في ريدنغ.

الخطوط العريضة لمسيرتي العلمية لا تُظهر لماذا أصبحت فيلسوفاً، وعطفاً على اهتمامي الفلسفي منذ كنت في مدرسة كنغزوود كان يفترض أن أصبح فيلسوفاً محترفاً قبل وقت طويل من ذهابي إلى أكسفورد، بل حتى خلال الفصلين الذين قضيتهما في أكسفورد قبل أن ألتحق بسلاح الطيران الملكي فإن أقرب مدى وصلت إليه من الفلسفة كان خلال إجتماع النادي السقراطي. خارج نطاق أبحاثي ودراساتي، كانت إهتماماتي الرئيسية سياسية. وهذا الأمر أستمر إلى ما بعد يناير ١٩٤٦، حيث صارت المواضيع التي أدرسها تشمل الفلسفة، وأول مرة شعرت فيها أن مجال عملي يمكن أن يكون في الفلسفة كان قبل أن أتقدم للاختبار النهائي في ديسمبر من عام ١٩٤٧.

في الفصلين القادمين من هذا الكتاب، أحاول أن أفصل في الأساس الذي أستندت عليه لسنوات طويلة في معارضة فكرة وجود إله، وسأبدأ أولاً بالغوص في نصف قرن من الحجج الإلحادية التي كونتها وطورتها ثم بعد ذلك أستخدمتها، أما في الفصل الثالث فسوف أتتبع التحولات العديدة التي حدثت في مسيرتي الفلسفية، وبالتحديد تلك التي يمكن تبينها من خلال المناظرات المتكررة التي شاركت فيها في موضوع الإلحاد.

خلال كل ذلك آمل أن يتضح، كما ذكرت في السابق، أن أهتمامي الطويل بالدين لم يأت سوى من باب الحيطة والأخلاق أو ببساطة من باب الفضول. أقول «من باب الحيطة» لأنه إذا كان هناك إله أو آلهة لهم علاقة بأحوال البشـــر فإن من الطيش أن لا نحاول أن نقف في الجانب الذي يقف فيه هؤلاء الآلهة، وأقول: إن اهتمامي «من باب الأخـلاق»؛ لأنني شـعرت بالسـعادة أن أجد ما قالـــه ماثيـو أرنولـد[1] Matthew Arnold «أن الخلود ليس لأنفسنا بل لما نفعله من أجل الخير» صحيحاً، وأقول: إن اهتماماتي كانت فضولية؛ لأن أي شخص صاحب عقلية علمية يجب أن يبحث قدر استطاعته لكي يتعرف على هذه المواضيع. ولعلّي بعد كل هذه السنوات أكثر شخص مندهش من تحولي من نفي وجود الإله إلى إثبات إكتشافه.

(١) ماثيو أرنولد (١٨٢٢– ١٨٨٨) شاعر وناقد وكاتب ومصلح تربوي إنجليزي.

الفصل الثانـــي

إلى أين يقود الدليل؟
Where the Evidence Leads

إلى أين يقود الدليل؟
Where the Evidence Leads

عندما سـرحت Alice بخيالهـا وهي تنظر في المرآة فـي رواية لويس كارول Lewis Carroll الشـهيرة ألتقت بالملكة التي ادّعت بأن عمرها ١٠١ سـنة وخمسة أشهر ويوم واحد

قالت Alice: لا أستطيع تصديق ذلك

قالت الملكة بصوت خافت: ألا تستطيعين؟ حاولي مرة أخرى، خذي نفساً عميقاً وأغمضي عينيك.

ضحكت أليس Alice وقالت: لا فائدة من ذلك، لأن الشخص لا يمكن أن يصدق أشياء مستحيلة.

قالـت الملكـة: أعتقد أنك لم تتدربـي على ذلك بالقدر الكافـي، فعندما كنت فـي عمرك كنت أقوم بذلك نصف سـاعة يومياً (**لأنـي كنت أعتقـد بالكثير من المستحيلات بقدر الأشياء الست المستحيلة قبل تناول طعام الإفطار**).

أحسـب أن عليّ أن أتعاطف مع أليـس Alice، وخاصة عندما أتذكر كيف تغير مسار حياتي ودراستي حتى بعد أن درست الفلسفة تحت إشراف غلبرت رايل. أنا واثق أن ما حصل لي لم يكن مرجحاً إن لم يكن مستحيلاً.

بالـكاد يمكنني تخيُّل أنني عندمـا قمت بتأليف كتابـي «اللاهوت والتكذيب» وخلال نصف القرن القادم سـوف أنشر خمسـاً وثلاثين كتاباً في شتى مواضيع

الفلســـفة، ورغم شهرتي في الكتابة في موضوع وجود الإله، فإن ذلك لم يكن على الإطلاق مجال إهتمامي الوحيد.

على مر الســـنين كتبت في مواضيع تتراوح ما بين فلسفة اللغة إلى المنطق، من الفلســـفة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية إلى فلسفة العلوم، ومن علم ما وراء النفـــس Parapsychology ومن التعليم إلى النقاش حول الجبر والاختيار وموضوع الحياة بعد الموت، وعلى الرغم من أنني أصبحت ملحداً في الخامســـة عشـــرة من عمري وقيامي بتطوير اهتماماتي غير الفلسفية عندما كنت في مدرسة كنغزوود، فإن عملية إنضاج وترســـيخ آرائي الفلسفية اســـتغرقت سنوات، وفي ذلك الوقت توصلت إلى مبادئ إرشادية لم تتحكم في طريقة كتابتي وتفكيري فحسب، بل في الحقيقة قادتني في النهاية إلى عملية التحول الجذري من الإلحاد إلى الإيمان.

الاكتشافات المبكرة .... والمواقف المحرجة

Early Explorations . . . And Embarrssment

بعض آرائي الفلسفية تشكلت حتى قبل أن أدخل إلى مدرسة كنغزوود. لقد كنت معتنقاً الشيوعية في فترة تسجيلي في المدرسة، وقد استمريت كاشتراكي يساري نشيط حتى بداية الخمسينيات من القرن الماضي عندما استقلت من حزب العمال Labour Party، وهو الحزب الذي يمثل تاريخياً الحركة اليسارية في بريطانيا.

ما منعني من الاشتراك الواقعي في الحزب الشيوعي - كما كان حال بعض زملائي- هو سلوك الحزب الشيوعي البريطاني بعد المعاهدة الألمانية -السوفياتية عام ١٩٣٩ حيث كنت مراهقاً آنذاك. هذا الحزب الذليل والغادر بدأ بإدانة الحرب ضد ألمانيا الاشتراكية القومية (النازيين) باعتبارها حرباً «إمبريالية»، وكنتيجة لذلك لم يكن يعتقد بأن البريطانيون معنيين. أستمرت هذه الإدانات حتى عام ١٩٤٠ في الوقت الذي كانت البلاد تتعرض لخطر الغزو. لكن ما سُمِّيَ بالحرب الإمبريالية أصبح فجأة «حرباً تقدمية، حرب الشعب» (حسب وجهة النظر الشيوعية) وذلك عندما غزت ألمانيا الاتحاد السوفييتي، وفي السنوات التي تلت ذلك، أصبحت أشكك بصورة متزايدة بالنظرية والممارسة الشيوعية التي تقوم على فكرة أن التاريخ محكوم بقوانين شبيهة بقوانين العلوم الفيزيائية.

وفي هذه الفترة -وكما هو حال أقراني في مدرسة كنغزوود- تعرفت على الكتابات التفسيرية للكاتب جوود[1] Joad، وقد كان معروفاً في ذلك الوقت في

(١) فيلسوف إنجليزي، عمل على نشر الفلسفة في المجتمع البريطاني في فترة الحرب العالمية الثانية.

الوسط البريطاني بنقاشاته الإعلامية في المواضيع الفلسفية ونمط كتاباته المميز (قام بتأليف أكثر من ٧٥ كتاب). أكتشـفت من خلال قراءة أكثر كتب جوود مبيعاً أن بعضها مع الأسف فاقد للمصداقية فيما يتعلق ببحث ما وراء علم النفس، وهو ما يعرف في الوقت الحالي بالباراسيكولوجي.

أنـا أفترض أن كثيراً منا عندما يتقدم فـي العمر، ينظر إلى الوراء.. إلى فترة الشـباب بمزيج من الحنين والخجل، أنا متأكد أن هذه المشـاعر شائعة جداً، ومع ذلك ليس جميعنا لديهم سوء الحظ في توثيق ونشر بعض هذه الأمور المخجلة كما هو الحال معي.

إن إهتمامي بما وراء علم النفس (الباراسـيكولوجي) قادني في عام ١٩٥٣إلى نشر أول كتاب لي كُتب بطريق سيئة لا تطاق، وفي عام ١٩٥١ قمت بكتابة وتوزيع أثنين من الحوارات التي تهاجم سوء الفهم المنتشر عن ظاهرة الخوارق المزعومة لما وراء علم النفس. نشر هذه الحوارات دفع أحد الناشرين للطلب مني تأليف كتاب في هذا الموضوع، والذي بدافع من الغطرسة الشبابية أسميته «النهج الجديد في البحوث النفسية» A New Approach to Psychical Research.

تناول الكتاب الحقائق المفترضة والمسـائل الفلسفية المتعلقة بالباراسيكلوجي، ومما يشـفع لي في ارتكاب بعض الأخطاء في أسـلوب الكتابة في هذا الكتاب أن الناشر أراد أن يكون أسلوب الكتابة على شكل مقالات مبسطة. ومع ذلك كانت هناك أخطاء جوهرية، فعلى المسـتوى العملي أعتقـدت بصحة عمل الباحث والرياضي في جامعة لندن سـول Soal، وهو عمل تبين لـي فيما بعد أنه فاقد للمصداقية، وعلى المسـتوى الفلسفي لم أكن قد اسـتوعبت حينها أهمية الباراسيكولجي في الحجة التي قدمها الفيلسـوف الأسـكتلندي ديفيد هيوم في القسـم X من كتابه

«التحقيــق» Inquiry، ولكن بعـــد عقـود من ذلك الوقــت قمــت بتجميع كتـاب مــن مجمـوعة قراءات أعتبـــر أنها أفضل ما كُتـب قبل ذلــك الوقــت في هذا الموضــوع، وأســميت الكتاب «قراءات في المشكلات الفلسفية للباراسيكلوجي»[1] Philosophical Problems of Parapsychology. وفــي مقدمــة الكتــاب لخصت الحلول التي ظهرت في تلك السنوات لهذه المسائل.

(1) Parapsychology

استكشاف اهتمامات جديدة

Exploring New Interests

برز لدي اهتمامان فلسفيان عبر القراءات العلمية في مرحلة شبابي. الاهتمام الأول كان يتمثل في افتراض أن علم الأحياء التطوري evolution biology قادر على ضمان إحراز تقدم، وهذا الافتراض ظهر بقوة في كتاب جوليان هكسلي Julian Huxley «مقالات عالم أحياء» Essays of a Biologist، وهو المقترح الذي عمل على تطويره بإصرار بقية حياته في كتاب «الوقت، النهر المتجدد» Time، the Refreshing River، وفي كتاب «التاريخ إلى جانبنا» History Is on Our Side.

قام جوزيف نيدهام Joseph Needham بدمج هذا الافتراض مع فلسفة التاريخ الماركسية، وهو المذهب الذي يقوم على أن قوانين الطبيعة ناتجة عن تطورات تاريخية، فالماركسيون يعتقدون أن هناك قوانين عالمية – مثل حتمية الحروب الطبقية– تحكم تقدم المجتمعات، وكجزء من عملية دحض هذا الفكرة قمت – عندما دعيت في منتصف ١٩٦٠ للمشاركة في سلسلة «أفكار جديدة في الأخلاق» – بتأليف كتاب «الأخلاق التطورية» Evolutionary Ethics (وكان ذلك سبباً في تأليف كتاب «التطور الداروني» عندما طُلب مني المشاركة في توثيق سلسلة الحركات والأفكار في بداية الثمانينات من القرن الماضي، وفي هذا الكتاب الأخير أردت أن أبين أن ما يستدعي إحترام الدارونية أنها تجسد مثال للحفاظ على أفكار ومعتقدات تفتقر لأساس متين مثل أن الفكرة الدارونية هي ضمان للتطور البشري).

اهتمامي الفلسفي الثاني نتج عن قراءتي للأدبيات العلمية المشهورة هو محاولة رسم استنتاجات باركلية (نسبة إلى الفيلسوف الإنجليزي باركلي Berkeley) على ضوء تطور الفيزياء في القرن العشرين. تنتمي البيركلية الجديدة إلى مدرسة فلسفية تسمى المثالية Idealism، والمثاليون يعتقدون بأن الواقعية الفيزيائية هي حقيقة عقلية صرفة، وأن ما هو موجود إنما هو العقول ومحتوياتها.

المصدر الرئيسي لأفكار هذه المدرسة هو أعمال السير جيمس جينز Sir James Jeans والسير أرثر أدنغتون Sir Arthur Eddington. لقد كان كتاب «الفلسفة والفيزيائيون» Philosophy and the Physicists لمؤلفته سوزان ستبنغ Susan Stebbing هو ما ساعدني في شق طريق للخروج من هذه الغابة (المثالية).

بعد ذلك بسنوات، حاولت في كتابي «مدخل إلى الفلسفة الغربية» أن أبين أن المثالية قاتلة للعلم، وقد أستشهدت في الكتاب بفقرة من كتاب «العقل، الشعور والعلم» Mind، Perception and Science لمؤلفه المميز عالم الأعصاب البريطاني اللورد رسل برايان Russell Brain، والذي أوضح أن أطباء الأعصاب عادة ما يكونون مثاليين يعتقدون بأن فعل الإحساس بموضوع ما هو ببساطة حدث يقع في دماغ المستقبِل subject's brain، كما أستشهدت بادعاء برتراند رسل بأن «الإحساس لا يقدم خبرة مباشرة بالموضوع الفيزيائي»، قلت: لو كان ذلك صحيحاً فإنه ليس هناك شيء اسمه إحساس، ولا يخفى أن نتيجة هذا التفكير المثالي هي التقليل من قيمة الاكتشافات العلمية، إذ يعتمد العلماء – ويجب عليهم ذلك- على الملاحظة المباشرة في تبرير إكتشافاتهم، فإسقاط تلك الملاحظات المباشرة عن الاعتبار يقتضي إنتفاء قيمة مشاهداتهم. باختصار.. إن هذا الرأي يزيل أسس كل الاستدلالات العلمية، وكرد على هذا الرأي قلت: إنه لا بد في الإحساس الواعي

من تجربة حســـية (مثال: صوت وصورة المطرقة أثناء عملية إدخال المسمار)، وإذا كان هناك ثمة معطى حســـي صحيح فإن ذلك الشيء (المطرقة والمسمار) يجب أن يكونا جزءاً من إكتسابي لتلك الخبرة.

رؤية جديدة في الفلسفة

New Inishts in Philosophy

فــي الفترة التي قضيتها في أكســفورد ١٩٤٦-١٩٥٠، ظهــر إتجاه جديد في الفلســفة يُســمى بعض الأحيـان «ثورة في الفلســفة»، وكان هذا الاتجـاه في أوج ازدهاره. عندما كنت في أكســفورد قضيت ســنتين في درجة البكالريوس وسنتين أخريين في درجة الدراســات العليا وثمانية عشــر شــهراً كمدرس في الكنيســة المســيحية وخلال هذه الفتــرة تعمقت كثيرا في هذه «الفلســفة الجديدة»، والتي وصفها عدد من خصومها بأنها لغوية أو لغة دارجة.

كان أبرز الرموز الفلســفية في أكســفورد في ذلك الوقــت غلبرت رايل وجون أوســتن، وكما أشــرت من قبل كان رايل المشرف على دراســتي في الدكتوراة، أما أوستن فسنحت لي الفرصة للتعرف عليه بعد تعييني في الكنيسة المسيحية، حيث كنت قادراً على الحضور بشــكل منتظم لما كان يعرف بنقاشــات «صباح السبت»، والتي كانت تُعقد في مكتب أوستن في أكسفورد صباح كل سبت لمناقشة التطورات العلمية.

هذه التجربة الفلســفية الأكســفوردية في الأربعينات والخمسينات من القرن الماضــي قدمــت لي مجموعة رؤى ذات قيمة - والتي مــا زلت أعتقد بصحتها -، ولكــن من بين هـــذه الرؤى أعتبر أن أهمها هي الرؤيــة القائلة بأن علينا أن نكون علــى وعي دائم بأنه طالما أن الفلســفة هي بحث تصوري يجــب أن تكون مهتمة بالاســتخدام اللغوي الصحيح، فنحــن لا يمكننا الوصول إلــى التصورات إلا من خلال دراســة الاســتخدام اللغوي، ومن ثم استخدام هذه الكلمات لشرح وتوضيح

التصـــورات. هذه الرؤية ذكرتني بالباحـــث الإنجيلي الذي ذكرته من قبل (وعبرت عنه بوصف أبي) والذي كان يدرس العهد القديم بطريقة مميزة من خلال تجميع وفحـــص أكبر قدر ممكن من النصوص التي يمكـــن أن يعثر عليها والتي يمكن أن تساعده في فهم النص العبري.

باعتباره تطوراً في توجهي الفلسفي في تلك الأيام فإن اتجاه «الفلسفة الجديدة» لم يكـــن جديداً جداً ولم يكن ضيقاً جداً كما قد يبدو في بعض الأحيان. «الثورة» كانـــت تتعلق بالتركيز علـــى النحو التصوري conceptual grammar، أي اســـتخدام التصـــورات باللغة الدارجة، وهي الدراســـة التي تســـاعد في تجنـــب العديد من المشاكل في الفلسفة، وإحدى هذه المسائل تتعلق بما إذا كان بمقدورنا الوصول إلى المعرفة عن طريق التعرف على العالم الخارجي. تم صياغة هذه المسألة لأول مرة في القرن الســـابع عشر من قبل ديكارت، وتم قبولها بعد ذلك دون تساؤل من قبل فلاسفة عظماء أمثال لوك وباركلي وهيوم وكانت، ولكن إتجاه «الفلسفة الجديدة» رفض هذه المشكلة من الشك الديكارتي من خلال رفضه لنقطة البداية التي تقول أن الفرد كيان غير مادي وأنه لا يملك ســـوى تجربته الخاصة. هذا الاعتقاد كان يتعارض مع الافتراض المتضمن فـــي خطاباتنا المتكررة والتي كانت تركز على أننا نحصل علـــى المعرفة من خلال التعرف على العالم الفيزيائي وعلى بقية البشـــر، وكمـــا قلت فلم يكـــن ذلك جديداً بشـــكل كامل، إذ لو كان أفلاطـــون[1] الذي كتب

(١) فيلســـوف يوناني كلاسيكي، رياضياتي، كتب عدد من الحوارات الفلسفية، ويعتبر مؤسس لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، معلمه سقراط وتلميذه أرسطو، وضع أفلاطون الأسس الأولى للفلســـفة الغربية والعلوم، نبوغ أفلاطون وأســـلوبه ككاتب واضح في محاوراته الســـقراطية (نحو ثلاثين محاورة) التي تتناول مواضيع فلســـفية مختلفـــة: المعرفة، المنطق، اللغة، الرياضيات، الميتافيزقياء، الأخلاق والسياسة.

«محاورة ثياتيتوس» وأرسطو[1] الذي كتب «الأخلاق إلى نيقوماخوس» في ندوة يديرها رايل وأوستن لشعرا أنهما في قمة الراحة وكأنهما في بيتهما.

(١) فيلسوف يوناني، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، وواحد من عظماء المفكرين، تغطي كتاباته مجالات عدة، منها الفيزياء والميتافيزيقيا والشعر والمسرح والموسيقى والمنطق والبلاغة واللغويات والسياسة والحكومة والأخلاقيات وعلم الأحياء وعلم الحيوان. وهو واحد من أهم مؤسسي الفلسفة الغربية.

قبل مغادرتي أكسفورد، سلمت للناشر مادة مجمعة للسلسلة الأولى لكتاب «المنطق واللغة»، وبعد ذلك بفترة قصيرة تبعتها السلسلة الثانية، وقد تم تحرير كلتا السلسلتين، وقد كتبت مقدمة قصيرة لكلتيهما، الأولى في عام ١٩٥١، والثانية عام ١٩٥٣. بعد وقت قصير من تعييني كمحاضر في جامعة أبردين وجدت نفسي أتصرف كمتحدث رسمي غير معين في أسكتلندا لفلسفة «أكسفورد اللغوية»، وعندما قام نادي الكشافة الاسكتلندي الفلسفي -وهو تجمع لجميع من يقوم بتدريس الفلسفة في أسكتلندا- بإصدار مجلة جديدة بعنوان «الفلسفة الفصلية» أحتوى عددها الأول على هجوم لاذع على المدرسة الأكسفوردية، وقد طلب مني محرر المجلة الرد على هذا الهجوم، وكان ردي هو مقال «الفلسفة واللغة»، وهو ما أصبح بعد التعديل الفصل التمهيدي لكتاب يتكون من مقالات مجمعة تحت عنوان «مقالات في التحليل التصوري» Essays in Conceptual Analysis.

تعرضت الحركة لنقد من الجانب الإنجليزي عبر مايكل دَمِت Michael Dummett الذي وصف الحركة بأنها «نتاج اللغة الدارجة»، وادعى بأن «عضوية هذه المدرسة الفكرية تعتمد على الترشيح من قبل البروفيسور فلو» [1].

بالتأكيد كانت أعمال بعض الممارسين للفلسفة الجديدة -حتى إن كان عددهم قليلاً جدا- تافهة ومكررة ولا طائل منها، وقد كان لي رد فعل على هذا التكرار

(1) Michael Dummett, Truth and Other Enigmas (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1978), 431.

وعـــدم الجدوى من خلال ورقة بحثية كتبتهـــا وقدمتها في إحدى الأندية الثقافية وكانـــت بعنوان «الأمور ذات الأهميـــة» Matter That Matters، جادلت خلالها أنه كان من الممكن ومن المحبذ التركيز على المشـــاكل التـــي يمكن أن يجدها المهتمون بالفلســـفة -حتى الأشخاص العاديين غير الناضجين فلسفيا- مهمة وممتعة، بدلاً من إضاعة الوقت والجهد في أمور وهمية.

بـــدأت أقتنـــع -وهذا ما كتبته في كتـــاب «مدخل إلى الفلســـفة الغربية»- بأنه يمكن إحراز تقدم في الفلســـفة على الرغم من غيـــاب التوافق العام، فعدم وجود التوافق في الفلســـفة ليس برهاناً مســـتقلاً كافياً للقول بأن هذا الموضوع لا يمكن التقدم فيه. إظهار عدم وجود معرفة فلسفية بدعوى أنه سيظل هناك من لا يقتنع هي مغالطة شـــائعة صدرت حتى من فلاسفة معروفين مثل برتراند رسل، أما أنا فأسميها «ولكن سوف يظل هناك دوماً من لا يقتنع على الإطلاق». إذاً هناك إتهام حاصله: إن من المســـتحيل في الفلسفة أن تبرهن لشخص أنك على حق وأنه على خطـــأ، ولكن الجزء المفقود فـــي هذه الحجة هو التفريق بين إنتاج دليل وبين إقناع الشخص، فالشخص قد يقتنع بحجة باطلة، ويظل غير مقتنع بحجة ينبغي القبول بها.

يختلف التقدم في الفلسفة عن التقدم في العلم، ولكن ذلك لا يعني أنه مستحيل. في الفلســـفة، أنت تسلط الضوء على الطبيعة الجوهرية للاستدلال الاستنباطي، أنت تميز بين الأسئلة حول الحجج الصحيحة وغير الصحيحة وبين الأسئلة المتعلقة بصدق وكذب مقدماتها أو نتائجها، أنت تبين الاستخدام الصارم لمصطلح المغالطة، أنت تحدد وتشرح مثل هذه المغالطات من قبيل «ولكن سوف يظل هناك دوماً من لا يقتنـــع على الإطلاق». إلى الحد الذي تنجز فيه هذه الأمور.. نجد أن هذه الأمور

يتــم الوصول لها عبر التفكير المنطقي، ويمكــن رؤية التقدم الحاصل حتى لو ظل الإجماع والإقناع أمر غير متحقق وغير كامل.

إعطاء اهتمام أكثر للإلحاد

Paying Mmore Attention to Atheism

كان النادي الســقراطي الذي يرأســه في ذلك الوقت لويس فاعلاً خلال ذروة نشــاط «الفلسفة الجديدة»، ووجدت المبدأ الســقراطي القائل «اتبع الدليل أينما قادك»، متجســداً هناك، وبشــكل متزايد أصبح هذا المبدأ هــو المبدأ الموجه في تطوير وتعديل بعض رؤاي الفلسفية، وخلال هذه التجمعات في النادي السقراطي أيضاً بدأ فلاسفة اللغة -الذين كانوا يُتهمون بتسفيه الالتزام بالضوابط التي كانت معتبرة في زمان ســابق- باستكشاف ما صنفها الفيلسوف الألماني كانت على أنها أعظم ثلاثة أسئلة في الفلسفة: الإله، الحرية والخلود.

كانت مســاهمتي في هــذا المنتدى من خــلال ورقة بحثية بعنــوان «اللاهوت والتكذيب»، وكما ذكرت ســابقاً فإن الأســس التي بنيت عليهــا أقتناعي بالإلحاد عندما كنت في الخامسة عشرة كانت ناقصة بوضوح.

لقد كانت مبنية على «عناد صغار السن»:

١- مشكلة الشر كانت بالنسبة لي دحضاً حاسماً لوجود إله كامل الخير وكامل القدرة.

٢- الدفاع عن حرية الإرادة» لا يعفي الخالق من مسئولية عدم إتقان الخلق. منذ أيام المدرســة، خصصت اهتماماً إضافياً للأسباب المؤيدة والمضادة للوصول إلــى النتائج الإلحادية، وتمثلت بدايتي في عملية البحث في هذا المجال في مقالة «اللاهوت والتكذيب»، وقد تم عرض مقالة «اللاهوت والتكذيب» لأول

مرة في صيف عام ١٩٥٠ في النادي السقراطي في أكسفورد، وتم بعد ذلك نشرها في مجلة لطلبة البكالريوس، اسمها «الجامعة».

إعـادة طباعة المقالة لأول مرة كانت في عـام ١٩٥٥ في كتاب «مقالات جديدة في الفلسفة اللاهوتية»، وهو عبارة عن مقالات مجمعة قمت بتحريرها بمساعدة من ماكلنتير Alasdair MacIntyre، واحتوى الكتاب على مجموعة من الإسـهامات القيمة في فلسـفة الدين وفقاً لرؤية «الفلسـفة الجديـدة»، وقد وصفت مجلة Times Literary supplement هذا الكتاب بأنه إضافة جديدة بشكل جذري.

كان هدفي الأساسـي من مقال «اللاهـوت والتكذيب» هو بيان طبيعة ادعاءات اللاهوتيين، وتسـاءلت هل إن تعدد القيود الذي يحيط بالكلام اللاهوتي ينتج عنه إماتـة الميت[١] – ولو بألف قيـد–؟ إذا أتيت بادعاء فإن عليك أن تسـتثني بعض الأشـياء كي يكون إدعاوك مقبولاً. على سـبيل المثال الادعـاء بأن الأرض كروية سـوف يستبعد إمكانية أن تكون الأرض مسطحة، ورغم أنها تبدو مسطحة إلا أن هذا التناقض الواضح يمكن تفسيره عن طريق الحجم الهائل للأرض. الجهة التي ننظر منها إلى الأرض لها دور في ذلك، ولذلك فإن إضافة قيود للإدعاء قد يجعل الادعاء متسقاً مع الظاهرة التي تبدو متناقضة معه [٢]، ولكن إذا أستمرت الظاهرة المتناقضة مع وجود هذا القيد فإن الإدعاء نفسه يصبح مشكوكاً فيه.

إذا كنا ندعي بأن الإله يحبنا فإن علينا أن نتسائل عن الظواهر التي يستبعدها هذا الادعاء، ومن الواضح أن الألم والمعاناة تمثل تحدياً لهذا الادعاء.

---

(١) كناية عن عدم تأثير إضافة القيود في حل المشكلة، إذ الميت لا يمكن إماتته.

(٢) يريـد المؤلف أن يبيّن أن إضافة قيد (كبيـرة وهائلة) للكرة الأرضية يرفع التناقض الظاهري المتوهم بين النظرية العلمية المثبتة لكروية الأرض وإحساسنا الوجداني بتسطح الأرض.

يعتبر الموحدون أن إضافة القيود اللازمة يمكن أن يتوافق مع وجود الإله وحبه للبشر، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا لا نفترض ببساطة أن الإله لا يحبنا؟ الموحدون كما يبدو لن يسمحوا بتسجيل أي تحفظ ضد الادعاء بأن الإله يحبنا، ولكن هذا يعني أنه لا يوجد ما يدعم هذا الادعاء، وعندها سيصبح فارغاً، ولذلك أقول: إن الفرضية الرائعة يمكن أن يُقضى عليها بواسطة القيود الكثيرة.

رغم أن قصدي من وراء طرح هذه الأسئلة يبدو جلياً إلا أنني كثيراً ما أواجه بالادعاءات بأنني كنت أشرح وجهة نظري حول معنى أو غالباً عدم معنى اللغة الدينية، وكذلك الحال مع الادعاءات السائدة بأنني منجذب ومعتمد على مبدأ التحقق الذي تبنته جماعة فيينا، وهي التي تمثل مدرسة الوضعية المنطقية، والتي تتبنى الادعاء القائل بأن العبارات التي يمكن التحقق منها باستخدام مناهج العلوم هي وحدها التي لها معنى.

ولكن في الحقيقة لم أُكَوِّن قط أطروحة شاملة عن وجود أو عدم وجود لكل اللغة الدينية. لقد كان هدفي الأساس في بحث «اللاهوت والتكذيب» وضع بعض «البهارات» على الحوار الدائر بين الوضعية المنطقية والدين المسيحي، وإقامة حوار أكثر فائدة بين الإيمان والكفر.

لم أكن أقدم مذهباً متكاملاً عن كل اللغة الدينية، وإنما كان هدفي الأساسي من مقال «اللاهوت والتكذيب» إثارة الجدل بين من يعتقد بالوضعية المنطقية وبين المسيحيين، وإقامة نقاش بين المؤمنين بإله وغير المؤمنين بإله. أنا لم أقل بأن عبارات الاعتقادات الدينية لا معنى لها. لقد كنت ببساطة أتحدى الموحدين لكي يشرحوا عباراتهم بشكل يمكن فهمه على ضوء المعطيات المتعارضة.

التعلم من عدم الاتفاق

Learning from Disagreement

نالــت المقالــة الكثير من الردود، ومن هذه الردود ما ظهر بعد عقود من نشــر المقالة، وكثير منها ســاعدني في تهذيب – وفــي بعض الأحيان – تصحيح آرائي، لكن أكثر الردود حدة في الانتقاد ربما كان أولها، وجاء من قبل هير R.M Hare – والذي أصبح أستاذ الفلسفة الأخلاقية في أكسفورد–.

دعا هير إلى عدم تفســير الكلام الديني باعتباره جملاً، بل باعتباره تعبيرات عــن التوجه العام، وهذا التوجه كما وصفه البروفيســور هير عبارة عن تفســير لخبرتنــا التي لا يمكن التحقق منها أو تكذيبها، وحســب علمي لم يطور هير هذه الفكرة بشــكل مكتوب، ولكن لا أعتقد أن مقولة هير ســوف ترضي المؤمنين طالما أنها تنكر أي أساس عقلاني للاعتقاد.

يقول باســل ميتشــل Basil Mitchell وهو الذي خلف لويس في رئاسة النادي السقراطي «إن هناك خطأً في عرضي لوجهة النظر اللاهوتية، فالأفكار اللاهوتية يجــب أن تكون أفكاراً مؤكدة، ولكي تكون كذلك، لابد من أن يكون هناك ما يُعتبر منافياً ومكذباً لما يدّعون حقانيّته، وأشــار ميتشــيل إلــى أن اللاهوتيين لا ينفون ذلك، فالواقع أن مشكلة الشر في النظرة اللاهوتية تظهر لأن وجود الألم يبدو أنه يحســب ضد حقيقة أن الإله يحب البشــر، وكان رد اللاهوتيين بالتمسك بمقولة الإرادة الحرة، ولكن ميتشــيل أكد على أن المعتقدين بالإله يقعون عادة في محذور تحويل توكيداتهم إلى صيغ فارغة من المعنى.

في كتاب ميتشيل «الإيمان والمنطق» Faith and Logic، قدم كوبي – وهو فيلسوف معـــروف بأعماله عن أفلاطون – معالجة أفضل بكثير لهذا الموضوع. يقول كوبي: «إن اللاهوتيـــين يعتقدون بغيب يتجاوز التجربة»، ولكن كوبي يدعى أنه يســـتطيع تتبع بصمات هذا الغيب في التجربة. يؤكد المؤمنون بالإله على أنهم عندما يعبرون عن إعتقادهم فإنهم مجبرون على اســـتخدام لغة محكومة بالقوانين المتناقضة[1]، ولاحـــظ كوبي أنه يمكنك فهم العبارات اللاهوتية فقـــط عندما تكون منصفاً في ثلاث قضايا:

١- المؤمنـــون بالإله يعتقدون بأن الإله كائـــن متعال، وأن العبارات التي تتحدث عنه تنطبق عليه ولا تنطبق على العالم الخارجي.

٢- المؤمنـــون بالإلـــه يؤمنون بأن الإله كائن متعال تســـتلزم عـــدم القدرة على إدراكه.

٣- وبما أن الإله سر، فلكي نفهمه لابد من أن نتحدث عنه بطريقة ذكية، فنحن يمكننا فقط أن نتحدث عن الإله من خلال صور، والعبارات اللاهوتية عبارة عن صور بشرية للحقيقة المقدسة التي يمكن التعبير عنها بالأمثال[1].

جـــاءت ردود أخرى على مقالـــة «اللاهوت والتكذيب»، ومـــن ضمنها رد ريبرن هيمبك Raeburne Heimbeck وأريك مســـكال Eric Mascall. في كتابه «اللاهوت والمعنى» Theology and Meaning، أتهم هيمبك وهو أســـتاذ الفلسفة والدراسات الدينية بجامعة واشنطن الوسطى المقالة بارتكاب ثلاثة أخطاء مهمة. الخطأ الأول أنها افترضت أن معنى أية جملة مرهون بإمكان التحقق التجريبي من مضمونها.

(1) I. M. Crombie, “The Possibility of Theological Statements,” in Faith and Logic, ed. Basil Mitchell (London: Allen & Unwin), 50.

(2) Crombie, “The Possibility of Theological Statements,” 73, 72.

الخطأ الثاني أنها تضمنت خطأ وهو أن الاعتراض على معتقد هو نفسه عدم التوافــق معه[1]، أما الخطأ الثالث فهو أنهــا أفترضت أن العبارات المتعلقة بتعبير الإلــه عن حبه، أو عن وجــود الإله عبارات لا يمكن تكذيبها من حيث المبدأ، ولكن الخطأ الرئيســي حســب وجهة نظره، أن المقالة حددت الأسس للحكم بصدق أو كذب القضايا بالشروط التي تجعلها صادقة أو كاذبة[2].

نبه ماســكال Mascall، مستعيناً بفكر فتجنشتين إلى أننا نستطيع إكتشاف إذا ما كان للعبارة معنى، فقط من خلال قدرة الناس على فهمها في الســياق اللغوي والمكاني الذي تُستخدم فيه[3].

استشــهدت – بتوســع نوعاً ما – بهذه الــردود لأوضــح دور مقالة «اللاهوت والتكذيب» في تحفيز ظهور موجات جديدة من الأفكار التي ســاعدت في تحريك الميــاه الراكدة للخطاب اللاهوتي، وقد أســتمر هذا النقاش حتى يومنا هذا، وفي الحقيقة صدر عن مجلة ريتشموند للفلسفة عدد في عام ٢٠٠٥ أحتوى على مقال يناقش فائدة حججي التي قدمتها منذ عام ١٩٥٠.

لقد كان لهذه الردود أثر عليّ وعلى آرائي الفلسفية، وكيف لا تؤثر هذه الردود إذا كنت متســقاً مع نفســي في اتباع الدليل أينما قادني؟ فــي الطبعة البرونزية للمقالة أعترفت بصحة أثنين من الانتقادات الموجهة للمقالة. إنتقاد ميتشيل قادني

(١) يقصد هنا: هناك فرق بين القول بأن مشــكلة الشــر لا تتوافق مع الإيمان بقدرة الله المطلقة وحبه المطلق للبشــر من ناحية، والقول بأن مشــكلة الشــر متعارضة تماماً وضد الاعتقاد بوجود إله. فالأول لا ينكره المؤمنــون بالإله ويســعوه لرفع عدم التوافق هذا، في حين أنهم ينكــرون الثاني تماماً. وبالتالي مقالة فلو القديمة لم تفرق بين هذين الأمرين.

(2) Raeburne Heimbeck, Theology and Meaning (London: Allen & Unwin, 1969), 123, 163.

(3) Eric L. Mascall, The Openness of Being (Philadelphia: Westminster, 1971), 63.

إلى التفكير في غرابة موقفي من اللاهوتيين، فقد بيّن ميتشـــيل أن اللاهوتيين لا ينفون حقيقة «أن مســـألة الألم تســـجل ضد الادعاء بأن الإله يحب البشر»، وهي المشكلة ذاتها في مسألة وجود الشرور في العالم، وأعتقد أنه كان على صواب في ذلـــك، كما أدركت قوة نقد همبك واعترفت بأنني كنت على خطأ في عدم التمييز بين « اعتباره ضد» وبين القول «بأنه لا يتسق معه». حجتي الأساسية تنصب بشكل مباشر على الأمر الثاني لا الأول.

الإله والفلسفة

God and Philoaophy

بعد إحدى عشرة سنة من نشر كتاب «مقالات جديدة»، نشرت كتاب «الإله والفلسفة»، وكانت محاولة مني لتقديم واختبار التوحيد المسيحي. لم أجد أي عرض سابق كاف ومقبول لهذه المسألة، بما فيها العرض الذي كان مقبولاً على نطاق واسع من قبل المعاصرين المعتقدين بالإله، وقد طلبت من بعض الأصدقاء المسيحيين وبعض الزملاء أن يقدموا لي اقتراحات في هذا الموضوع، ولكني وجدت القليل من الذي يستحق الاهتمام به ضمن ما قُدم أو لعدم وجود ترابط فيما بينهما. ولذلك قمت بتجميع أقوى الحجج من عدة مصادر، ودعوت الذين لم يكونوا راضين بذلك إلى تقديم ما لديهم حتى نستطيع إنتاج شيء يرضيهم ويرضي أمثالهم.

لقد تم نشر كتاب «الإله والفلسفة» لأول مرة في عام ١٩٦٦، وأعيد نشر هذا الكتاب في عام ١٩٨٤ بعنوان «الإله: دراسة نقدية» God: A Critical Enquiry، أما النسخة الأخيرة من الكتاب مع تمهيد من قبل الناشر ومقدمة غير مقنعة من قبلي فصدرت عام ٢٠٠٥. في كتاب «الإله والفلسفة»، عرضت طرحاً منهجياً للإلحاد، وبشكل عام دعوت إلى أن تكون نقطة البداية في السؤال عن مفهوم الإله في حدود تماسكه وقابليته للتطبيق ومشروعيته.

عرضت في الفصول الأولى من الكتاب لحجج اللاهوت الطبيعي(١) بالإضافة

(١) اللاهوت الطبيعي هي فرع من اللاهوت يعتمد على العقل والتجارب العادية. وبالتالي فهي تختلف عن الوحي الديني الذي يقوم على أساس الكتب المقدسة والتجارب الدينية من مختلف الأنواع.

إلى عرض إدعاءات الوحي المقدس، وفي الوقت نفسه حللت فكرة التفسير، وفكرة النظام، وفكرة الغاية بالاعتماد على ديفيد هيوم وآخرين ممن يشـاركونه في ذلك الرأي، وقلت بأن الحجة الغائية، والحجة الكونية، والحجة الأخلاقية التي تستخدم لتأكيـد وجـود الإله حجج غير صحيحـة، كما حاولت أن أبين أنه من المسـتحيل الوصول إلى نتيجة صحيحة من خبرة دينية خاصة.

لكن الإسهام الأهم في الكتاب هو الفصل الذي كان بعنوان «البداية من البداية»، والذي نبهت فيه إلـى أن هناك ثلاثة مواضيع بالتحديد يجب الإجابة عليها فيما يخـص مفهوم الإله: كيف يمكن تعريف مفهوم الإله؟ كيف يمكن تطبيق التعبيرات الإيجابية والسـلبية فيما يخص الإله؟ كيف يمكننا أن نوفّق ما بين تعريف صفات الإله مع الحقائق التي لا يمكن إنكارها؟. (كيف يمكن تفسـير وجود الأمراض في العالم مع وجود إله قادر؟).

تم الرد على السؤالين الثاني والثالث من قبل المؤمنين بالإله، فقد تم الرد على السـؤال الثاني من خلال نظرية التمثيل أو التشـبيه، حيـث تناولوا صفات الإله وحرية الإرادة لمعالجة مشـكلة الشر. أما السـؤال الثالث المتعلق بمسألة الشرور فتم الرد عليه بمبدأ الإرادة الحرة. ولكن السؤال الأول هو الذي لم يتم التطرق له بشكل كاف على الإطلاق.

التعريف والتحديد هي أمور يجب الاتفاق عليها وتوضيحها في موضوع الخطاب، ولكـن لم يكـن واضحاً كيف يمكن تعريـف جوهر فرد مثـل الإله الفسيفسـائي (mosaic god)[1] وتمييـزه عن الكون «المخلوق»؟ بأي إعتبار يمكن أن نفهم أن هذا

(١) كناية عن تعدد تصورات الأديان للإله الكامل.

الوجـــود هو واحد لا يتغير على الـــدوام، وهو في نفس الوقت فاعل في الزمان أو -بشـــكل محيـــر أكثر- على نحو ما خارج الزمان؟ ما لـــم يكن لدينا مفهوم أصيل، متماسك، قابل للتطبيق (عن الإله)، لا يمكن إثارة السؤال حول وجود أو عدم وجود هذا الإله على نحو مناســـب. وبعبارة أخرى: لا يمكننا البدء بنقاش الأسباب التي تجعلنـــا نقول: إن هناك إلهاً على نحو مـــا موجود قبل أن نقرر كيف يمكن تحديد الإلـــه الذي نتحدث عنه، ولا يمكننا أن نفهم بشـــكل منطقي مقبول كيف يمكن أن يُعاد ويتعدد تعريف نفس الكائن بمرور الزمن، وعلى سبيل المثال كيف يمكن لكائن «مجرد عن المادة والجسد وموجود في كل مكان» أن يُعرف ويعاد تعريفه وأن يكون قابلاً كموضوع لعدة توصيفات؟

يرد المؤمنون بالإله على هذا النمط من التفكير بعدة طرق، وأبرز هؤلاء ريشـــارد سوينبيرن Swinburn (خلفني في جامعة كييل كبرفيسور في فلسفة الدين المسيحي في أكسفورد) من خلال كتاب «تماسك عقيدة الإيمان» The Coherence of Theism. علل سوينبرن ذلك بأن العبارة «فقط س الذين رأيناهم في وقت سابق هم ص» لا تؤدي إلى عدم تماسك الفرضية بأن هناك «س ليس ص».

ليس من حق أحد أن يحتج بأن ما أعتاد على رؤيته - ولنقل أنه س - يجب أن يكون ص، ولذلك فإن ص يجب أن تكون صفة أساســـية لأي شيء يُصنف على أنه س. أما فيما يخص الهوية، فإن ســـوينبرن يقول إن هوية الشـــخص جوهرية، ولا يمكن تحليلها من خلال إستمرارية الجسد أو الذاكرة أو الشخصية.

قَبِل ماكي J. L. Mackie - وهو فيلسوف ملحد- بتعريف سوينبيرن للإله على أنه روحـاً وأنه حاضر في كل مكان، وأنه قادر على كل شيئ، وعليم بكل شيئ، وببساطة

أعتبر ماكي أنه «لا مشكلة في ذلك» عندما يتعلق الأمر بالتعريف والتمييز[1].

أدرك مؤرخ الفلسفة فردرك كبلستون Frederick Copleston قوة التساؤل الذي أثرته فيما يخص تماسك مفهوم الإله، ورد بجواب مختلف. يقول فرديرك «لا أعتقد أن من المبرّر الطلب من العقل البشري أن يكون قادراً على تحديد إله مثل فراشة واقفة على صندق زجاجي. الإله يصبح حقيقة واقعة للعقل البشري في حركة الإنسان نحو التعالي، حيث يظهر الإله باعتباره الهدف غير المرئي لهذه الحركة، وحيث إن المتعالي لا يمكن إدراك كنه ذاته، وإذا جاز التعبير فإنه لا بد – وفقاً لخلفيتنا التصورية أن ينشأ الشك ويظهر، ولكن داخل هذه الحركة من التعالي فإن الشك يعود للتوازن من خلال التوكيد (assertion – affirmation) المتضمن بالحركة في ذاتها، ضمن سياق هذه الحركة الشخصية للروح البشرية يصبح ذلك الإله حقيقة واقعة للشخص»[2].

ما الذي أعتقده اليوم عن الحجج المنصوص عليها في كتاب «الإله والفلسفة»؟ في رسالة عام ٢٠٠٤ إلى مجلة «الفلسفة الآن»، أوضحت أنني الآن أعتبر أن الإله والفلسفة بقايا تاريخية. لكن، بطبيعة الحال، لا يمكن للمرء أن يتبع الدليل حيثما يؤدي دون إعطاء الآخرين فرصة إبداء وجهات نظرهم في أمور لم تناقشها بشكل كامل، وآرائي الحالية في المواضيع التي تم التطرق لها هناك، تم عرضها في القسم الثاني من هذا الكتاب، «اكتشافي للمقدس».

(1) J. L. Mackie, The Miracle of Theism (Oxford: Clarendon, 1982), 1.
(2) Frederick C. Copleston, Philosophers and Philosophies (London: Search Press, 1976), 76.

فرضية الإلحاد

The Presumption of Atheism

بعد مرور عقد من الزمن على نشر كتاب «الإله والفلسفة»، قمت بكتابة مقالة «فرضية الإلحاد» (نشرت في الولايات المتحدة تحت عنوان «الإله والحرية والخلود»)، وفي هذه المقالة جادلت بأن النقاش حول وجود الإله يجب أن يبدأ من فرضية الإلحاد، وأن عبء الإثبات يجب أن يكون على المؤمنين بالإله.

أشرت إلى أن هذا النهج الجديد يضع مسألة وجود الإله بشكل كامل في إطار منظور جديد، كما أنه يساعد في التخلص من المشاكل التصورية عن الإيمان التي قد لا يتم الاهتمام بها، مما يجبر اللاهوتيين على البدء من البداية المطلقة. استخدام المؤمنين بالإله لكلمة «الإله» يجب أن يوفر معناً يجعل من الممكن نظرياً وصف هذا الكائن. توصلت إلى نتيجة مفادها أنه مع هذا المنظور الجديد يظهر مشروع الإيمان بالإله بأكمله متزعزعاً أكثر مما كان عليه من قبل.

يمكن تبرير فرضية الإلحاد لعدم توفر المبررات الوجيهة للاعتقاد بوجود الإله، ولكن إذا لم يكن لدينا مثل هذه المبررات فإنه لا يوجد هناك سبب كاف للإيمان بوجود الإله، والموقف الوحيد المعقول هو أن تكون ملحداً سلبياً أو لاأدري agnostic (قصدت بالملحد السلبي النمطي وغير الأخلاقي)، ولا بد لي من الإشارة هنا إلى ما لا تتضمّنه «الفرضية». هي ليست فرضية مسبقة الحكم على نتيجة يراد أن تُثبت، وإنما هي مبدأ إجرائي لتحديد من سيقع عليه عبء الإثبات، مثل قاعدة «الأصل البراءة» – وهي القاعدة التي يستند إليها القانون العام الإنكليزي[1].

(١) يقصد: أن كل متهم بريئ حتى تثبت إدانته. وهو ما يوازي عندنا الحديث المروي: "البينة على من ادعى»

أجد أنه – في أي نظام منهجي سليم– على اللاهوتيين أن يبدأوا كما هو الحال في كل فرضية وجودية بتحديد المفهوم الخاص الذي سوف يستخدم لوصف الإله، وفقط بعد تلبية هاتين المهمتين بشكل مرضي يصبح مقبولاً البدء بتقديم البراهين المقصودة.

حفـزت هذه الحجـة العديد من الـردود. باعتباره لا أدرياً، كتب الفيلسـوف الإنجليـزي أنتوني كينـي Anthony Kenny، قائلاً بأنه قد يكـون هناك فرضية لتبريـر اللاأدرية (agnostic)، ولكن هذا التبرير ليس تبريراً للإلحاد السـلبي أو الإيجابـي. لقد أكد كيني على أن إظهار أنـك تعرف يتطلب جهداً أكبر من إظهار أنك لا تعرف (وهذا يشمل حتى الإدعاء بأن تصور الإله غير متماسك)، لكنه قال: إن هذا لا يخلـص اللاأدرية agnostic من الورطة، فالمتقدم للاختبار يمكنه تبرير عدم معرفته بالإجابة على أحد الأسـئلة، ولكن هذا لا يمنحه القدرة على إجتياز الاختبار[1].

كاي نيلسـون Kai Nielsen وهو زميل ملحد زاملته سابقاً، قدم نقداً يزعم فيه أن الموقف الأخلاقي المتميز هو أن تبقى غير ملتزم تماماً حتى تتوفر أسباب كافية لذلك. يذهب نيلسون للقول بأن المعتقدين بالإله والمتشككين لديهم مفهوم مشترك للعقلانيـة مع المعايير المطلوبة لتقييم مزايا ما يدعونه، وأضاف بأن هناك «علامة اسـتفهام كبيرة» على «فرضية الإلحاد»[2] إذا لم تكن قادرة على إنتاج تصور عالمي ممكن القبول للعقلانية .

(1) Anthony Kenny, Faith and Reason (New York: Columbia University Press, 1983), 86.
(2) Kai Nielsen, review of The Presumption of Atheism by Antony Flew, Religious Studies Review 3 (July 1977): 147.

أكبـــر تحـــدي للحجة جاء من أمريـــكا، حيث قـدم أســـتاذ المنطـق الجـهاتي Modal Logic ألفـــن بلانتينغا Alvin Plantinga فكـــرة مفادها أن الاعتقاد بالإله إعتقاد أساســـي، وأكد على أن الإعتقاد بالإله مشابه للاعتقاد بالحقائق الرئيسية مثل وجود عقول أخرى، أو الاعتقاد الحسي (رؤية شجرة)، أو الاعتقاد بوجود ذاكرة (الإيمان بوجود ماضي). في جميع هذه الحالات، أنت تثق بقدراتك الإدراكية على الرغم من أنك لا تستطيع إثبات صدق الاعتقاد محل التساؤل. وبالمثل، فإن الناس يعتقـــدون ببعض القضايا (كوجود العالم مثلا) كأصل، في حين تشـــتق ما يترتب عليها من القضايا الأساسية هذه.

هذه الفرضية تقول: إن المعتقدون بالإله، قد يجادلون بأنهم يأخذون وجود الإله كقضية أساسية.

يعتبر الفيلسوف التوماوي (نسبة إلى الفيلسوف توما الأكويني) رالف ماكلينري Ralph McInerny إن من الطبيعي للإنسان أن يعتقد بالإله بسبب النظام، والترتيب، وقوانين الطبيعة التي تحكم الأحداث التي تقع في الطبيعة، ولذلك كثيراً ما يقول: إن فكـــرة وجود الإله فطرية وهي تبدو كمسّـــلمة ضـــد الإلحاد. لذا فإنه في حين جـــادل بلانتينغا بأن الموحديـــن لا يتحملون عبء الإثبات، ذهب ماكلينري أبعد من ذلك بالقول أن الملحدين هم من يتحمل عبء الإثبات.

ينبغي أن أشـــير هنا إلى أنه على خلاف حججي المضادة للاهوت، فإن فرضية الإلحـــاد يمكن قبولهـــا من قبل الموحدين عند وجود أســـس قوية للاعتقاد بوجود الإله، فإذا افترضنا وجود مبررات مناسبة للاعتقاد بالإله، فالموحدون لا يرتكبون أي خطأ فلســـفي في مثل هذا الاعتقاد! لأن فرضية الإلحاد في أحســـن الأحوال نقطة انطلاق منهجية، وليست نتيجة وجودية.

تغيير وجهة نظري

Changing My Mind

كفيلسوف محترف، قمت بتغيير وجهة نظري أكثر من مرة في المسائل المختلف عليهـــا، وينبغـــي أن لا يكون ذلك مســـتغرباً بالطبع، مع الأخـــذ بالاعتبار قناعتي بإمكانية التطور في الفلســـفة، وقناعتي بمبـــدأ إتباع الدليل أينما يقودني. عندما كنت أقـــوم بالتدريس في جامعة كيبل في عام ١٩٦١، كتبت كتاباً حول كتاب هيوم «تحقيق بشان الفهم الإنساني». حتى ذلك الحين، كان يتم التعامل مع تحقيق هيوم (عادة يقال لـــه «التحقيق الأول» لتمييزه عن كتابه اللاحق «تحقيق بشـــأن مبادئ الأخلاق») على عكس ما جال في ذهن المؤلف بوصفها مجرد مقتطفات، أما الآن فهذه المقتطفات تعد أعظم أعمال هيوم.

وبخصـــوص كتابي عن هيوم، كتب جلبرت رايل قائـــلاً «أقدر عالياً ما جاء في الكتاب، فهو مملوء معرفة وحيوية». في حين كتب جون باســـمور John Passmore قائـــلاً «إن أي مناقشـــة لاحقة لعلمانيـــة هيوم يجب أن تبدأ مـــن فلو». رغم هذه الإشادات فإنني كنت دائماً أرغب بعمل تعديلات جوهرية في كتابي «فلسفة هيوم في الاعتقاد». مسألة واحدة على الأقل كانت تحتاج إلى تصحيحات كبيرة. الفصول الثلاثـــة «فكرة الاتصال الضروري» و «الحرية والضرورة» و «المعجزات و المنهجية» جميعهـــا كان بحاجة إلى إعادة صياغـــة، على ضوء إدراكي المَبْنِيّ حديثاً بأن هيوم كان مخطئاً تماماً بالقول أننا ليس لدينا خبرة، وبالتالي ليس لدينا أفكاراً أصيلة، وليس في قدرتنا جعل بعض الأشـــياء تحدث ومنع البعض الأخر من الحدوث، أي الضرورة الفيزيائية والاستحالة الفيزيائية.

ونتيجــة لخطأ هيوم هذا، تم تضليل أجيال من أتبــاع هيوم بتقديم تحليل في غاية الضعف للسببية والقانون الطبيعي، لأنه لم يكن هناك أساس إما لقبول وجود السبب والنتيجة أو قبول وجود قوانين الطبيعة. وفي الوقت نفسه، فإن هيوم ذاته فــي كتاب «الحرية والضرورة» Of Liberty and Necessity وكتاب «من المعجزات» Of Miracls كان يســعى لإيجاد أفكار عن أســباب تأتي بنتائج أقوى من تلك التي كان هيوم مستعداً لاعتبارها مشروعة.

في كتابه «تحقيقات جديدة»، نفى هيوم السببية وادعى أن كل ما يتضمنه العالم الخارجــي هو مجــرد ترابط دائم – أي: عبارة عن أحداث مــن هذا النوع يتبعها بانتظام أحداث من ذلك النوع –، وعندما نلاحظ هذا الترابط الدائم يتكون لدينا ميــل قوي في الربط بين أفــكار عن هذا وأفكار عن ذلــك، فنحن نرى الماء يغلي عندما يتم تســخينه فنربط بين تســخين الماء وبين غليانه فنعتقد أن هناك علاقة واقعية بين الاثنين، في حين أننا بذلك نُسقط ترابطاتنا النفسية الداخلية. بمجرد أن ينتهــي هيوم من البحث يتخلّص من تشــكيكه في الســبب والنتيجة ولا أدريته بالنســبة للعالم الخارجي كما يدعي، وفي الحقيقة فإن هيوم يتخلى عن تشــكيكه بالسببية وإنكاره للعالم الخارجي حتى قبل أن ينتهي من البحث، فليس هناك على سبيل المثال في فصل «في المعجزات» في كتابه «التحقيق الأول» أثر لأطروحته عن العلاقات الســببية، وما كان يقوله من أن الضرورات ليست سوى إسقاطات كاذبة على الطبيعة.

وفــي كتابه «تاريخ إنكلترا»، لم يقدم هيوم أية إشــارة لشــكه في الســببية أو فــي العالم الخارجي، وبهذا يذكرنا هيوم ببعض المعاصرين الذين ينكرون لمبررات إجتماعية أو فلســفية إمكانية المعرفة الموضوعية. وهــم بتخليهم عن الموضوعية

الشـــاملة يتخلون عن الدقة في البحث العلمي، بـــل إنهم فوق كل ذلك يعبرون عن قناعتهم الخاصة بعدم وجود معرفة موضوعية!!!

الموضـــوع الآخر الذي غيرت رأيي فيه هو الإرادة الحرة وحرية الإنســـان. هذا الموضوع مهم، لأن الســـؤال عما إذا كنا أحـــراراً أم لا يقع في جوهر أغلب الأديان الرئيســـية، وقد أشـــرت من قبل إلى تعارض وجود الشر في العالم الذي خلقه إله على كل شيء قدير وبكل شيء عليم، وكان رد الموحدين على هذا التناقض المشاهد بالقول بأن الإله وهب الإنســـان الإرادة الحرة، وأن كل أو معظم الشرور الصارخة في العالم ترجع بشكل رئيسي أو جزئي إلى سوء استخدام هذه الهدية الخطرة، إلا أن المحصلة النهائية ســـتكون بالتأكيد أن الخيرات المتحققة من هبة الحرية أعظم بكثير من سلبها.

كنت في الواقع أول من ســـمى هذه الحجة «دفاع الإرادة الحرة»، وبغض النظر عما يمكن تســـمية هذه المناظرة «بـــين الإرادة الحرة وبين الجبريـــة»، أو بالتعبير العلمانـــي «بين الإرادة الحرة وبين الحتمية» فإن الســـؤال عمـــا إذا كنا أحراراً في أفعالنا أم لا له أهمية رئيسية.

ردي على وجهة نظر هيوم كان باتجاهين، أولاً: بعرض الرأي الذي أصبح يعرف بالتوافقية compatibilism. يزعم غيـــر التوافقيين أنه لا يوجد توافق بين الإرادة الحرة وبين الحتمية، وأما التوافقيون فلم يكتفوا بالقول بأن من الممكن التوفيق بين الإرادة الحرة وبين القول بأن إرادة شخص ما لا تتعارض مع كون مستقبله محتوم حتى قبل أن يقوم بالعمل، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك بالقول بأن الأفعال الإرادية يمكـــن أن تكون حرة حتى لو كان وقوعها حتمياً مـــن الناحية الفيزيائية، وحتى لو كان وجودها محكوماً بقوانين الطبيعة.

ورغـــم اســـتمراري بالاعتقاد بأن النـــاس يقومون باختيارات حـــرة، فإنني في الأعـــوام اللاحقة بدأت ألحظ أنه لا يمكن القول بأن هذه الاختيارات الإرداية لها أســـبابها المحددة فيزيائياً. بعبارة أخرى، التوافقية لا تصح، فالتوافق لا يصح في هذه الأمور. قانون الطبيعة ليس مجرد عبارة يتم التعبير بها عن حدوث شيء ما، وعندمـــا يحدث فإن حدثاً أخر يتبعـــه، بل الأحرى القول أن القانون هو إدعاء بأن حدوث شيء ما يُحَتِّم بالضرورة حدوث الشيء الأخر، مما يجعل عدم حدوثه أمراً مستحيلاً، وليس هذا هو الحال في الإرادة الحرة. نحن بحاجة أيضا إلى تمييزات مطابقة بين معاني «الحتمية».

أسباب الأفعال البشرية تختلف بشكل جوهري عن أسباب الأفعال غير البشرية، فعند توفر جميع أســـباب حدوث إنفجار ما فإنه يصبح من المستحيل على أية قوة في هذا العالم منع حدوث الانفجار، ولكن إذا أعطيتك أسباباً كافية لإظهار الفرح والابتهـــاج فإن هذا لا يعني أن إقامة الاحتفـــال أصبح ضرورياً. ويترتب على هذا أنه ليس كل حركة إنسانية يمكن إرجاعها بشكل كامل إلى أسباب فيزيائية. يمكن التمييز بين معنيين للفظ «السبب» من خلال إستخدام مصطلح هيوم في الأسباب المادية والمعنوية، فعندما نتحدث بشـــكل كامل عن أحداث غير بشـــرية –الكسوف على ســـبيل المثال– فإننا نســـتخدم كلمة الســـبب بالمعنى الذي يتضمن الضرورة الفيزيائية والاستحالة الفيزيائية (أي: ما حدث كان يجب أن يحدث، وعدم حدوثه مســـتحيل)، ولكن هذا بالتأكيد ليس الحال عندما نتكلم عن الأســـباب أو الدوافع في حالة الأفعال البشرية.

لنستخدم المثال السابق، أفترض أنني أخبرتك بأخبار مفرحة، فإذا كان رد فعلك هـــو الابتهاج فإن من المحتمل جداً أن تصف إخباري لك بهذه الأخبار بأنه ســـبب

لابتهاجك، ولكنني في الواقع لم أكن سبباً في ابتهاجك، فهو لم يكن ضرورياً وكان بالإمكان تجنبه، فقد تقرر أن لا تبتهج لأنك قد تكون حينها في المكتبة، وبعبارة أخرى: قد يكون نقلي لك أخباراً مفرحة دفعك للابتهاج، ولكنني أيضاً لم أمنعك من أن تبكي، ولنستخدم تعبير الفيلسوف الرياضي ليبنز Gottfried Leibniz «أسباب هذه اللحظة ترجح ولا تحتم».

ربما رفض هيوم مفهوم الحتمية المادية لأنه لم يكن قادراً على التمييز بين النوعين اللذين أشرنا إليهما هنا، ومع ذلك فإن طريقة هيوم في التصنيفات تؤشر إلى الفرق الجوهري بين العلوم الطبيعية من جهة، وبين العلوم الاجتماعية والنفسية من جهة أخرى.

إعتماداً على الفرق الجوهري في الاستخدامين للفظة «السبب»، يصبح من الواضح - على الأقل أننا عندما نتحدث عن السلوك البشري- فإننا نحتاج إلى التمييز المطابق بين معنيين مختلفين جوهرياً للحتمية: الحتمية الناتجة عن الأسباب الفيزيائية، والحتمية الناتجة عن الأسباب المعنوية. من المؤكد أنه إذا كان هناك سلوك ما يتحقق بنظام الأسباب الفيزيائية فإن فاعل السلوك لم يكن حراً في هذا السلوك، ولم يكن بمقدوره أن يمنعه من الحدوث. من المؤكد أن الفشل في تشخيص هذه التمييزات، سوف يضلل الكثير من الناس، وسوف يقودهم للاستنتاج بأن تفسير وقوع حدث ما بأسباب فيزيائية أو معنوية يؤيد مبدأ الحتمية الكونية الفيزيائية [1]، وهذا يعني أنه كان من المستحيل على أي فاعل أن يسلك خلاف السلوك الذي صدر عنه.

(١) يقصد بذلك حتمية جميع حوادث الكون الشاملة لأفعال الإنسان الاختيارية.

ما نحتاجه لتجنب مثل هذه الأخطاء (كما فعلت في كتاب «الحياة الاجتماعية» و«الحكم الأخلاقي») هو التحليل المنطقي لثلاثة ألفاظ: الفاعل، حرية الاختيار، والقدرة على إختيار غير ما اخترناه في الواقع. عندما نستطيع التمييز بين التحركات movings والحركات motions فإنه يمكننا أن نفسر تصور الحركة. التحرك moving هو حركة يتم القيام بها اختيارياً، أما الحركة motion فهي حركة لا يمكن تجنب القيام بها، فالقدرة على التحرك هي خاصية للبشر فحسب، أما الكيانات التي لا تمتلك الإدراك والقصد فإن ما تقوم به هو مجرد حركة motion.

الفاعلون هم المخلوقات القادرة على حرية الاختيار في أن تفعل أو لا تفعل: الاختيار بين عدة بدائل للفعل أو عدم الفعل وهي البدائل التي تتغير من وقت لآخر حسب الظروف، والفاعلون –من خلال دورهم كفاعلين– وليس بوسعهم تجنب الاختيار بين بديلين أو أكثر من البدائل المتاحة لهم في وقت الحدث.

التمييز الحاسم بين التحركات المتضمنة في الفعل، والحركات التي تشكل السلوك الضروري، وبين السلوك الذي يستلزم السلوك الحتمي. يترتب على ذلك استحالة القول بالحتمية الفيزيائية الحاكمة على الكون، بما في ذلك حركة جسد الإنسان، فالتحركات بالإضافة إلى الحركات هي محكومة بأسباب فيزيائية حتمية.

عطفاً على تراجعي عن القول بالتوافقية الكاملة، فإن الكثير مما كتبته عن الإرادة الحرة أو الاختيار في سياقه العلماني أو الديني يحتاج إلى تعديل وتصحيح، ولكون هذا الأمر يتعلق بالسؤال الثاني ضمن أسئلة كانت الفلسفية الأساسية: «الإله والحرية والخلود» فإن تغيير قناعتي بشكل جوهري في هذا الشأن يماثل التغيير الجوهري لوجهة نظري في السؤال الأول عن الإله.

الفصل الثالث

إعادة النظر في الإلحاد
Atheism Calmy Considered

إعادة النظر في الإلحاد
Atheism Calmy Considered

كان جورج هيرمن روث George Herman Ruth أفضل لاعب في الدوري، وكان في بدايته أفضل ضارب، وبعد ذلك أصبح لاعب وسط يسجل ٢٩ هدفاً في المباراة الواحدة، وفي الوقت نفســه لعب في مركز الضارب في ١٧ مباراة، وكان ذلك في عام ١٩١٩. بعد ذلك باع مالك نادي بوســتون هاري فريزي Harry Frazee –الذي قيــل في وقتها إنه يحتاج للأمــوال– باع روث إلى نادي نيويورك مقابل ١٢٥,٠٠٠ دولار. قاد روث نادي نيويورك للبطولة الأمريكية في ســبعة مواســم، وقاده أيضاً أربع مرات لبطولة العالم، ولم يستطع نادي نيويورك أن يحصل بعدها على البطولة إلا في عام ٢٠٠٤، أي بعد خمس وثمانين سنة.

من المثير أن عام ٢٠٠٤ كان العام الذي أعلنت فيه في نيويورك أيضاً تحولي إلى التوحيد بعد أكثر من ستة عقود من الإلحاد، حيث أعلنت أنني غيرت «فريقي» إن صــح التعبير، ولكنني بــدأت أيضاً أنظر إلى الأمور من زاوية أخرى، لأنني كنت لا أزال أمارس نفس «اللعبة» بنفس الحماس والمبادئ كما كنت في السابق.

واجب تجاه الحوار

A Duty To Dialgue

توجتُ رحلتي نحو التوحيد بنشر كتاب «فرضية التوحيد» The Presumption of Atheism، وفي كتاباتي اللاحقة تناولت عدة مواضيع بشكل مختلف تماماً. في الواقع إنني كتبت في مقالة نُشرت ضمن كتاب صدر في عام ١٩٨٦ تحت عنوان «الفلسفة البريطانية اليوم» British Philosophy Today بينت فيها أنني أرغب بعمل أشياء أخرى إن سمح لي الوقت بذلك.

أود على سبيل المثال أن استكشف النزاعات التاريخية الكبيرة حول هيكل الثالوث [١] Structure of the Trinity وحول ما يجري في القربان المقدس [٢] Eucharist. مع ذلك، وبحلول أواخر الستينات من القرن الماضي أصبح واضحاً لي أن الحاجة لجهودي ماسة في مكان آخر. كنت على قناعة بأن علّي في بقية حياتي تركيز طاقاتي في المجالات العلمية الشاملة مثل فلسفة العلوم الاجتماعية والفلسفة الاجتماعية.

بما أنني قلت الكثير حول فلسفة الدين خلال سنوات طويلة، فأجد نفسي ملزماً من الناحية الفكرية بأن أرد على أي أنتقاد قدر الإمكان، إما بالاعتراف بأنني كنت مخطئاً أو ببيان سبب عدم إتفاقي مع منتقديّ، ولذلك أستمريت في النقاش مع المدافعين عن التوحيد الذين أستمروا هم أيضاً في نقد وتحدي أفكاري

---

(١) العقيدة المسيحية في الثالوث.

(٢) أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، و هو تذكير بالعشاء الذي تناوله يسوع بصحبة تلاميذه عشيّة آلامه.

حتى بعد إنتقالي إلى مواضيع فلسفية أخرى، ولم يكن هذا التحدي شيئا جديداً بالنسبة لي.

في الواقع لقد أمضيت مسيرتي الفلسفية كلها في حوارات حماسية ونقاش عام مع مفكرين يختلفون معي في العديد من المواضيع التي تتراوح ما بين الفلسفة الاجتماعية، ومشكلة البدن-العقل، ومشكلة الإرادة الحرة -الحتمية فيما يتعلق بوجود الإله. لقد أستغرق النقاش في هذه المواضيع أكثر من نصف قرن من حياتي الفكرية.

في عام ١٩٥٠، سعيت لتحديد ماذا يُقصد بالقول «إن الإله يحبك»؟ وفي عام ١٩٧٦ حاولت أن أوضح «هل مفهوم الإله متماسك؟»، وفي عام ١٩٨٦ كنت أحاول أن أحدد على من يقع عبء تقديم الدليل؟ وفي عام ١٩٩٨ كنت أناقش تداعيات الإنفجار الكوني الكبير. خلال كل ذلك، لم يساعد إشتراكي في المناظرات والنقاشات اللاهوتية على تقوية آرائي فحسب، بل أتاح لي فرصة التعرف على العديد من الزملاء والخصوم الذين يستحقون الاحترام رغم اختلافي معهم.

الاحتفاظ بأسلحتي

Sticking to My Guns

مــن بين كل المناظـرات التي شــاركت فيها، كانت هنــاك مناظرتان في عامي ١٩٧٦، ١٩٩٨ أعتبرهمــا الأفضــل، الأولــى مناظرة عام ١٩٧٦ مــع توماس وارن Thomas Warren فــي مدينة دينتون بولاية تكســاس، حيــث كان الحضور ولعدة أيام يتراوح ما بين خمســة إلى سبعة الآلاف متابع، أما مناظرة عام ١٩٩٨ فكانت مع وليام لين كريغ William Lane Craig في مدينة مديسون في ولاية ويسكنسن، وكان الحضــور يقدر بأربعة الآلاف. فقط في هاتــين المناظرتين لعبت دور البطل في مناظرة عامة.

تُعقــد المناظــرات في المملكة المتحــدة عادة بحضور أكاديمــي قليل، لذا كانت تجربتي الأولى في مواجهة جمهور كبير كمناظرة في مواجهة البروفيسور الراحل الفيلسوف المســيحي توماس وارن Thomas B. Warren، وقد عقدت المناظرة في جامعة شمال تكساس، في مدينة دينتون، على مدى أربعة ليالي متتالية، بداية من ٢٠ ســبمتبر من عام ١٩٧٦، وهو التاريخ الذي تزامن مع المناظرة الرئاسية الأولى بين جيمي كارتر Jimmy Carter وجيرالد فورد Gerald Ford.

أمــام جمهور متحمس، قــدم البروفيســور ورن مجموعة مؤثرة من الرســوم واللوحــات التوضيحيــة، والمثير أن جزءاً كبيراً مــن محاضرته ذهب للهجوم على نظريــة التطور Theory of evolution، والتي كانت بالنســبة لــي في ذلك الوقت مشــروعاً غير مألوف، وعندما سألني البروفيســور ورن عما إذا كنت أعتقد بأن هناك موجوداً نصف قرد ونصف إنســان كان ردي بأن ذلك يشبه السؤال عما إذا

كان شـــخص ما أصلعاً أم لا. كان رأس المشرف على رسالتي في الدكتوراة غلبرت رايل يشبه البيضة (لم يكن على رأسه أية شعرة)، وليس هناك شك بأن أي شخص لابد أن يقول إنه أصلع، ولكن ليس من السهل تعريف من هو الأصلع ومن هو غير الأصلع.

ومـــع ذلك، وأخذاً لآرائي الحالية بالاعتبار، ربمـــا يكون عدد قليل من عباراتي الإخبارية[1] Declarative statements (الجمل التي ليست سؤال أو أمر أو إستفهام) فـــي تلك المناظرة مهماً في توضيح قـــوة أعتقاداتي الإلحادية في هذه النقطة من قبيل:

«أنا أعرف أنه ليس هناك إله»

«منظومة الاعتقاد المتعلقة بالإله» تتضمن «نفس التناقض» الموجود في «الأزواج غير المتزوجين أو المربعات الدائرية».

«أنا أميل إلى الاعتقاد بأن الكون لا بداية له وسـيظل دون نهاية، وفي الحقيقة أعتقد أنه لا جدوى من تحدي أي من هذين الاعتقادين».

«أعتقد أن الكائنات الحية تطورت على مدى فترة طويلة لا يمكن حسابها من مواد غير حية».

لقد تأثرت بالاســـتقبال الحافل من قبل المســـتضيفين، ولكـــن المناظرة أنتهت بتمسكي وتمسك ورن بأسلحتنا.

(١) العبارات الإخبارية هي العبارات التي تحتمل الصدق أو الكذب، وتأتي في مقابل العبارات الإنشائية التي تنطوي على ســـؤال أو أمر أو اســـتفهام...إلخ، ولا تحتمل في ذاتها الصدق أو الكذب، إلا إذا تم تحويلها إلى عبارات إخبارية.

إطلاق نار على زريبة

Shooting at the O.K. CORRAL [1]

كانت مناظرتي التالية بعد عشـــرة ســـنوات من تلك المناظرة، وكانت أيضاً في تكساس، وعقدت في دالاس في عام ١٩٨٥، وقد شعرت بأن الوضع يبدو كإطلاق النار المشـــهور على زريبة O.K. أشـــترك معـــي في المناظرة ثلاثة من مشـــاهير الملحدين: والالس ماتســـون Wallace Matson وكي نلسن Kai Nielsen وبول كيرتز Paul Kurtz، وقد واجهنا مجتمعين مجموعة من كبار الفلاســـفة اللاهوتيين: ألفن بلانتنغا Alvin Plantinga ووليام ألســـتون William P. Alston وجورج مافرودس George Mavrodes ورالف ماكنيري Ralph McInerny.

على عكس المعارك المشـــهورة، لم تشـــهد هذه المناظرة أية ألعاب نارية لأن كلا الفريقين لم يرغب بجذب الإنتباه لخصمه، وكلا الفريقين تمســـك برأيه بأن مهمة تقديم الدليل تقع على عاتق الطرف الأخر. أعتبرت أن تقديم الدليل هي مسؤولية المدعي، وليس مســـؤولية المنكر، أما على الطرف الموحد فإن بلانتينغا أصر على أن الإيمان بالإله أمر أساســـي، وهو ما يعني أن الموحدين ليســـوا ملزمين بتقديم الحجج على صحة ادعائهم، كما أنهم ليســـوا ملزمين بتقديم حجج على إعتقادات أساســـية مثل وجود العالم، أما في جانبنا الملحد، فإن نلســـون جادل بأن فلســـفة الدين مملة، في حين أعتبر ماتسون بأن الحجج التقليدية على وجود الإله معيبة، أما كيرتز فادعى أنه من غير الممكن اســـتنتاج وجـــود موحى مقدّس إعتماداً على الادعاء بوجود وحي مقدس.

(١) قصة تصور تبادل إطلاق النار بين أحد رعاة البقر الخارجين عن القانون وبين رجال الشرطة قرب زريبة خيول في الريف الأمريكي، وتم إنتاج فيلم بنفس أسم هذه القصة.

بينما كنت في دالاس، قابلت إثنين من فلاسفة المسيحية الإنجيلية، وهما تيري ميثي Terry Miethe، وهو يعمل في مركز دراسات أكسفورد، وغاري هيبرماس Gary Habermas من كلية لينجبيرغر Lynchburg بولاية فرجينيا، واللذين أصبحا صديقايّ منذ ذلك الوقت.

في السنوات التي تلت ذلك نُشرت لي مناظرتان، الأولى عن قيامة المسيح مع هيبرماس، ومناظرة أخرى عن وجود الإله مع ميثي. من جهتي -في مناظرتي مع ميثي- أعدت تأكيد مجموعة من مواقفي التي طورتها خلال سنوات عن إنسجام تصور الإله وفرضية الإلحاد، أما ميثي فقدم نسخة رائعة من الحجة الكونية المبنية على المقدمات التالية:

بعض الكائنات المتغيرة بنحو محدود، موجودة.

الوجود الحاضر لكل كائن متغير بنحو محدود، ناتج عن آخر.

لا يمكن أن يكون هناك تسلسل (تراجع) لا نهائي لأسباب الكائنات، لأن التسلسل اللانهائي للكائنات المتناهية لن يكون «سبباً» لوجود أي شيء.

إذاً، يوجد سبب أول للوجود الحاضر لهذه الكائنات.

السبب الأول يجب أن يكون لا متناهياً، ضرورياً، خالداً، وواحداً.

السبب الأول الذي لا سبب له، متطابق مع إله التقليد اليهودي-المسيحي.

هذه الحجة لا تستند إلى مبدأ العلة الكافية Sufficient reason [1] - الذي رفضته، وإنما تستند إلى مبدأ السببية الوجودية. رفضت هذه الحجة على أساس أن الأسباب الفاعلة في الكون تكون فاعلة بذاتها دون الحاجة إلى علة فاعلة أولى.

(١) العلة الكافية قضية أو مجموعة قضايا معروف أنها صادقة، منها يمكن اشتقاق النتيجة منطقياً

مع ذلك، قلت إنه رغم صعوبة الاعتقاد بالوجود المستمر للكون الفيزيائي - وهو ما يحتاج إلى تفسير خارجي-، فإن من السهل اقناع العامة بأن الإنفجار الكبير يستلزم وجود علة أولى.

الاستمرار بسرعة

Holding Fast

فـــي الوقت الذي كنت أقوم فيه بالتدريس عــام ١٩٨٠، في جامعة بولنغ غرين Bowling Green بولاية أوهايو كانت لي مناظرة طويلة مع ريتشــارد ســوينبيرن، وهو كما ذكرت ســابقاً بأنه خلفني في جامعة كييـل، وبعد ذلك أصبح استاذاً في أكسفورد.

أصبح سوينبيرن أشهر مدافع عن التوحيد في الدول الناطقـة بالإنكليزية، وقد أشــاد أحد زملائي السابقين من التيار الشكي ترنس بينلهم Terence Penelhum بكتاب ســوينبرن وهو بعنوان «إتساق التوحيد» The Coherence of Theism بقوله «أنا لا أعرف أي دفاع ضد الفلســفة الشــكية المعاصرة يمكــن مقارنته من حيث النوعيــة والوضوح في الفكر». أحد التصورات التي دافع عنها ســوينبرن بقوة هو تصور روح غير مادية عالمة بكل شيء، - وهو أحد أهم التصورات التي تناولتها في كتاب «الإله والفلســفة» - وكما هو الحال في مناظرتي مع بلانتيغا فإن مناظرتي مع ســوينبرن أنتهت إلى طريق مســدود حيث تمســك كلانا بموقفه، ولم أجد أي مبرر لتصور روح غير مادية، بينما لم يجد سوينبيرن مبرراً لأي شخص في رفض تلك الفكرة. لم تنتهِ حواراتي مع ســوينبرن إلى هذا الحد كما ســيتضح لاحقاً في هذا الكتاب، بل أســتمرت إلى اليوم (وبالمناســبة فعندما أنتشــر خبر تحولي إلى التوحيــد علق بلانتينغا على ذلك بالقول «إن هذا يدل على إخلاص البروفيســور فلو، فهو بعد كل هذه السنين من معارضة فكرة الخالق، ها هو يغير موقفه استناداً إلى الدليل»).

تلت المناظرة مع سوينبرن مناظرة أخرى مع وليام لين كريغ William Lane Craig في عام ١٩٩٨ في ميدسون بولاية ويسكنسون، وقد عقدت المناظرة بمناسبة الذكرى الخمسين لمناظرة محطة الإذاعة البريطانية البي بي سي BBC الشهيرة بين برتراند رسل وفريدرك كوبلستون Frederick Copleston.

جادل كريغ بأن أصل الكون والنظام المعقد فيه يمكن تفسيره بأفضل نحو بوجود إله، وقد قمت بالرد عليه بأن معرفتنا عن الكون يجب أن تتوقف عند الانفجار الكبير، والذي ينبغي رؤيته على أنه الحقيقة النهائية Ultimate fact، أما ما يتعلق بحجة التصميم فأشرت إلى أنه حتى أعظم الكيانات تعقيداً في الكون – البشر – هي نتاج قوى فيزيائية وميكانيكية.

في هذه المناظرة كررت موقفي من أن الإله الذي هو على كل شيء قدير، يمكن أن يجعل البشر يختارون طواعية، وهذا يعني أن الدفاع التقليدي عن الإرادة الحرة لا يستطيع تجنب ما يترتب على ذلك من أن الإله حدد مصير كل الأشياء بما فيها الاختيارات الحرة.

كنت أرفض على الدوام الاعتقاد بفكرة المصير المسبق والتي تنص على أن الإله حتّم الخطيئة على معظم البشر. من خصائص هذه المناظرة رفض كريج لأفكار المصير المسبق التقليدية ودفاعه عن الإرادة الحرة الليبرالية. ذهب كريج إلى أن الإله يتدخل مباشرة في النتائج (المُسبّبات) ولا يتصرف كعامل ثانوي، ولذلك فقد كان من المستحيل أن يخلق الإله عالماً مكوناً من كائنات حرة دائماً تفعل الأمر الصائب، واستشهد كريغ بنصوص من الإنجيل تؤكد على رغبة الإله في أن يعيش كل الناس بأمان.

حديثـاً، وجـدت أن جـون ويسـلي John Wesley – والذي أعتبره أحد أعظم أبنـاء بلدي – قاد حملة ضد فكرة المصير المسـبق وتأييـداً للبديل «الأرمني»[1] Arminian alternative، وخصوصاً في ورقته البحثية العظيمة «إعادة النظر بهدوء في المصير المسـبق». أتفهم أن يعتبر بعض المفسرين اليوم أن كتابات القديس بول St. Paul في فكرة المصير المسبق كمرجعية لدور أفراد خاصين في أعمال الكنيسة وليس إلى خلاصهم أو هلاكهم.

(١) تعني عودة المسيح.

ظهوري الأول في نيويورك

My New York Debut

المناظرة العمومية الأخيرة لي كانت في ندوة في جامعة نيويورك، وتمت في مايو من عام ٢٠٠٤، وكان المشـــاركون الآخرون هم العالم الإســـرائيلي جيرالد شرويدر Gerald Schroeder مؤلـــف أفضل الكتب مبيعاً في مجال العلم والدين وهو بعنوان «علـــم الإله» The Science of God، وكان من ضمن المشـــاركين أيضاً الفيلســـوف الأسكتلندي جون هالدين John Haldane، والذي كان مشاركاً في مناظرة «التوحيد والإلحاد» حول وجود الإله إلى جانب صديقي جاك سمارت Jack Smart.

وكمفاجـــأة لجميع المهتمين، أعلنت فـــي البداية أنني الآن أقبل بوجود الإله. ما أعتبر في وقته تبادلاً حـــاداً لوجهات النظر المتعارضة أثناء المناظرة أنتهى إلى أن يصبح بحثاً مشـــتركاً في التطورات العلمية الحديثة التي يبدو أنها تشير إلى ذكاء خارق. في الفيديو الذي عُرض في الندوة، أدعى عريف الندوة أن الإله هو أعظم إكتشـــافات العلم الحديث، وعندما سُئِلت في هذه الندوة إن كان بحثي حول أصل الحياة يشير إلى ذكاء إبداعي، أجبت بالقول: «نعم، أنا الآن أعتقد بذلك ... بشكل شـــبه كامل بسبب اكتشـــافات الحمض النووي DNA. ما قدمه إكتشاف الحمض النووي أوضح التعقيد الشديد غير القابل للتصديق للترتيبات اللازمة لخلق حياة، وهـــو الأمر الـــذي يوجب أن يكون هناك ذكاء خارق يجعـــل هذه العناصر المختلفة تعمل معاً. إنه التعقيد الخارق لهذه العناصر والدقة الهائلة في الطرق التي تتفاعل فيما بينها، واجتماع هذين الأمرين في الوقت المناســـب بالصدفة هو ببساطة أمر

مستحيل، فلابد من أن الأمر يتعلق بتعقيد هائل أنتج ما وصلنا إليه، وهو ما بدا لي أنه نتاج ذكاء».

هذا التصريح مثّل بالطبع تغيراً كبيراً بالنسبة لي، ولكنه مع ذلك كان يتسق مع المبدأ الذي تبنيته منذ بداية مسيرتي الفلسفية في إتباع الحجة حيثما قادتني. لقد تأثرت بشكل خاص بالتفنيد المفصل الذي قام به جيري شرودر Gerry Schroeder لما أسميته « مبرهنة القرد » monkey theorem، وهي الفكرة التي قُدمت بطرق مختلفة كرد على القائلين باحتمال حدوث الحياة بالصدفة مستخدمين تشبيه قيام مجموعة من القردة بالعبث على لوحة مفاتيح الكمبويتر لينتج في النهاية قصيدة السونيته لشكسبير. أشار شرودر في البداية إلى تجربة قام بها المجلس الوطني البريطاني للفنون، حيث تم وضع كمبيوتر في قفص بداخله ستة قرود، وبعد شهر من العبث به بالإضافة لاستخدامه كمرحاض أنتجت القرود خمسين صفحة مكتوبة ولكن دون كلمة واحدة! وقد علق شرويدر بالقول: «إن هذه كانت هي النتيجة بالرغم من أن الكلمة باللغة الإنجليزية يمكن أن تتكون من حرف واحد فقط (I، a)، فالحرف A يمكن أن يصبح كلمة فقط عندما يكون هناك مسافة على يمينه ويساره، فإذا كان هناك ثلاثون حرفاً ورقماً على لوحة المفاتيح فإن إحتمال الحصول على كلمة مكونة من حرف واحد هو 30 x 30 x 30 وحاصله ٢٧,٠٠٠. بعد ذلك قام شرودر بتطبيق قوانين الاحتمال Probability Rules على قصيدة السونيتة Sonnet لشكسبير، وتسائل شرودر: ما هو إحتمال الحصول على قصيدة السونيتة لشكسبير؟ وأكمل قائلاً: «كل بيت من أبيات القصيدة مكون من نفس العدد من الحروف، والقصيدة مكونة من ١٤ بيت، وقد أخترت القصيدة التي تبدأ بجملة «Shall I compare thee to A summer's day»، وقمت بحساب

عـــدد الحـــروف فكان عددها ٤٨٨ حرفـــاً. ما هي إحتماليـــة أن تعبث على لوحة المفاتيـــح لتكتب ٤٨٨ حرفاً بنفـــس تعاقب أحرف هذه الجملـــة ؟ النتيجة هو ١٠ أس ٨٠. وهـــذا الرقم (١٠ أس ٨٠) هو ١ مـــع ٨٠ صفر بعده. ١٠ أس ٦٩٠ هو ١ مع ٦٩٠ صفر بعده. لا يوجد في الكون جســـيمات كافية لتدوين المحاولات. عدد الجسيمات في الكون ليس حبات من الرمل، فنحن نتكلم عن بروتونـــات والكترونات ونيترونات، إذا أخذت الكون بأكمله وحولته إلى شرائح كمبيوترية، يزن كل منها ١ من المليون غرام، وكانت قدرة كل شريحة على الاختيار من بين ٤٨٨ محاولة خلال جزء من المليون من الثانية لاختيار رقم عشوائي، فإن عدد المحاولات الناتجة منذ بدأ الزمان ســـوف تصبح ١٠ أس ٩٠، وببســـاطة لن تستطيع أبداً أن تنتج قصيدة السونيتة بالصدفة. هذا يتطلب أن يكون الكون أكبر بمقدار ١٠ أس ٦٠٠، في حين أن العالم يتوقع أن القرد يستطيع عمل ذلك[1].

بعد أن أســـتمعت إلى محاضرة شرويدر Schroeder قلت له: إنه توصل بصورة مرضية وحاســـمة إلى أن «مبرهنة القرد» مجرد كومـــة من القمامة، وأنه كان من المناســـب اختيار قصيدة الســـونيتة كمثال لأن البعض يستخدم أعمال شكسبير أو مقطوعة موســـيقية لهاملت كمثال، فإذا لم تكـــن المبرهنة قادرة على الصمود في قصيدة واحدة، فمن المؤكد أنه ببســـاطة من المســـتحيل القول بأن عملاً رائعاً مثل أصل الحياة حدث بالصدفة.

(1) Gerald Schroeder, “Has Science Discovered God?” http://science. lenicam.com.

مبارزة مع دوكنز

Dueling With Dawkins

بالإضافة إلى مناظراتي العامة، أشـتركت في مناقشات جدلية كتابية متعددة، ومن الأمثلة البارزة على هذه المناقشـات السـجال الذي حصل مع العالم ريتشارد دوكنز Richard Dawkins، فرغم أنني كنت من الممتدحين لأعماله الإلحادية فإنني كنـت أيضاً من الناقدين لجين الأنانية في مدرسـته الفكريـة. في كتابي «التطور الداروني»، أشرت إلى أن الإنتخاب الطبيعي لا ينتج بنحو إيجابي، وأنه فقط يقوم بالتخلص أو يميل للتخلص من كل الأشياء غير القادرة على المنافسة. فتحقق التنوع في الكون ليس بحاجة لتنشـيط أي مزية واقعية تنافسـية لتفادي الإقصاء؛ فمن الكافي أن لا تكون تلك المزية عبئاً على حاملها وأن لا تضعف موقفه التنافسي.

لنقدم شرحاً مبسطاً، أفترضوا أنني أملك أجنحة لا فائدة منها تحت ملابسي، ولكن هذه الأجنحة من الضعف بحيث لا تسـتطيع رفعي عن الأرض، ولذلك فإن هذه الأجنحة لا تمكنني من الهروب من الحيوانات المفترسـة ولا تمكنني من جمع الطعام، ولكنها مادامت لا تجعلني «أكثر» عرضة للحيوانات المفترسـة فإني سوف أحتفظ بها وأورثها إلى أحفادي.

خطـأ دارون كان في المبالغة في تقدير حجته، حيث قال إن الانتخاب الطبيعي ينتج شـيئاً ما، والمبالغـة تأتي بسـبب توظيفه لتعبير «الانتخـاب الطبيعي» أو «البقـاء للأصلح» بدلاً من تعبيره المفضـل في نهايـة مقالته «الحماية الطبيعية» Natural preservation. لقد ذهبت للإشـارة إلى أن كتاب دوكنز «الجين الأناني» كان تدريباً رئيسياً على ممارسـة التضليل الشعبي. كفيلسوف ملحد، أعتبرت أن

هــذا النوع من العمل الشــعبوي مدمــر في كل جوانبه بمثابة إمــا «كقرد عارٍ» أو «كحديقة حيوان بشــرية» اللذان كتبهما ديسموند موريس Desmond Morris. قدم موريــس في أعمالــه، كنتيجة لأبحاثه الحيوانية قدراً إضافيــاً من النفي المنهجي لفكرة أن المكونات المميزة لنا كنوع تبدو كظاهرة بيولوجية، ولكنه تجاهل الإختلاف الواضح بين البشر وبقية الأنواع.

من ناحية أخرى، أجتهد دوكنز في التقليل والانتقاص من ثمرة أكثر من خمسين عاماً من الأبحاث في مجال الجينات والتي توصلت إلى أن قسماً كبيراً من الصفات الظاهــرة للكائنات الحية تتكيف نتيجة للتفاعل في ما بين مجموعة من الجينات، في حين أن معظم الجينات لها تأثيرات متعددة على هذه الصفات. يعتبر دوكنز أن الأمر الأساســي الذي ينتج السلوك البشري يعود إلى خصائص الجينات الموجودة لــدى الأفراد. وبالتالي، بعد أن أصر على أننا جميعاً مخلوقات غير مختارة نتيجة لنوع جيناتنا، أســتنتج دوكنز أن كل ما نســتطيع فعله هو أن نتقاسم صفاتنا غير المحببة مع الكائنات أحادية الخلية.

الجينات بالطبع لا هي أنانية ولا هي غير أنانية أكثر مما هو حال بقية الكائنات غير الواعية في المنافســة أو الاختيار. (الانتخاب الطبيعي المتداول، ليس انتخاباً؛ بل هو بنحو ما حقيقة منطقية غير مألوفة، بمعنى أنه تحت المســتوى البشــري، الصراع من أجل الوجود ليس «تنافســياً» بالمعنى الحقيقي للكلمة). ولكن ذلك لم يمنــع دوكنز من القول بأن كتابه «ليس كتاباً في قصص الخيال العلمي... إنه علم .... نحــن آلات قــادرة على البقاء ... الروبوتات هي آلات مبرمجة بشــكل أعمى للحفــاظ على مكونات أنانيــة تعرف كجينات». ورغــم أن دوكنز أنكر ذلك بعض المرات إلا أنه يُحذِّر في كتابه من أخذ كلامه بصورة حرفية، وأضاف بشــكل مثير

بـــأن حجة الكتاب العامـــة هي أننا -كحال بقية الحيوانـــات- مجرد آلات صُنعت بواسطة جيناتنا[1].

لو كان ثمة صحة لهذا الكلام، فإنه لا حاجة للاســـتمرار في النقاش، كما فعل دوكنز بالتبشـــير بالقول «دعونا نتعلم الكرم والإيثار لأننا ولدنا أنانيين»، لا بلاغة بمقدورها تحريك الروبوتات، فالجينات كما نشاهد لا تجعل أعمالنا حتمية، ولا هي قادرة على حساب وفهم متطلبات التصرف بأنانية مفرطة أو برحمة مضحية.

أعتـــزل بيبي روث كـــرة القدم الأمريكيـــة في عمر الأربعين، وهـــا أنا الآن لي ضعـــف عمره؛ في الثمانـــين من عمري، ورغم أنني غيّـــرت موقفي المتعلق بوجود إله، إلا أنني آمـــل أن يكون دفاعي عن الإلحاد ومناظراتي مع الموحدين والآخرين قد أوضحا اهتمامي الدائم بالأســـئلة اللاهوتية واســـتعدادي لمواصلة البحث عن إجابات متعددة. ليقُلّ المحللون والأطباء النفسيون ما يشاؤون، ولكن «الجنين» الذي في داخلي ســـوف يظل كما كان، يســـعى دوماً إلى الحجج السليمة والاستنتاجات الصحيحة، وأتمنى أن يتم التعامل معي بنفس القدر من الشغف والمبدئية التي كنت عليها دائماً. في الجزء الثاني من الكتاب سوف أعرض لموقفي الحالي والأدلة التي قادتني للتمسك به.

(1) Richard Dawkins, The Selfi sh Gene (New York: Oxford University Press, 1976), x.

القسم الثاني

اكتشافي للمقدس

الفصل
الرابـــع

حـــج العقل
Pilgrimage of Reason

حـــج العقـــل
Pilgrimage of Reason

لنبدأ بمثال، تخيّل أن هاتفاً مرتبطاً بقمر صناعي سقط على ساحل جزيرة نائية تسكنها قبيلة لم يكن لها أي إتصال مع الحضارة الحديثة. يبدأ أبناء القبيلة بالعبث بالأزرار الموجودة على ســطح الهاتف وعندها سمعوا أصواتاً مختلفة عند الضغط على تسلســل معين للأرقام. في البداية سوف يفترضون أن الهاتف هو من يصدر هذه الأصوات، أما أبناء القبيلة الأذكياء ولنقل علماء هذه القبيلة فأعادوا الضغط على نفس تسلســل الأرقام وعندها سمعوا الصوت نفسه، وحينها يكون الاستنتاج لديهــم واضحاً، فهذا المركب الذي يتكون من بلورات ومعادن ومواد كيماوية يصدر صوتاً يشبه صوت الإنسان، وهذا يعني ببساطة أن هذه من خصائص الهاتف.

لكن مجلس حكماء القبيلة أجتمع لمناقشــة الأمر. وبعد نقاش طويل وعاصف للموضــوع يتوصلون إلى نتيجة مفادها: أن الأصوات التي تصدر من الجهاز يجب أن تكــون أتية مــن أناس مثلهم، وهــؤلاء الناس أحياء ويتمتعــون بالوعي ولكنهم يتكلمــون لغة أخرى. بدلاً من افتراض أن الأصوات تأتي من ســماعة الهاتف فإن عليهم استكشــاف إمكانية أنهم ومن خلال شــبكة إتصالات غامضة يســتطيعون التواصل مع أناس أخرين، ويتمكنوا من الوصول إلى فهم أكبر للعالم الذي يتجاوز جزيرتهم. لكن علماء القبيلة ضحكوا أمام حكيم القبيلة قائلين: «إذا كســرنا هذه الأداة فإن الأصوات ســتتوقف، وهذا يعني بوضوح أن هذه الأصوات ليست سوى أصــوات تصدر من خليط من الليثيوم وشــريحة طباعة أرقــام وصمامات ثنائية باعثة للضوء.

في هذا المثال، نرى كيف أن النظريات المسبقة تشكل الطريقة التي نرى بها الدليل بدلاً من أن ندع الدليل يشكل نظرياتنا، وعندها يمكن أن نتجنب القفزة الكوبرنكية (نسبة إلى كوبرينكس [1] Nicolaus Copernicus)، من خلال ألالاف من أفلاك التدوير البطلمية [2]، وهنا كما يبدو تكمن الخطورة والشر المستشري للإلحاد العقائدي. تأمل في كلام مثل «علينا أن لا نطلب تفسيراً للكيفية التي وُجد بها العالم، إنه موجود وكفى» أو «بما أننا لا نستطيع قبول مصدرا متعالي للحياة فإننا نختار أن نؤمن باستحالة: إنبثاق هذه الحياة فجاءة بطريق المصادفة من المادة»، أو أن «القوانين الفيزيائية هي قوانين اللاقوانين التي ظهرت من فراغ- وانتهى النقاش».

في البداية، قد تبدو هذه العبارات كحجج منطقية لها صلاحية خاصة لا حاجة لمناقشتها، ولكن بالتأكيد فإن ذلك ليس أكثر من أن تكون إشارة إلى أن هذه العبارات إما أنها عقلانية وإما أنها حجج. لكي نقدم حجة عقلانية بأن شيئاً ما كذا وكذا، فإن من الضروري تقديم الأسباب التي تدعم ذلك. ولكن لنفترض أننا نشك بأن هناك ثمة ثغرة في هذا الكلام، أو لنكن أكثر تطرفاً فنقول أن لدينا شك بأن كل ما قيل له أي قيمة أصلاً. كمحاولة لفهم ما يقصده هؤلاء علينا أن نحاول إيجاد الدليل الذي يؤكد حقيقة ما يزعمون.

لأن هذا الكلام إذا كان عقلانياً وحجة، فلابد من تقديم الأسباب التي تؤيده من الناحية العلمية أو الفلسفية. وأيضاً لا بد من تقديم ما يمكن إعتباره ضد

(١) نيكولاس كوبرينكس: أول من صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرماً يدور في فلكها في كتابه «في ثورات الأجواء السماوية»

(٢) المدافعون عن نظرية بطليموس بأن الأرض مركز الكون والرافضين لنموذج كوبرينكس الشمسي عن طريق استخدام تصور أفلاك التدوير للأعتراض على ملاحظة حركة الكواكب التي تتعارض مع نموذجهم.

هذا الكلام أو تقديم ما يمكن أن يقنع المعترض بالانسحاب والاعتراف بأنه كان مخطئاً. ولكن إذا لم يُقدم أي دليل أو سبب في صالحه، فإنه ليس هناك ما يدعونا للقول بأن هذا الكلام حجة عقلانية.

عندما يقول حكيم القبيلة للعلماء بأن عليهم أن يستكشفوا جميع أبعاد الدليل فإنه يريد أن يقول أن الفشل في استكشاف ما يعتبر لأول وهلة منطقياً ومقبولاً يعيق بطبيعة الحال فهماً أفضل للعالم الذي يتجاوز الجزيرة التي تسكنها هذه القبيلة. غالباً ما يبدو للناس غير الملحدين كما لو لم يكن هناك دليلاً مقبولاً يقنع الملحدين أصحاب التفكير العلمي الجزمي ليكون علة كافية للقول «قد يكون هناك إلهاً في نهاية المطاف». ولذلك فأنا أسأل زميلي السابق الملحد السؤال المركزي البسيط: «ما الذي ينبغي أن يحدث أو يجب أن يحدث لكي تعتبره على أقل تقدير سبباً للتفكير في وجود عقل خارق؟».

وضع الأوراق على الطاولة

Laying The Cards On The Table

لأترك المثال جانباً، لألقي أوراقي على الطاولة، وأعرض أفكاري والأسباب التي تدعم ذلك. أنا الآن أؤمن بأن الكون قد جاء إلى الوجود بواسطة ذكاء لا محدود. أنا أؤمن بأن قوانين الكون المعقدة تُبيّن ما أسماه العلماء عقل الإله. انا أؤمن بأن الحياة وإعادة الخلق أساسها مصدر إلهي.

لماذا أؤمن بذلك مع أني دافعت عن الإلحاد لأكثر من نصف قرن؟ الجواب باختصار هو أن هذه هي صورة العالم التي نبعت من العلم الحديث. العلم سلط الضوء على ثلاثة أبعاد للطبيعة وهي تشير إلى الإله.

الأول هو أن الطبيعة تخضع لقوانين.

الثاني هو بُعْد الحياة في الكائنات الذكية المنظمة التي نتجت عن المادة.

الثالث هو الوجود الحقيقي للطبيعة.

ولكن ليس العلم فقط هو من قادني لذلك. ولكنني أستفدت من الدراسة المستحدثة للحجج الفلسفية التقليدية.

إن تراجعي عن الإلحاد لم يكن بسبب أي ظاهرة أو حجة جديدة. فخلال العقدين الماضيين كان مجمل الإطار الفكري لي في حالة تبدل. وكان هذا نتيجة تقييمي المستمر لأدلة الطبيعة. وعندما وصلت في النهاية إلى الإيمان بالإله، لم يكن ذلك تبدلاً للنموذج الإرشادي Paradigm Shift، فنموذجي الإرشادي مازال على حاله، وهو كما قال أفلاطون في الجمهورية على لسان سقراط «يجب أن نتبع الدليل حيثما ذهب بنا».

قد يتسائل شخص كيف أنني وأنا فيلسوف أتحدث في مواضيع عالجها العلماء. إن أفضل جواب على هذا السؤال هو بطرح سؤال أخر: هل نحن الآن بصدد العلم أم بصدد الفلسفة؟ عندما تدرس التفاعل المتبادل بين جسمين ماديين ولنقل على سبيل المثال أثنين من الجسيمات دون الذرية فإنك تتحدث في المجال العلمي، أما إذا كنت تسأل كيف ولماذا توجد هذه الجسيمات –أو أي جسم مادي– فأنت تتحدث حينها في الفلسفة. عندما تستنتج نتيجة فلسفية من معلومات علمية فأنت تفكر كفيلسوف.

التفكير كفيلسوف

Thinking Aa a Philosopher

دعونـــا نتطرق لهذه النظرة هنا. في عام ٢٠٠٤، قلت بأن أصل الحياة لا يمكن تفســـيره إذا بدأنـــا بالمادة فقط. رد المنتقدون بروح المنتصـــر قائلين بأنني لم أقرأ قـــط مقالاً في مجلة علمية ولا تابعت التطـــورات العلمية الحديثة المتعلقة بالتولد التلقائـــي (التولد الذاتي من كائنات غير حيـــة). هم بهذا النقد لم يفهموا الهدف الرئيســـي من كلامي، فاهتمامي لـــم يكن منصباً على هـــذه الحقيقة أو تلك في الكيمياء أو في علم الجينات، بل كان إهتمامي منصباً على الســـؤال الرئيسي عن معنى أن يكون شـــيئ ما حياً، وما علاقة ذلك بالحقائق الكيميائية والجينية ككل. أن تفكر على هذا المستوى، فأنت تفكر كفيلسوف. وحتى لا أبدو متواضعاً أكثر من اللازم يجب أن أقول أن هذا عمل الفلاسفة وليس عمل العلماء كعلماء. التخصص الدقيـــق للعلماء لا يعطيهم أية ميزة عند مناقشـــة هذا الســـؤال، بالضبط كما أن لاعب البيسبول ليس من شأنه أن يحدد أي نوع من معاجين الأسنان أفضل.

بالطبع للعلماء، وللفلاسفة، ولأي شخص الحرية الكاملة في أن يقول ما يريد. وبالتأكيـــد لن يتفق كل العلماء معي في تفســـيري الخاص للحقائق التي يتوصلون إليهـــا، ولكن إختلافهم معي يجب أن يقوم على قدمين فلســـفيتين. وبعبارة أخرى أخرى، إذا انخرط العلماء في تحليل فلســـفي، فلا ســـلطتهم ولا خبرتهم بوصفهم علماء، هي ذات صلة، ويجب أن يكون ذلك واضحاً. عندما يقدمون رأيهم في علم الاقتصاد مثل تقديم ادعاءات حول عدد الوظائف التي يوفرها العلم والتكنولوجيا، فإن عليهم أن يقدموا تحليلهم في إطار التحليل الإقتصادي، وكذلك العلماء الذين

يتحدثون كفلاسفة عليهم أن يطرحوا رأيهم في الإطار الفلسفي، وكما قال ألبرت أينشتين Albert Einstein «رجل العلم هو فيلسوف ضعيف»[1].

ولحسن الحظ أن الأمر ليس كذلك دائماً، فقادة العلم خلال مئات السنين الماضية وبعضهم من العلماء المعاصرين المؤثرين قدموا رؤية فلسفية تنبثق من عقل لاهوتي. وكذلك الحال معي، فأنا أقدم رؤيتي الخاصة عن العالم والتي أعتقد أنها قائمة فلسفياً على تفسير العديد من الظواهر التي واجهها العلماء والناس العاديين على حد سواء.

ثلاثة أبعاد من البحث العلمي كانت على وجه الخصوص مهمة بالنسبة لي، على ضوء الأدلة المتداولة اليوم. أول هذه الأبعاد هو السؤال الذي حير ولازال يحير الكثير من العلماء اللامعين، وهو من أين جاءت قوانين الطبيعة؟ والثاني هو السؤال الواضح للجميع: كيف جاءت الحياة من اللاحياة؟ والثالث وهو السؤال الذي يوجهه الفلاسفة لعلماء الكون: كيف جاء الكون -بكل ما يحتويه من أشياء مادية- إلى الوجود؟

(1) Albert Einstein, Out of My Later Years (New York: Philosophical Library, 1950), 58.

عودة الحكمة

A Recovery Of Wisdom

بناءاً على موقفي الجديد من نقاش الفلسفة التقليدية حول وجود إله، فإن أكثر ما أقنعني هو حجة الفيلسوف ديفيد كونوي David Conway المؤيدة لوجود إله في كتابه «عودة الحكمة: من هنا إلى البحث عن الحكمة» The Recovery of Wisdom: From Here to Antiquity in Quest of Sophia. كونوي فيلسوف بريطاني مميز في جامعة ميديلسيكس Middlesex، وهو معروف بالخصوص في مجالي الفلسفة التقليدية والحديثة معاً.

الإله الذي ندافع أنا وكونوي عن وجوده هو الإله الذي تحدث عنه أرسطو، فقد كتب كونوي قائلاً:

«وخلاصة القول، إن أرسطو حدد الصفات التالية للكائن الذي يفسر وجود العالم بمعناه الواسع،: الثبات، غير مادي، على كل شيء قدير، بكل شيء عليم، يتصف بالوحدانية، غير قابل التجزئة، يتصف بالخير المطلق ووجوب الوجود. هناك تشابه عجيب بين هذا الصفات وبين تلك الصفات التي ذُكرت للإله في التقليد اليهودي- المسيحي.

وهذا ما يبرر قولنا بأن أرسطو كانت لديه نفس فكرة الإله كمُسبِّب للوجود وهو نفسه الإله الذي يستحق العبادة في هاتين الديانتين»[1].

وكما يرى كونوي، فإن الأله الذي تؤمن به الأديان التوحيدية له نفس صفات الأله الذي يؤمن به أرسطو. في كتابه، يحاول كونوي الدفاع عما أسماه التصور

(1) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 74.

التقليدي للفلسفة. وهذا التصور يرى أن تفسير وجود العالم ينبثق من أن الإله كُلّي القدرة وكُلّي العلم خلق هذه العالم لكي يوجد ويستمر وجود الكائنات العاقلة عليه[1].

خلق الإله الكون من أجل أن يخلق جنس الكائنات العاقلة. يعتقد كونوي وأنا أشاركه في ذلك أنه من الممكن معرفة وجود وطبيعة هذا الإله الأرسطي عن طريق التجربة دون الحاجة إلى استدلال بشري.

لابد أن أؤكد على أن اكتشافي للألوهية مرّ عبر مستوى طبيعي صرف، دون الرجوع إلى أية ظواهر غير طبيعية (خارقة). لقد كان إكتشافي للإلوهية عبارة عن ممارسة ما يسمى باللاهوت الطبيعي [٢]، وليس له علاقة بأي نوع من أنواع الوحي الديني. وأنا لا أدعي أنه حصلت لي أية تجربة شخصية مع الإله أو أية تجربة يمكن اعتبارها إعجازية أو غير طبيعية. باختصار، أكتشافي للألوهية كان عبارة عن رحلة عقل وليست رحلة إيمان.

(1) Conway, The Rediscovery of Wisdom, 2–3.

(٢) التوحيد المبنى على الدليل العقلي

الفصل الخامس

من كتب قوانين الطبيعة؟
Who Wrote Laws of Nature

من كتب قوانين الطبيعة؟
Who Wrote Laws of Nature

لعل أكثر الحجج الداعمة لوجودة الإله شهرة وقبولاً من الناحية الحدسية ما تسمى بحجة التصميم Argument from design. وفقاً لهذه الحجة فإن التصميم الواضح في الطبيعة يدل على وجود مصمم للكون. كثيراً ما أكدت على أن الحجة الغائية تنبثق في الواقع من حجة النظام، لأن هذه الحجة مستمدة من النظام المشاهد في هذا العالم، ومن خلال التصميم نتعرف على المصمم. على الرغم من أنني كنت منتقداً للحجة الغائية فإنني منذ ذلك الوقت بدأت أقتنع بأنه إذا ما تم صياغة هذه الحجة بطريقة صحيحة فإنها تمثل حجة مقنعة لإثبات وجود إله. التطورات التي حدثت في مجالين بالخصوص جعلتني أغير وجهة نظري. الأول هو السؤال عن أصل قوانين الطبيعة والأفكار ذات الصلة بالعلماء البارزين، أما المجال الثاني فهو السؤال عن أصل الحياة والتكاثر.

ماذا أعني بقوانين الطبيعة؟ ببساطة أنا أعني بالقانون الإطراد والتماثل في الطبيعة. بعض أمثلة الكتب الدراسية قد توضح ما أقصد:

ينص قانون بويل على أن حجم عينة غازية عند درجة حرارة ثابتة يتناسب عكسياً مع الضغط الواقع عليها.

ووفقاً لقانون نيوتن الأول للحركة:

يظل الجسم في حالته الساكنة (إما السكون التام أو التحرك في خط مستقيم بسرعة ثابتة) ما لم تؤثر عليه قوة خارجية تغير من هذا الحالة.

طبقاً لقانون الحفاظ على الطاقة:

في أي نظام معزول، الطاقة لا تفنى ولا تستحدث من العدم ولكن يمكن تحويلها من صورة لأخرى

النقطة المهمة ليست في أن هناك إطرادات في الطبيعة، ولكن المهم أن هذه الإطرادات كلها دقيقة من الناحية الرياضية، وهي كونية وشاملة ومترابطة فيما بينها. أعتبر آينشتين بأن هذه القوانين تمثل «السبب المتجسد».

السؤال الذي ينبغي أن نطرحه هو كيف جاءت هذه القوانين كحزمة واحدة. هذا هو السؤال الذي بالتأكيد طرحه العلماء من نيوتن إلى آينشتين إلى هيزنبرغ وأجابوا عليه، وجوابهم كان عقل الإله. لم يقتصر هذا النوع من التفكير على العلماء القدماء أمثال أسحاق نيوتن Newton وجيمس ماكسويل James Maxwell، بل أمتد ليشمل العديد من العلماء البارزين في العصر الحديث الذين أعتبروا أيضاً أن قوانين الطبيعة عبارة عن أفكار لعقل الإله.

ختم ستيفن هوكنج Stephen Hawking كتابه «التاريخ المختصر للزمن» A Brief History of Time وهو من أكثر الكتب مبيعاً بالفقرة التالية:

«إذا أكتشفنا نظرية كاملة فإنه ينبغي أن تكون مفهومة من قبل الجميع، وليس من قبل بعض العلماء، ولذا علينا جميعاً كفلاسفة وعلماء وأناس عاديين أن نشارك في نقاش السؤال التالي: لماذا نحن والكون موجودون؟ وإذا استطعنا الوصول إلى إجابة لهذا السؤال فإن ذلك يعد بمثابة نصر كامل للعقل البشري، وعندها سوف نتعرف على عقل الإله». وفي الصفحة التي تسبق الفقرة السابقة تسائل هوكنج «حتى لو كانت هناك فقط نظرية موحدة واحدة ممكنة فإنها سوف تكون عبارة عن

قوانين ومعادلات، ولكن ما الذي يمكّن هذه القوانين من أن تصف العالم؟»[١].

كان لدى هوكنج المزيد ليقوله في المقابلة التي تلتها[٢]:

«الانطبـــاع الطاغي هو أن هناك نظام، وكلما ازداد إكتشـــافنا لهذا الكون كلما إزددنا قناعة بأن الكون محكوم بقوانين الطبيعة، ولكن يظل السؤال قائماً لماذا وُجد العالم؟ وإن أحببت، فبمقدورك أن ترى الله هو الجواب على هذا السؤال»[٣].

(1) Stephen Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, 1988), 175, 174.

(2) Gregory Benford, "Leaping the Abyss: Stephen Hawking on Black Holes, Unified Field Theory and Marilyn Monroe," Reason 4.02 (April 2002) : 29.

(٣) كان هذا هو موقف الفيزيائي هوكنج الســـابق، لكن بعدما نشـــر كتابه الأخيـــر "التصميم العظيم» The Grand Design الذي حاول فيه تفسير نشأة الكون دون الحاجة لافتراض وجود إله تغير موقفه بنحو واضح. ترجم كتابه الجديد أيمن أحمد عياد، دار التنوير، بيروت، ٢٠١٣.

من الذي كتب كل تلك الكتب؟

Who Wrote All Those Book ?

قبل زمن طويل من هوكنج، استخدم آينشتين اللغة ذاتها، حيث كتب «أريد أن أعرف كيف خلق الإله العالم ... أريد أن أعرف أفكاره أما الباقي فمجرد تفاصيل»[1]. في كتابي «الإله والفلسفة»، كتبت بأننا لا نستفيد كثيراً من هذه الفقرات، فقد قال آينشتين أنه يؤمن بإله سبينوزا Spinoza's God [2].

يعتبر باروخ سبينوزا Baruch Spinoza أن الإله والطبيعة مترادفان، ويمكن القول دون تردد بأن آينشتين بالنسبة لليهود والمسيحين والمسلمين كان ملحداً، بل أنه كان «الأب الروحي لجميع الملحدين». ولكن صدر حديثاً كتاب بعنوان «آينشتين والدين» Einstein and Religion لماكس جامر Max Jammer وهو أحد أصدقاء آينشتين يقدم صورة مختلفة تماماً عن تأثير سبينوزا على قناعات آينشتين الشخصية.

في الكتاب، بين جامر أن آينشتين كان يعرف القليل عن سبينوزا، وأن آينشتين لم يقرأ لسبينوزا سوى كتاب الأخلاق Ethics، وقد رفض مرات عدة طلبات للكتابة عن فلسفة سبينوزا[3]. وفي رده على أحد الطلبات، قال آينشتين «إنه لا يملك معرفة متخصصة ليكتب مقالة علمية عن سبينوزا». رغم أن آينشتين يشترك مع سبينوزا في الإيمان بالحتمية Determinism، إلا أن جامر يعتبر أن لا مسوِّغ للقول أن أفكار سبينوزا أثرت على فكر آينشتين. لاحظ جامر أيضاً أن آينشتين شعر

(1) Albert Einstein, quoted in Timothy Ferris, Coming of Age in the Milky Way (New York: Morrow, 1988), 177.

(2) Antony Flew, God and Philosophy (New York: Dell, 1966), 15.

(3) Max Jammer, Einstein and Religion (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1999), 44.

بأنه قريب من سبينوزا لأنهما يشتركان في حاجتهما إلى الإنعزال، وقدرهما بأن يُعاد قراءتهما في الأرث اليهودي وأن يتم تجاهلهما في الأرث الديني، ورغم أن آينشتين أشار إلى إيمان سبينوزا بوحدة الوجود فإنه عبر عن نفيه أن يكون مؤمناً بوحدة الوجود أو بالإلحاد[1].

«أنا لست ملحداً، ولا يمكن أن أعتبر نفسي مؤمناً بوحدة الوجود. نحن في موقف طفل صغير يدخل مكتبة كبيرة مملؤة بكتب بلغات مختلفة، والطفل يعرف أن هناك من كتب هذه الكتب، ولكنه لا يعرف كيف. هو لا يفهم اللغة التي كُتبت بها هذه الكتب. الطفل يظن بأن هذه الكتب مرتبة بطريقة معينة ولكنه لا يعرف هذه الطريقة، وهذا ما يبدو لي موقف أذكى شخص فيما يخص الإله. نحن نرى العالم منظماً بطريقة رائعة، ويتبع قوانين معينة ولكننا لا نعرف هذه القوانين. عقولنا المحدودة لا تستطيع إستيعاب القوة الغامضة التي تحرك هذه الكويكبات»[2].

في كتاب «وهم الاله» The God Delution، شاطرني دوكنز في موقفي القديم بأن آينشتين كان ملحداً، وبذلك فهو يتجاهل كلام آينشتين المشار إليه أعلاه بأنه ليس ملحداً ولا مؤمناً بوحدة الوجود، وهذا محير لأن دوكنز أستشهد في إحدى المرات بجامر، ولكنه ترك عدداً كبيراً من عبارات جامر المهمة عن آينشتين في هذا الشأن.

لاحظ جامر على سبيل المثال رفض آينشتين المستمر إعتباره ملحداً، وقد أعلن في محادثة مع الأمير هيبرتس أمير لونشتين Hubertus of Lowenstein «ما يجعلني أشعر بالغضب أن الناس الذين يقولون بأن الإله غير موجود يستشهدون

(1) Jammer, Einstein and Religion, 45.
(2) Jammer, Einstein and Religion, 45 – 46.

بكلامي لتأييد أرائهم». نفى آينشـــتين إعتناقه الإلحاد لانه لم يجد أن إنكاره للإله الشخصي[1] Personal God يعني أبداً إنكاراً لوجود إله. من المؤكد أن آينشتين لم يؤمن بالإله الشـــخصي[2] ولكنه قال: «إنه سؤال مختلف إذا ما كان الاعتقاد بالإله الشـــخصي محل نقاش. دعم فرويد هذا الـــرأي في أخر مؤلفاته، ولن أدخل أبدا في تفاصيل هذا الموضوع، لان هذا الاعتقاد بالنســـبة لي يفتقر لأية نظرة متعالية للحياة، وأشـــك أن ينجح أحد في تقديم وســـائل عظيمة للبشـــرية تلبي حاجاتهم الميتافيزيقية»[3].

كملخص ينتهي جامر إلى أن آينشتين كما هو الحال مع ميموندس maimonides وســـبينوزا يرفض بشـــكل قاطع أي نوع من التجسيد في الفكر الديني. ولكن على خلاف سبينوزا الذي رأى أن النتيجة المنطقية لنفي الإله الشخصي جعل الإله في هوية مشـــتركة مع الطبيعة، في حين أصر آينشتين على «أن الإله يُظهر نفسه في قوانين الكون كروح أعظم من تلك التي للإنسان، وأن على المرء بما يملك من قوى هزيلة أن يشـــعر بالتواضع». أتفق آينشتين مع سبينوزا على إن من يعرف الطبيعة يعرف الإله، ولكن ليس لأن الطبيعة هي الإله، ولكن لأن استخدام العلم في دراسة الطبيعة سوف يقود إلى الدين[4].

---

(١) الإله الشخصي هو شخص كالإنسان، لكن من دون جسم، ويتفوق عليه في صفاته الكيفية والكمية.

(2) Jammer, Einstein and Religion, 48.

(3) Jammer, Einstein and Religion, 150. 218

(4) Jammer, Einstein and Religion, 148.

عقل آينشتين المتفوق

Einstein's "Superior Mind"

من الواضح أن آيشـــتين يعتقد بمصدر متعالي لعقلانية العالم، وهو ما يســـميه «العقـــل الفائق»، «الروح الفائقة»، «القوى المنطقية الفائقة» و «القوة الغامضة التي تحرك الكويكبات»، وهذا كان واضحاً في عدد من عباراته: «لم أجد على الإطلاق تعبيراً أفضـــل من تعبير «إيماني» religious للوثـــوق بالطبيعة العقلانية للحقيقة والقدرة الخاصة في الوصول للعقل البشـــري، في حين أن العلم يفتقر لهذه الثقة. إذا كان المبشـــرون يريدون أن يســـتفيدوا من ذلك فهذا شأنهم، فليس هناك علاج لذلك»[١].

بالتأكيد هي القناعة القريبة من الشعور الديني لعقلانية وذكاء هذا العالم التي تتجاوز العمل العلمي نوعياً، هو الاعتقاد الراســـخ المرتبط بشعور عميق بإن هناك عقل متفوق يتجلى في عالم التجربة وهو ما يمثل تصوري عن الإله. أي شخص مر بتجربة مكثفة وناجحة في الحقل العلمي سوف يشعر باندفاع من التقديس العظيم للعقلانية التي تتبدى في الوجود .... عظمة السبب المتجسد في الوجود[٢].

«تديني يتضمن تقديراً متواضعاً للروح المتفوقة اللانهائية التي تظهر نفسها في أدق التفاصيل التي نستطيع إدراكها بعقول واهية وضعيفة. هذه القناعة العاطفية العميقة بوجود القوة المنطقية المتفوقة التي تتبدى في الكون الذي لا يمكن الإحاطة به هو الذي شكل فكرتي عن الإله»[٣].

(1) Albert Einstein, Lettres a Maurice Solovine reproduits en facsimile et traduits en francais (Paris: Gauthier-Vilars, 1956), 102–3.
(2) Jammer, Einstein and Religion, 93.
(3) Albert Einstein, The Quotable Einstein, ed. Alice Calaprice (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2005), 195–6.

آينشـــتين، وهو مكتشف النظرية النســـبية ليس هو العالم العظيم الوحيد الذي ربط بين قوانين الطبيعة وعقل الإله.

رواد فيزياء الكوانتم وهم من عظماء المكتشـــفين في الزمن الحديث من أمثال ماكس بلانك Max Planck، ورنر هيزنبيرغ Werner Heisenberg، ارون شرودنجر Erwin Schrödinger وبـــول ديراك[1] Paul Dirac، كل هؤلاء صدرت عنهم عبارات بخصوص الربط بين قوانين الطبيعة وعقل الإله سأورد بعضاً مما قالوه لاحقاً.

ورنر هيزنبيرغ Werner Heisenberg وهو مشهور بمبدأ عدم اليقين وميكانيكا المصفوفات Uncertainity Principle and Matrix Mechanics قال: «خلال مسيرة حياتي أضطررت بشـــكل متكـــرر إلى التأمل في العلاقة بـــين حقلين من الحقول الفكريـــة: الحقل العلمي والحقل الديني، ولم أكن قادراً على الإطلاق على الشـــك بذلك الواقع التي يشـــيرون إليه»[2]. وفي موضع أخر يقول «لقد ســـألني أحدهم علـــى نحو مفاجـــئ: هل تؤمن بالإله الشـــخصي؟ .... فقلت له هـــل لي أن أعيد صياغة ســـؤالك، شخصياً أفضل صياغة السؤال على النحو التالي: هل يمكنك أو أي شـــخص أخر أن تصل إلى النظام المركزي للأشـــياء والأحداث التي لا يبدو أن وجودها محل شـــك بنفس القدر الذي يمكنك الوصول إلى روح soul إنسان أخر؟ وأنا أستخدم لفظة روح soul بشكل متعمد حتى لا يُساء فهمي. إذا وضعت سؤالك

(1) For the most part, these quotations are taken from Roy AbrahamVarghese, The Wonder of the World (Fountain Hills, AZ: Tyr, 2003).
(2) Werner Heisenberg, Across the Frontiers, trans. Peter Heath (San Francisco: Harper & Row, 1974), 213.

على هذا النحو فإن جوابي سيكون نعم .... إذا كانت القوة المغناطيسية هي التي وجهت هذه البوصلة فمن سيكون مصدر ذلك سوى النظام المركزي؟! إذا كان مقرراً لنا أن ننقرض فإن أموراً فظيعة يمكن أن تحدث للجنس البشري أكثر من مخيمات الغاز أو القنبلة الذرية»[1].

إرون شرودنجر، وهو رائد أخر من رواد الكوانتم وهو الذي أكتشف الموجات الميكانيكية، يقول «إن الصورة العلمية للعالم من حولي ناقصة جداً. إنها تعطيني الكثير من المعلومات الواقعية وتضع كل خبراتنا في نظام رائع الإتساق، ولكن الصمت الرهيب الذي يحيط بقلوبنا هو ما يهم حقاً. إنها لا تستطيع أن تقول كلمة واحدة عن الإحساس باللون الأحمر والأزرق، عن المر والحلو، عن مشاعر البهجة والحزن. إنها لا تعرف شيئاً عن الجمال والقبح، عن الخير والشر، عن الإله والخلود». تتظاهر العلوم بقدرتها على الإجابة على الأسئلة في هذه الأبعاد، ولكن الإجابات غالباً ما تكون سخيفة جداً بحيث أنها تجلعنا نميل إلى عدم أخذها على محمل الجد. العلم متحفظ أيضاً عندما يكون السؤال عن الوحدة العظيمة التي ننتمي إلى جزء منها، والأسم المشهور في زماننا لهذه الوحدة هو «الإله». يوصف العلم في العادة على أنه إلحادي، وبعدما قلناه فإن هذا لن يكون مفاجئاً. إذا كانت صورة العالم لا تحتوى حتى على الجمال والبهجة والحزن، فإذا أتفقنا على أن نقتطع منها الشخصية personality فكيف يمكن لهذه الصورة أن تحتوي على أعظم فكرة عندما تعرض نفسها لعقل الإنسان»[2].

ماكس بلانك، كان أول من عرض لفرضية الكوانتم، وهو يعتقد بطريقة لا لبس

(1) Werner Heisenberg, Physics and Beyond (San Francisco: Harper & Row, 1971), excerpted in Timothy Ferris, ed., The World Treasury of Physics, Astronomy and Mathematics (New York: Little, Brown, 1991), 826.

(2) Erwin Schrödinger, My View of the World (Cambridge: Cambridge University Press, 1964), 93.

فيهـا بأن العلم يكمـل الدين، وهو يؤكد على أنه «ليس هناك أي تعارض بين العلم والديـن، لأن كل واحد منهما مكمل للأخر»، ويقول بأن «العلم والدين يقاتلان في المعركة ذاتها في حرب صليبية متواصلة ضد مذهب الشـك[١] skepticism وضد الدغمائيـة[٢] dogmatism وضد الكفـر والخرافات ... وكنتيجة يقاتلان من أجل الإله»[٣].

بول ديـراك، والذي أكمل عمل هايزنبيرغ وشـرودنجر بصياغة ثالثة لنظرية الكوانتم، لاحظ أن «الله هو رياضي بمرتبة عالية جداً، وهو يسـتخدم الرياضيات المتقدمـة في بناء الكـون»[٤]. وقبل أجيال من هؤلاء العلماء، أكد تشـارلز داروين Darwin Charles علـى الفكرة ذاتها بقوله «العقل يقول لي أنه من الصعب بدرجة كبيرة بل من المسـتحيل أن ندرك هذا الكون الهائل والرائع، بما في ذلك الإنسـان مـع قابلياته على النظر إلى الماضي البعيد والذهاب بذهنه إلى المسـتقبل البعيد، ليقول بعد ذلك بأن هذا الكون حدث بالصدفة العمياء أو الضرورة.

عندما أتأمل بذلك أجد نفسـي مضطراً للميل إلى السـبب الأول الذي يمتلك عقلاً ذكياً يشابه بدرجة ما الإنسان: عندها أستحق أن أوصف بالمُوحِّد»[٥].

---

(١) الشـكوكية أو مذهب الشـك هو إتجاه فلسفي يقول بأن المعرفة الحقيقية في حقل معين هي معرفة غير محققة أو مؤكدة.

(٢) الدوغماتية (أو الدوغمائية) هي التعصب لفكرة معينة من قبل مجموعة دون قبول النقاش فيها أو الإتيان بأي دليل ينقضها لمناقشـته أو كما هي لدى الإغريق الجمود الفكري. وهي التشـدد في الاعتقاد الديني أو المبدأ الأيديولوجي، أو موضوع غير مفتوح للنقاش أو للشـك. يعود أصل الكلمة إلى اليونانية δόγμα والتي تعني «الرأي» أو «المعتقد الأوحد».

(3) Max Planck, Where Is Science Going? trans. James Murphy (New York: Norton, 1977), 168.

(4) Paul A. M. Dirac, "The Evolution of the Physicist's Picture of Nature," Scientific American 208, no. 5 (May 1963): 53.

(5) Charles Darwin, The Autobiography of Charles Darwin 1809-1882, ed. Nora Barlow (London: Collins, 1958), 92–3.

أستمر هذا القطار من الأفكار في المسير من خلال كتابات مجموعة من كبار الباحثين العلميين في وقتنا الحاضر، وهؤلاء يتراوحون ما بين علماء من أمثال بول ديفيز Paul Davies، وجون بارو John Barrow، وجون بولكنغهور John Polkinghorne، وفريمان دايسون Freeman Dyson، وفرانسيس كولينز Francis Collins، وأوين جنجريتش Owen Gingerich، وروجر بنروز Roger Penrose، إلى فلاسفة العلوم من أمثال ريتشارد سوينبيرن وجون ليزلي John Leslie.

ديفيز وبارو، على وجه الخصوص قاما بتطوير أفكار آينشتين وهايزنبرغ، وغيرهم من العلماء بخصوص العلاقة بين عقلانية العالم وعقل الإله. كلاهما حصل على جائزة تمبلتون على هذا الاكتشاف، وقد صححت أعمالهم الكثير من التصورات الخاطئة الشائعة، كما سلطت الضوء على المواضيع التي نناقشها هنا.

قوانين من؟

Whose Laws?

في كلمته في حفل جائزة تمبلتون، أشـــار بـــول ديفيز إلى نقطة وهي «أن العلم يمكن أن يتقدم فقط عندما يملك العلماء نظرة كونية لاهوتية». لا أحد يســـأل من أين جاءت قوانـــين الفيزياء، ولكن حتى أكثر العلماء إلحـــاداً يقر كحقيقة إيمانية بوجود نظام في الطبيعة قائم على القوانين، وهذا النظام في جانب منه على الأقل قابل للإدراك من قبلنا». وقد رفض ديفيز أثنتين من نقاط ســـوء الفهم الشـــائعة. يقـــول ديفيز بأن «الفكرة القائلة بأن نظرية كل شـــيء ســـتُظهر أن هذا العالم هو العالم المتســـق الوحيد منطقياً «هي فكـــرة خاطئة برهانياً»، لأنه لا يوجد أي دليل على أن العالم ضروري من الناحية المنطقية، وفي الحقيقة من الممكن تخيل وجود عالـــم بديل متســـق منطقياً». ثانيـــاً، يقول: «من الهراء بكل مـــا للكلمة من معنى» افتراض أن قوانين الفيزياء هي قوانينا وليســـت قوانين الطبيعة. سوف لن يصدق علمـــاء الفيزيـــاء أن قانون نيوتن للجاذبية هو صناعـــة ثقافية. وهو يصر على أن قوانين الطبيعة هي «موجودة واقعياً»، وعملنا هو إكتشافها وليس صنعها.

يلفت ديفيـــز الانتباه إلى حقيقة أن قوانين الطبيعة التي تحكم الظواهر لم يتم اســـتخلاصها من خلال الملاحظة المباشـــرة، وإنما تم اســـتخلاصها من التجارب والحسابات الرياضية. القوانين كتبت بشفرة الكون بحيث أن على العلماء التنقيب لفك «رسالة الطبيعة، رســـالة الله وليست رسالتنا». السؤال المُلح كما يقول ديفيز ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

- من أين جاءت قوانين الفيزياء؟
- لماذا لدينا هذه القوانين وليس حزمة أخرى من القوانين؟
- كيف لنا أن نمتلك مجموعة من القوانين التي تحول غازات ساكنة إلى حياة ووعي، وذكاء؟

هذه القوانين «تبدو مبدعة ومحكمة كما يقول بعض المعلقين، ومنها نشأت الحياة والوعي». ويخلص ديفيز إلى أن هذه «الطبيعة المفتعلة للوجود الفيزيائي بالنسبة لي مجرد مُعطى، وهي تشير إلى معنى أعمق للوجود». وهذه الكلمات من قبيل الغاية والتصميم -كما يقول ديفيز- تبين بنحو غير كامل ما عليه الكون، «ولكن لا بد أنها تحكي عن شيء ما، ولا شك في ذلك مطلقاً»[1].

في كلمته في حفل تمبلتون لاحظ جون بارو، بأن التعقيد غير المتناهي والبنية الرائعة للكون محكومة بقوانين قليلة بسيطة متماثلة وواضحة. في الحقيقة، «هناك معادلات رياضية، تتمايل على الورق، تخبرنا كيف يسلك هذا الكون بأسره». على غرار ديفيز، رفض بارو فكرة أن نظام الكون تم فرضه من عقولنا. وعلاوة على ذلك، فإن «الانتخاب الطبيعي لا يتطلب فهم الجسيمات الأولية quarks والثقوب السوداء التي تعمل من أجل بقاءنا على قيد الحياة وتكاثرنا».

يلاحظ بارو أن هناك في تاريخ العلم نظريات جديدة توسع أو تعيد صياغة نظريات قديمة. على الرغم من أن نظرية نيوتن للميكانيكا والجاذبية قد تم استبدالها بنظرية آينشتين وسيعقبها نظرية أخرى في المستقبل، لكن بعد ألف

(1) Paul Davies, Templeton Prize Address, May 1995, http://aca. mq.edu.au/PaulDavies/prize_address.htm. See also Davies's "Where Do the Laws of Physics Come From?" (2006), http://www.ctnsstars.org/conferences/papers/Wheredothelawsofphysicscomefrom.doc.

ســـنة ما زال المهندســـون حالياً يعتمدون على نظريات نيوتـــن. وبالمثل -كما يقول بارو- فإن التصورات الدينية عن الكون تستخدم التشبيهات والتقريب إلى الأذهان للمساعدة في فهم الأمور النهائية، «إنها ليس الحقيقة الكاملة، ولكن ذلك لا يمنع من كونها جزءاً من الحقيقة»[1].

(1) John Barrow, Templeton Prize Address, March 15, 2006,http://www.templetonprize.org/barrow_statement.html.

صانع القوانين الإلهي
The Divine Lawmaker

قلة من الفلاسفة كتبوا عن المصدر الإلهي لقوانين الطبيعة. في كتابه «الصانع اللاهوتي: محاضرات في الاستقراء، قوانين الطبيعة، وجود الإله»، أدعى الفيلسوف الأكسفوردي جون فوستر John Foster وجود اطرادات regularities في الطبيعة، ورغم قدرتنا على وصفها، إلا أن أفضل من يفسرها هو العقل الإلهي. إذا كنت تقبل فكرة وجود قوانين، فلا بد أن يكون هناك اطراد في الكون. من هو الفاعل (أو الفاعلين) الذي قام بذلك؟ يرى فوستر أن الخيار التوحيدي هو الخيار الوحيد الجدِّي كمصدر، ولذلك «فإن هناك ما يبرر الاستنتاج بنحو عقلاني بأن الإله -إله الوحدانية- هو الذي خلق القوانين من خلال فرضه الاطرادات على العالم بوصفها اطرادات». وحتى لو كنت تنكر وجود قوانين، فإن هناك ما يؤيد تفسير الاطرادات استناداً إلى الله»[1].

في رده على نقد دوكنز لحجته في الغائية، قدم سوينبيرن رؤية مشابهة: «ما هو قانون الطبيعة؟ (وهذه مسألة لم تواجه أيٍّ من نُقَّادي). أن تقول بأن هناك قانوناً طبيعياً هو أن تقول أن كل الأجسام تسلك بنحو معين (مثال: تنجذب إلى بعضها البعض وفقاً لمعادلة معينة)، وهذا بالنسبة لي كأنك تقول أن كل جسم في الطبيعة الضرورية يتصرف بهذه الطريقة (مثال: أن يجذب كل جسم ما في طريقه)، ولعله أكثر بساطة أن نقول أن هذا التناغم مصدره كيان واحد جعل هذه الأجسام تسلك

(1) John Foster, The Divine Lawmaker: Lectures on Induction, Laws of Nature and the Existence of God (Oxford: Clarendon, 2004), 160.

بهـذه الطريقة بدلاً من إفتراض أن كل الأجسـام تتصـرف بطريقة معينة بحكم حقيقة نهائية عمياء»[1].

الحجة المركزية لسـوينبرن هو أن الإله الشخصي مع صفاته التقليدية التي له يقدم لنا شـرحاً أفضل لعمل قوانين الطبيعة. رفض ريتشـارد دوكنز هذه الحجة على أساس أن الإله كحل هو معقد جداً لشرح الكون وقوانينه. هذا الكلام صدمني باعتباره شـيئاً غريباً أن تقول ذلك عن تصور كائن روحي على كل شيء قدير. ما هو المعقد في فكرة الإله كامل القدرة وكامل المعرفة، وهي الفكرة التي لبسـاطتها تم إستيعابها من قبل أتباع الأديان الثلاثة العظيمة: اليهودية والمسيحية والإسلام؟ وقد علق بلانتينغا مؤخراً على كلام دوكنز، بالإشـارة إلى أنه وفقاً لتعريف دوكنز الخاص، الإله بسـيط -ليس معقد- لأنه روح، وليس جسـماً مادياً، وبالتالي ليس له أجزاء.

وبالعودة إلى مثال التلفون الفضائي الذي طرحته في الفصل السـابق، نجد أن قوانين الطبيعة تمثل مشكلة للملحدين لأن صوت العقلانية يُسمع من خلال آليات المادة mechanisms of matter. كتب بول ديفيز «العلم يقوم على فرضية أن الكون عقلاني ومنطقي على كافة المسـتويات». وديفيز هو أكثر مفسـري العلم الحديث تأثيراً في العصر الراهن، كتب قائلاً «يزعم الملحدون أن قوانين الطبيعة توجد دون منطـق، وأن الكون مناف للعقـل. وأنا كعالم، أجد صعوبة في قبول ذلك. يجب أن يكون هناك أساس عقلاني غير متغير يقوم عليه هذا الكون المنظم والمنطقي»[2].

(1) Richard Swinburne, “Design Defended,” Think (Spring 2004): 14.
(2) Paul Davies, “What Happened Before the Big Bang?” in God for the 21st Century, ed. Russell Stannard (Philadelphia: Templeton Foundation Press, 2000),

هؤلاء العلماء الذين يشيرون إلى عقل الإله لا يقدمون مجرد سلسلة من الحجج أو عملية استدلال منطقية. ولكنهم يقدمون رؤية للواقع تنبثق من جوهر تصورات العلم الحديث وتفرض نفسها على الذهن العقلاني. وهي الرؤية التي أجد شخصياً أنها مقنعة ولا يمكن دحضها.

الفصل السـادس

هل عرف الكون أننا قادمون؟

Did the Univers Know We Were Coming ?

هل عرف الكون أننا قادمون؟
Did the Univers Know We Were Coming ?

تخيَّــل أنك دخلت إلى غرفة قي الفندق الذي تســكن فيه فــي رحلتك المقبلة، ووجدت أن جهاز التســجيل الموجود بجانب السرير يعزف المعزوفة الموسيقية التي تحبها، ووجدت أن اللوحة المعلقة أعلى الســرير تشبه تماماً اللوحة الموجودة أعلى المدفأة في بيتك، والغرفة ينبعث منها العطر الذي تفضله، فقمت بهز رأسك متعجباً وألقيت حقائبك على الأرض. بعد ذلك أتجهت إلى الثلاجة الصغيرة الموجودة في الغرفــة وفتحت بابهــا وحدقت في محتوياتها فوجدت مشــروبك المفضل وقطعة الحلوى والكعكة التي تحبهــا، بل وجدت قنينة من نوع المياه الذي تفضله. بعدها، أدرت ظهــرك للثلاجة ونظــرت إلى المنضدة الموجودة فــي الغرفة فوجدت عليها الكتــاب الجديد لمؤلفك المفضل، وعندما ألقيت نظــرة في الحمام حيث تصطف على الرف مواد الاعتناء بالبشرة وجدت أن جميعها من النوع الذي تستخدمه في العادة، وعندما قمت بتشغيل التلفزيون وجدت القناة التلفزيونية التي تفضلها.

مع كل شي تشاهده في الغرفة تجد أنك أقل ميلاً إلى التفكير بأن كل ما حدث كان من باب الصدفة، أليس الأمر كذلك؟ وقد تتسائل كيف استطاع مدير الفندق أن يعــرف كل هذه الأمور التفصيليــة عنك. وقد تتعجب من هذه الإعداد الدقيق، حتى أنك تفكر مجدداً كم سيكلفك كل ذلك من مبالغ مالية، ولكنك بالتأكيد سوف تميل إلى الاعتقاد بأن شخصاً ما كان يعرف بقدومك.

كوننا الدقيق

Our Finely Tuned Universe

سيناريو هذه العطلة خارق، وهو يوازي حجة التوافق Fine-tuning Argument. الشهرة المعاصرة لهذه الحجة سلطت الضوء على بعد جديد لقوانين الطبيعة. كتب عالم الفيزياء فريمن دايسون Ferrman Dyson قائلاً « كلما قمت بفحص هذا الكون ودرست تفاصيل تكوينه، وجدت دليلاً أضافياً على أن الكون يعرف أننا قادمون»[1].

وبعبارة أخرى، يبدو أن قوانين الطبيعة صُنعت بطريقة تحرك العالم نحو نشأة الحياة. هذا هو المبدأ الأنثروبولوجي، الذي أصبح مشهوراً بفضل مفكرين من أمثال مارتن ريز Martin Rees، جون بارو John Barrow، وجون ليسلي John Leslie. لنأخذ أبسط قوانين الفيزياء كمثال على ذلك. لقد تم حساب أنه لو تغير جزء بسيط من الثوابت الأساسية في القوانين – وعلى سبيل المثال سرعة الضوء أو كتلة الإلكترون – فإنه لن يكون هناك كوكب قادر على توفير البيئة المناسبة لحياة الإنسان.

لقد تم تفسير هذه الدقة بطريقتين. بعض العلماء أعتبر أن هذه الدقة تدل على الصنع الإلهي، والبعض الأخر خمّنَ بأن كوننا هو كون من ضمن أكوان أخرى متعددة، والفرق هو أن كوننا هُيئ لكي يوفر الشروط اللازمة لحياة الإنسان. عملياً

(1) Freeman J. Dyson, Disturbing the Universe (New York: Harper & Row, 1979), Also cited in John Barrow and Frank Tipler, The Anthropic Cosmological Principle (Oxford: Clarendon, 1988), 318.

لــم يدع أي عالم معروف أن دقة الصنع كانت بنحو صرف نتيجة لعوامل الصدفة في هذا الكون.

في كتابه «العقول اللانهائية»، يجادل جون ليسلي -وهو من أعلام منظري المبدأ الأنثروبي- بأن إن دقة الصنع فُسِّــرت بشكل أفضل بواسطة القول بوجود تصميم إلهي. يقول ليسلي إنه ليس متعجباً من وجود حجج محددة لصالح حالات التوافق، بل من حقيقة أن هذه الحجج موجودة على نحو وافر (= يزيد على القدر المطلوب لنشــأة الحياة). «إذا كانت هناك أمور في الطبيعة تحدث بطريقة تثير الإعجاب، فإن هذه الأمور ســتُرى بنحو أفضل كأدلة لصالح الاعتقاد بإله» . وقدم ليســلي أمثلة على هذه الأمور:

١- مبدأ النســبية الخاصة الذي يجعل للقوى مثل القوة الألكترومغناطيســية تأثيــر غير متغير بغض النظر عن الزاويــة الصحيحية لتأثيرها على حركة الأجســام. هذا يجعل من شفرة الجينات تعمل، وكذلك الكواكب، وفي نفس الوقت تترابط فيما بينها عند الدوران.

٢- قوانين الكم تمنع الإلكترونات من التصاعد إلى الحالة الذرية.

٣- الطاقــة الإلكترومغناطيســية لها قوة واحدة تجعــل أكثر من عملية تحدث في وقت واحد، وهو ما يجعل النجوم تضيئ لمليارات الســنين، وهو ما يجعل تكــون الكربون في النجــوم ممكناً، كما يضمن عدم اســتبدال اللبتونات [1] بالجســيمات الذرية quarks، ويترتب عليه إستحالة تشكل الذرات. وهذا ما

(١) اللبتون هو جســيم أولي ومكون أساســي للمادة. أشــهر اللبتونات المعروفة هــو الالكترون والذي يحكم عمليات الكيمياء كلها لأنه موجود في أغلفة الذرات وترتبط به الخصائص الكيميائية كلها. وتوجد فئتين أساسيتين للبتونات: المشحونة منها (وتعرف أيضا بلبتونات شبيه - الإلكترون)، ومحايدة (المشهورة باسم نيترينو).

يحتم علـــى البروتونات أن لا تتحلل ســـريعاً ولا تصطدم مع بعضها البعض بقـــوة، وهو ما قد يؤدى إلى أن تصبح الكيمياء مســـتحيلة. كيف يمكن لقوة واحـــدة أن تلبي إحتياجات كثيرة ومختلفـــة، في حين يبدو أننا بحاجة لقوى عديدة لكل واحدة من هذه العمليات؟ [1]

(1) Leslie, Infinite Minds, 203–5.

نظرية الأكوان المتعددة هي في مقابل نظرية الصنع الإلهي (ومع ذلك سوف أحاول التدليل على أن وجود الأكوان المتعددة لن يلغي السؤال عن المصدر الإلهي).

عالم الكونيات مارتن ريس Martin Rees هو أحد أكبر مؤيدي فكرة الأكوان المتعددة. لاحظ ريس أن «أي كون مهيئ للحياة – وهو ما يمكن أن نسميه الكون الحيوي Biophilic universe– يجب أن يتم تعديله على نحو معين لكي تتوفر الشروط الأساسية لحياة أي نوع نعرفه. تتأثر النجوم الموجودة منذ القدم، والذرات المستقرة مثل الكربون والكربون والسليكون يمكن أن تجتمع في مركب معقد من الجزئيات ... ألخ – كل هذه الكائنات تتأثر بشكل دقيق بالقوانين الفيزيائية، وحجم ومعدل توسع الكون ومحتوياته»[1].

يقول ريس أنه يمكن تفسير ذلك من خلال فرضية وجود «أكوان» كثيرة، مع قوانين وثوابت فيزيائية مختلفة، وكوننا كجزء من مجموعة أكوان، حدث نتيجة لظهور تعقيد complexity ووعي consciousness. وإذا كان هذا هو الحال، فإن الدقة في الصنع لن تكون مصدر تعجب.

عرض ريس لأكثر صيغ فرضية الأكوان المتعددة تاثيراً، وهي فكرة «التمدد الأبدي»، وهي فكرة قدمها علماء الكون أندريه لنده Andrei Linde وأليكس فينكن Alex Vilenkin، ووفقاً لهذه الفكرة فإن الأكوان المتعددة نشأت عن إنفجارات

(1) Martin J. Rees, "Numerical Coincidences and 'Tuning' in Cosmology," Astrophysics and Space Science 285 (2003): 376.

عظيمـــة لكل من هـــذه الأكوان مع اختلاف في البعد الزمانـــي والمكاني من الكون الذي نعيش فيه.

تعتبر أطروحة الثقب الأسود لكل من آلان غوث Alan Guth، وديفيد هاريسون David Harrison، ولي ســـمولين Lee Smolin أن الأكوان نتجت عن ثقوب ســـوداء Black Holes على صورة مجالات زمكانية غير متواصلة mutually inaccessible. وأخيـــراً، أفترضـــت كل من ليزا رانـــدال Lisa Randall ورامان ســـاندرم Raman Sundrum أن هنـــاك أكواناً في أبعـــاد مكانية مختلفة قد تتفاعل أو لا تتفاعل مع بعضها البعض بفعل الجاذبية. أشـــار ريس إلى أن هـــذه الأفكار للأكوان المتعددة «تخمينية بشـــكل كبير»، وهي تتطلب وجود نظرية تصف باتساق فيزياء الكثافات العالية ultrahigh densities وتكوين الهيـــاكل configuration of structures وفـق أبعـــاد أضافية وهكـــذا دواليك. وواحدة مـــن هذه الأفكار فقـــط يمكن أن تكون صحيحـــة. ويضيـــف ريس «وفي الحقيقة يمكن ألا يكـــون أي منها كذلك: فهناك نظريات بديلة تقود إلى أن هناك كوناً واحداً»[1].

(1) Rees, “Numerical Coincidences and ‘Tuning’ in Cosmology,” 385.

نظرية البندقية متعددة الاتجهات

A Blunderbuss Theory

رفض كل من بول ديفيز Paul Davies وريتشارد سوينبيرن Richard Swinburne فكـرة الكون المتعدد. ديفيز، وهوعالـم فيزيائي وعالم كونيات، كتب «من الصحيح أن كل شـيئ في كونٍ لامتناهي يمكن أن يحدث سـوف يحدث»، ولكن هذا لا يعد تفسـيراً على الإطلاق. إذا أردنا أن نفهم لماذا يُعتبر الكون صديقاً لصالح نشـأة وبقاء الحياة، فإن ذلك لا يفيدنا عندما يقال أن كل الأكوان الممكنة موجودة. نظرية الأكوان المتعددة «مثل البندقية المتعددة الجوانب، فهي تفسـر كل شـيئ ولا تفسر شـيئاً»، ويعنـي ديفيز بذلك أنها ادعاء لا معنى لـه. إذا قلنا أن العالم وكل ما فيه جاء إلى حيز الوجود قبل خمس دقائق -بما في ذلك ذكرياتنا حول سنوات عديدة عشناها والأدلة على أحداث وقعت منذ آلاف السنين- فإن إدعاءنا هذا غير قابل للدحض، لأنه يفسر كل شيئ ولا يفسر شيئاً في وقتٍ واحد.

التفسـير العلمي الصحيح كما يقول ديفيز، عبارة عن رصاصة محددة الاتجاه. فكرة الأكوان المتعددة تسـتبدل كونـاً واقعياً منتظماً عقلانيـاً بمجمع لا متناهي من أكوان وتجعل عملية «التفسـير» لا معنى لها. سـوينبيرن كان قوياً في إزدرائه لتفسير الأكوان المتعددة: «إنه من الجنون إفتراض وجود مليارات الأكوان (المرتبطة سببياً) كمصادرة لتفسـير معالم كون واحد، ولكن عندما نفترض وجود إله واحد كمصادرة، فإن هذه المصادرة سوف تؤدي المهمة»[1].

(1) Paul Davies, “Universes Galore: Where Will It All End?” http:/ /aca.mq.edu.au/ PaulDavies/publications/chapters/Universesgalore.pdf.

ثلاثــة أمور يمكــن أن تقال عن حجة الكون الدقيــق. الأول: ثمة حقيقة صلبة تؤكــد بأننــا نعيش في كونٍ فيه قوانــين محددة وثوابت، وأن الحيــاة فيه لم تكن ممكنــة لو كانت بعض هــذه القوانين والثوابت مختلفة. الثانــي: حقيقة أن وجود القوانين الحالية والثوابت هي التي تســمح ببقاء الحياة لا تجيب على السؤال عن أصل الحياة. هذا ســؤال مختلف تماماً، كما سوف أحاول أن أبين، فهذه الشروط ضرورية لنشــأة الحياة ولكنها ليست كافية. الثالث: حقيقة أن من الممكن منطقياً أن تكــون هناك أكــوان متعددة مع قوانين الطبيعة الخاصة بهــا، لا تعني أن هذه الأكــوان موجــودة. حالياً لا يوجد دليل يؤيد فكرة الأكوان المتعددة، وســتظل هذه الفكرة مجرد فكرة جدلية.

وما هو مهم جداً هنا هو حقيقة أن فرضية وجود الأكوان المتعددة لا تفسر أصل وجــود قوانين الطبيعة. يعتبر مارتــن ريس Martin Rees أن فكرة الأكوان المتعددة التــي لها قوانينها الخاصة بها تطرح ســؤالاً حول القوانــين الكلية التي تحكم كل الأكوان، النظرية الشاملة التي تشبه قائد فرقة العزف الموسيقية. «القوانين الكلية التي تحكم الأكوان المتعددة ربما تسمح بوجود تفاوت بين الأكوان، فبعض ما نعتبره «قوانــين طبيعية» قد تكون -وفقاً لوجهة النظــر هذه- قوانين محلية متناغمة مع القوانين الكلية، ولكن القوانين المحلية وفقاً لهذه النظرية ليست ثابتة»[1].

سؤالنا عن كيفية تحكّم القوانين بالأكوان المتعددة يماثل سؤالنا عن أصل قوانين الطبيعة بشــكل عام. كتب بول ديفيز يقول إن «أنصار نظرية الأكوان المتعددة عادة مــا يكونون غامضين حول كيفية إختيار قيم المتغيرات parameter values في هذا المجمــع الكونــي. إذا كان هناك «قانون للقوانين» يحدد قيــم المتغيرات، فإن ذلك

(1) Rees, “Numerical Coincidences and ‘Tuning’ in Cosmology,” 386.

يعني أننا نحيل كل كون إلى الكون الأخر، وعندها نكون قد نقلنا المشكلة مرتبة إلى الأعلى، لماذا؟ أولاً لأننا بحاجة لتفسير من أين جاءت هذه القوانين»[1].

يقــول البعض أن القوانين حدثت عرضــاً كنتيجة للطريقة التي برد فيها الكون بعــد الإنفجار العظيم. ولكن كما أشــار ديفز، فإن هــذه الحوادث يمكن اعتبارها ظهــور ثانوي لقوانين عميقة تحكم مجمع الأكوان». مرة أخرى، حتى تطور قوانين الطبيعة والتغيرات على الثوابت تتبع قوانين معينة. «ونعود مرة أخرى إلى السؤال عن كيفية حدوث هذه القوانين العميقة. مهما أرجعنا إلى الوراء خصائص نشــأة الكون بكيفية معينة، فإن هذه النشأة لا بد أن تتبع قوانين قبلية محددة» .

ســواء أكان هناك أكوان متعددة أو لا، فإننا لابد أن نعود إلى الســؤال: من أين جاءت هذه القوانين؟ والتفسير الوحيد المقنع هنا هو العقل الإلهي.

(1) Davies, “Universes Galore: Where Will It All End?”

الفصل السابـــع

كيف حدثت الحياة؟

How did Life Go Live ?

كيف حدثت الحياة؟
How did Life Go Live?

عندما عرضت وسائل الأعلام لأول مرة خبر تحولي إلى التوحيد تم الاستشهاد بكلامي على أن أبحاث علماء الأحياء في الحمض النووي DNA أظهرت أن تركيبة الحمض النووي معقدة بطريقة يصعب معها تصديق الترتيبات اللازمة لحصول الحياة، وأنه لابد أن يكون هناك ذكاء وراء هذه العملية. كتبت في السابق أن هناك مساحة متاحة لحجة التصميم لتفسير نشأة الحياة من المادة غير الحية، وخصوصاً إذا كانت هذه المادة تمتلك القدرة على إعادة إنتاج نفسها جينياً. وقلت أنه لا يوجد تفسير طبيعي شافي لهذه الظاهرة.

هذه التصريحات أثارت غضباً من النقاد الذين أدعوا أنني لم أكن على دراية بأحدث الاكتشافات في مجال التولد التلقائي[1] Abiogenesis . أدعى ريتشارد دوكنز أنني لجأت إلى «إله الفجوات» [2] God of the gaps. في مقدمتي الجديدة لطبعة عام ٢٠٠٥ من كتاب «الإله والفلسفة» قلت «إنني شخصياً مسرور لأن أصدقائي من علماء الأحياء أكدوا لي أن علماء الأحياء البكتيرية قادرون في الوقت الحالي على تقديم نظريات في التطور بخصوص المادة الأولى، وأن مجموعة

(١) عملية طبيعية من الحياة الناشئة عن مواد غير حية مثل مركب عضوي بسيط.

(٢) نوع من النقاش في علوم الإلهيات والذي يتم خلاله جعل الفراغات (النقص) في المعرفة العلمية دليلاً على وجود الإله. كما يمكن أن يرمز إلى نظرة إلى الإله مشتقة من الإيمان الديني الذي يقول أن كل ما يمكن تفسيره بعلم الإنسان ليس من اختصاص الإله، هذا يعني أن دور الإله يتحدد في الفجوات في التفسيرات العلمية للطبيعة. الفكرة تتضمن دمج بين التفسيرات الدينية مع التفسيرات العلمية. يمكن القول أنه كلما تمكن العلم من إعطاء شرح أدق للعالم قل دور الإله في هذا العالم.

مـــن هذه النظريات تتوافق مع الدلائـــل العلمية المؤكدة»[1]. ولكن يجب أن أنبه إلى أن الأعمال الحديثة التـــي رأيتها والتي تعكس وجهة نظر علماء الفيزياء في عمر الكون، تعطي وقتاً محدوداً لنظريات الأحياء البكيترية لوقوع ما يدعون.

هناك إعتبار أكثر أهمية يتمثل في التحدي الفلسفي الذي يواجه دراسات أصل الكون، إذ أن معظم دراسات أصل الحياة التي يقوم بها علماء الفيزياء لا تأخذ في الاعتبار إلا نادراً البعد الفلسفي في النتائج.

في المقابل، فإن الفلاســـفة لم يقولوا ســـوى القليل عن الطبيعة وأصل الحياة. الســـؤال الفلسفي الذي لم يتـــم الإجابة عليه في دراسات أصـــل الحيـــاة هو هذا: كيـــف يمكن لكـــونٍ ذو مـــادة لا عقـــل لهـــا أن تنتج كائنات لهـــا نهايات جوهرية Intrinsic ends، ولها قدرات على التكاثر، و«مشـــفرة كيمائياً» coded chemistry؟ هنـــا نحن لا نتعاطى مع علم الأحياء Biology، وإنما نتحدث عن مشـــكلة مختلفة تماماً.

(1) Freeman J. Dyson, Disturbing the Universe (New York: Harper &Row, 1979), 250. Also cited in John Barrow and Frank Tipler, The Anthropic Cosmological Principle (Oxford: Clarendon, 1988), 318.

الكائن العضوي الهادف
The Purpose-Driven Organism

دعونا ننظر أولا في طبيعة الحياة من وجهة نظر فلسفية. تمتلك المادة الحية هدفاً موروثاً أو نظاماً محدداً الغاية ليس موجوداً على الإطلاق في المادة التي جاءت منها. في واحدة من الأعمال الفلسفية القليلة التي كتبت حول الحياة، قدم ريتشارد كاميرون Richard Cameron تحليلاً مفيداً عن وجهة directedness الكائنات الحية. الكائن الحي كما يقول كاميرون غائي teleological، بمعنى أنه يملك نهايات أو أهداف أو غايات.

«علماء الأحياء المعاصرون وفلاسفة علم الأحياء، والعاملين في مجال «الحياة الاصطناعية»، كما يقول كاميرون «لم يأتوا حتى الآن ببيان مقنع لما ينبغي أن يكون حياً، وقد دافعت عن فكرة أن أرسطو يمكن أن يساعدنا في ملأ هذا الفراغ.... فأرسطو لم يدع أن الحياة والغائية متلازمان ببساطة بالصدفة، وإنما عرف الحياة باصطلاحات غائية، وأعتبر أن الغائية هي أمر أساسي لحياة الكائنات الحية»[1].

أصل التكاثر الذاتي هو المشكلة الرئيسية الثانية. ويلاحظ الفيلسوف المتميز جون هالدين John Haldane أن نظريات أصل الحياة «لا تقدم تفسيراً كافياً، لأنها تفترض مسبقاً وجود التكاثر الذاتي في مرحلة مبكرة، ولم يتبين أن هذا التكاثر يمكن أن يتم من خلال الوسائل الطبيعية من أصل مادي»[2].

(1) Richard Cameron, "Aristotle on the Animate: Problems and Prospects," Bios: Epistemological and Philosophical Foundation of Life Sciences, Rome, February 23–24, 2006.

(2) John Haldane, "Preface to the Second Edition," in Atheism and Theism (Great Debates in Philosophy), J. J. C. Smart and John Haldane (Oxford: Blackwell, 2003), 224.

يلخص ديفيد كونواي هذين المأزقين الفلسفيين في رده على إدعاء هيوم بأن نظام الحفاظ على الحياة في الكون لم يصمم من قبل أي شكل من أشكال الذكاء. التحدي الأول هو في تقديم تفسير مادي «للانبثاق الأول للمادة الحية من مادة غير حية». كون المادة حية يعني أن لها نظاماً غائياً، وهو غير متحقق فيما هو قبلها. أما التحدي الثاني فهو تقديم تفسير مادي «لإنبثاق الحياة من الأشكال الأولية المتقدمة، التي كانت غير قادرة على التكاثر ذاتياً، وإنتاج كائنات حية قادرة على التكاثر. من دون وجود مثل هذه القدرة، فإنه لم يكن ممكناً لهذه الأنواع المختلفة أن تنبثق من خلال طفرة عشوائية وانتقاء طبيعي.

وفقا لذلك، فإن هذه الآلية لا يمكن الاحتجاج بها في أي تفسير لكيفية إنبثاق صور حياة تتوفر فيها هذه القدرة من أشياء تفتقر لذلك. ويخلص كونواي إلى أن الظواهر البيولوجية هذه «تزودنا بالسبب الذي يجعلنا نشك في أي تبرير ممكن لانبثاق صور الحياة من أساس مادي، وهو ما يجعلنا نلجأ مرة أخرى إلى الحجة الغائية»[1].

(1) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 125.220

تحدي تصوري عميق
A Deep Conceptual Challenge

يتعلق البعد الفلسفي الثالث لأصل الحياة بأصل تشفير coding ومعالجة المعلومات الذي هو أمر أساسي لجميع أشكال الحياة. أفضل وصف لذلك، قُدم من قبل عالم الرياضيات ديفيد بيرلينسكي David Berlinski، الذي يشير إلى أن هناك دراما غنية تحيط بفهمنا الحالي للخلية.

تتكرر الرسالة الوراثية في الحمض النووي في النسخ المتماثلة، ثم يتم نسخها من الحمض النووي إلى الحمض النووي الريبوزي[1] RNA . وبعد هذا تتم ترجمة الرسالة ونقلها من الحمض النووي الريبوزي RNA إلى الأحماض الأمينية، وأخيراً يتم تجميع الأحماض الأمينية إلى بروتينات. يتم التنسيق بين الهيكلين الأساسيين لمعالجة المعلومات والنشاط الكيميائي في الخلية عن طريق شفرة وراثية عالمية.

الطبيعة الرائعة لهذه الظاهرة تصبح واضحة عندما نسلط الضوء على كلمة «شفرة». يقول بيرلنسكي: «الشفرة في حد ذاتها مألوفة بحدٍّ كاف، فهي عبارة عن مخطط إعتباطي arbitrary أو نظام للربط بين أثنين من الموضوعات المنفصلة. لنأخذ مثالاً مألوفاً، فشيفرة مورس Morse code على سبيل المثال تنسق النقاط والشرطات مع الأحرف الأبجدية . وعندما نستخدم كلمة «إعتباطي»، فإننا نريد

(١) عبارة عن بوليمر حمضي نووي مؤلف من ارتباط تكافئي لمجموعة من النيكليوتيدات. تم تكوين الحمض النووي الريبيوزي عن طريق عملية النسخ الوراثة اعتماداً على بنية المورثات في الدنا بوساطة أنزيمات تدعى أنزيمات بلمرة RNA ثم تجرى عليها تعديلات أخرى بوساطة انزيمات أخرى. تعمل الرنا كقالب لترجمة الجينات إلى بروتينات، وأيضا كناقل للحموض الأمينية إلى الريبوسومات لتشكيل البروتينات، وأيضا هو مكون أساسي في بنية الريبوسوم.

بذلك التفريق بين الشفرة والربط الفيزيائي الصرف بين موضوعين. لنأخذ مثالاً ملموساً، فشيفرة مورس Morse code على سبيل المثال تنسق النقاط والشرطات مع الأحرف الأبجدية [1]، وعندما نستخدم كلمة إعتباطي فإننا نريد بذلك التفريق بين الشفرة وبين الربط الفيزيائي بين جسمين، وعندما نقول أن الشفرة تتضمن مخططاً أو رسماً فإننا نريد أن نؤكد على مفهوم الشيفرة باللغة الرياضية، وعندما نشير إلى أن الرموز تعكس الارتباط على نحو ما فإننا فإننا نعيد تصور الشفرة إلى استخداماتها البشرية.»

هذا بدوره يقودنا إلى السؤال الكبير: «هل يمكن أن نفسر أصول نظام التشفير الكيمائي بطريقة لا تجعلنا بحاجة إلى اللجوء إلى تفسير هذه الشفرات واللغات وأنظمة التواصل، على أساس الكلمات الرائجة في عالم المادة؟ [2] كارل وويس Carl Woese وهو أحد رواد دراسات أصل الحياة، يلفت النظر إلى الطبيعة الفلسفية الغامضة لهذه الظاهرة، فقد كتب في مجلة RNA قائلاً « الحقائق التشفيرية والميكانيكية والتطورية لهذه المسألة تصبح مسائل منفصلة. فكرة تعبير الجين gene expression، على غرار فكرة تكرار الجين gene replication القائمة على مبدأ فيزيائي لم تعد صحيحة. ليس فقط لأنه لا وجود لمبدأ فيزيائي، ولكن وجود الشفرة هو مجرد لغز. قواعد التشفير معروفة. ولكنها لا توفر أية إشارة لماذا توجد الشفرة ولماذا توجد ألية التشفير على النحو التي هي عليه. يعترف وويس بأننا لا نعرف أي شيئ عن هذا النظام. «أصل الترجمة، قبل أن تصبح

(١) شفرة موريس هي شفرة حرفية من اجل إرسال المعلومات التلغرافية، باستخدام تتابعات قياسية من عناصر طويلة وقصيرة تعبر عن الحروف والارقام والعلامات والحروف الخاصة الموجودة في الرسالة. العناصر الطويلة والقصيرة من الممكن ان يتم تكوينها عن طريق صوت، علامات أو فتح وغلق المفاتح وهما مشهورين على انهم نقاط وعلامات مائلة.

(2) David Berlinski, “On the Origins of Life,” Commentary (February 2006): 25, 30

ألية صحيحة لفك الشـــفرة، صارت الآن جزءاً من الماضي، ولا أريد أن أدخل في تخمينـــات عن عملية صعود نجمها، كما لا أريد أن أدخل في تخمينات حول أصل نظام الشحن tRNA أو الشفرة الجينية Q[1] .

يسلط بول ديفيز الضوء على المشكلة نفسها. ويلاحظ ديفيز أن معظم نظريات النشـــوء الحيوي ركزت على كيمياء الحيـــاة Chemistry of life، ولكن «الحياة هي أكبر من مجرد مجمع للتفاعلات الكيميائية، فالخلية هي أيضاً مكان لنظام تخزين ومعالجة وتكرار المعلومات. نحن بحاجة لشرح أصل هذه المعلومات، والطريقة التي تتـــم بها معالجة المعلومات، وهو ما يؤكد على أن «الجين ليس ســـوى مجموعة من الأوامر الترميزية بالإضافة إلى أنه وصفة لتصنيع البروتينات». الأهم من ذلك، أن هذه التعليمات الوراثية ليست من نوع المعلومات التي تجدها في الديناميكا الحرارية والميكانيكا الإحصائية، وإنما تشـــكل معلومات دلاليـــة semantic، information، وبعبـــارة أخرى، لديها معنى محدد، وهذه التعليمات يمكن أن تكون فعالة فقط في بيئة قادرة على تأويل المعنى بالشـــفرة الوراثية». وعندها يبرز السؤال الأصلي إلى الواجهـــة وهو «كيف يمكن للمعلومات ذات المعنى أو الدلالة أن تنبثق بصورة فورية مـــن مجموعة من الجزئيات غير العاقلة الخاضعـــة لقوى عمياء وفاقدة الهدف، وهذا ما يمثل تحدياً فكريا عميقاً»[2].

(1) Carl Woese, “Translation: In Retrospect and Prospect,” RNA (2001): 1061, 1056, 1064.

(2) Paul Davies, “The Origin of Life II: How Did It Begin?” http://aca. mq.edu.au/PaulDavies/publications/papers/OriginsOfLife_II.pdf.

الرؤية من خلال زجاج معتم
Through A Glass Darkly

في الحقيقة، لدى علماء الأحياء البكتيرية نظريات تطور تفسر كيف نشأت المادة الأولى، ولكنهم يتعاملون مع جوانب مختلفة من المشكلة. إنهم يتعاملون مع تفاعل المواد الكيميائية فيما بينها، في حين أن سؤالنا هو حول الكيفية التي يكون بها شيئ ما متحرك بشكل جوهري نحو غاية محددة، وكيف يُدار أمر المادة بآلية التشفير؟ لكن حتى على المستوى الخاص بهم، فإن علماء الأحياء البكتيرية لازالوا بعيدين جداً عن جواب محدد لهذه الأسئلة. لقد تم تسليط الضوء على هذا الموضوع بواسطة اثنين من أعلام الباحثين في أصل الحياة.

أندي نول Andy Knoll وهو أستاذ علم الأحياء في جامعة هارفارد ومؤلف كتاب «الحياة على كوكب ناشئ: أول ثلاثة مليارات سنة من الحياة» Life on a Young Planet: The First Three Billion Years of Life يقول: «إذا حاولنا تلخيص ما نعرفه عن التاريخ العميق للحياة على الأرض، عن أصل الحياة، عن مراحلها المتعددة التي أعطت فرصة لنشأة الأحياء، فإن علينا أن نعترف بأننا ننظر هنا من خلال زجاج معتم. نحن لا نعرف كيف بدأت الحياة على هذا الكوكب، ولا نعرف متى بدأت الحياة على وجه الدقة، ولا نعرف ما هي الظروف التي بدأت فيها»[1].

كتب رئيس الجمعية الدولية لدراسة أصل الحياة أنتونيو لازانو Antonio Lazcano في أحد التقارير قائلاً «هناك خاصية للحياة تبدو مؤكدة: ما

(1) Andy Knoll, PBS Nova interview, May 3, 2004.

كان للحياة أن توجد لولا وجود آلية جينية – آلية تستطيع تخزين ونقل معلوماتها الذرية التي يمكن أن تتغير بمرور الوقت ... ليس واضحاً بشكل دقيق كيف نشأت الآلية الأولى للوراثة»، ويكمل قائلاً «في الحقيقة قد لا نكون قادرين على معرفة مسيرة الحياة على الأطلاق»[1].

أما بالنسبة لأصل التكاثر، فإن جون مادوكس John Maddox، وهو المحرر الفخري لمجلة «الطبيعة» Nature كتب قائلاً «السؤال الرئيسي هو متى (ثم كيف) تطور التكاثر الجنسي؟ على الرغم من مرور عقود من التخمين لازلنا لا نعرف»[2]. وأخيراً، يشير العالم جيرالد شرويدر Gerald Schroeder إلى أن وجود الظروف التي ساعدت على وجود الحياة لا تفسر كيف خرجت الحياة إلى الوجود. لقد أستمرت الحياة على الكوكب فقط بسبب توفر الظروف المناسبة التي وجهت المادة لإنتاج كائنات هادفة end-directed وقابلة للتكاثر».

كيف نفسر أصل الحياة؟ جورج والد George Wald الحائز على جائزة نوبل في علم الوظائف قال في إحدى المرات «لقد أخترنا أن نصدق المستحيل: أن الحياة نشأت فجاءة عن طريق الصدفة»، وفي السنوات اللاحقة، خلص جورج والد إلى أن العقل الأزلي الذي سماه مصفوفة الواقعية الفيزيائية matrix of physical reality التي يتكون منها الكون هي التي وهبت الحياة «كيف ذلك، وهناك إحتمالات أخرى في حين أننا في كون يمتلك خصائص مميزة وغريبة هي التي وهبت الحياة؟ لابد أن أعترف أنه بدا لي في الأونة الأخيرة أن كلا السؤالين متطابقين. هذا على فرض أن العقل، وبدلاً من أن يكون قد تطور من خلال الحياة، فإنه كان

(1) Antonio Lazcano, "The Origins of Life," Natural History (February 2006).
(2) John Maddox, What Remains to Be Discovered (New York: Touchstone, 1998), 252.

موجوداً على الدوام على شـــكل مصفوفة matrix تمثل مصدر الواقعية الفيزيائية، بحيـــث أن مكونات الواقعية الفيزيائية هي مكونات عقلية. العقل هو الذي يحتوي الكون الفيزيائي، وهو الذي وهب الحياة، وفي النهاية من خلاله وُجدت المخلوقات التي تعرف وتصنع: العلم والفن والتكنولوجيا»[1].

هذه هي الخلاصة. إن التفســـير المرضي الوحيد لأصل الحياة الهادفة القابلة للتكاثر كما رأينا هو العقل الذكي اللامتناهي.

(1) George Wald, "Life and Mind in the Universe," in Cosmos, Bios, Theos, ed. Henry Margenau and Roy Abraham Varghese (La Salle, IL: Open Court, 1992), 218.

الفصل الثامـــن

هل تأتي بعض الأشياء من لا شيئ؟
Did Something Come From Nothing

هل تأتي بعض الأشياء من لا شيئ؟
Did Something Come From Nothing

في أحد المشاهد الأخيرة من فيلم «صوت الموسيقى» The Sound of Music، تعترف ماريا التي لعبت دورها جولي أندرو وكابتن فون تراب الذي لعب دوره كريستوفر بلمر، يعترف كل منهما بحبه للأخر. كل منهما كان متفاجئاً بحب الأخر له، وتسألا كيف حدث ذلك الحب، ولكنهما على ثقة أنه جاء من مكان ما، وأخذا يغنيان «ليس هناك شيئ جاء من لا شيئ، لا شيئ يمكنه ذلك»[1].

ولكن هل هذا صحيح؟ أم يمكن أن يأتي شيئ من لا شيئ؟ وكيف يمكن أن يؤثر هذا السؤال على فهمنا للكيفية التي جاء بها الكون للوجود؟ هذا هو موضوع البحث العلمي الملتزم في مجال الكونيات، وكذلك فيما يخص الحجة الكونية في الفلسفة. في كتاب «فرضية الإلحاد»، عرّفت الحجة الكونية على أنها الحجة التي تبدأ من فرضية وجود الكون، وأقصد بالكون القائم الذي جاء إلى الوجود بسبب كائن آخر (أو ذاك الذي يمكن أن يكون سبباً لوجود بقية الكائنات).

(1) “Something Good,” music and lyrics by Richard Rodgers, 1965.

الكون النهائي
The Ultimate Universe

فـــي كتاب «فرضية الإلحـــاد» والكتابات الإلحادية الأخـــرى، جادلت بأن علينا أن نأخذ الكون نفســـه وأكثر قوانينه الأساســـية بإعتبارها أموراً نهائية. كل نظام تفسير يجب أن يبدأ من نقطة ما، ونقطة البداية هذه لا يمكن تفسيرها من داخل النظام. لذا لا محالة، أن كل الأنظمة من هذا القبيل تشتمل على الأقل على بعض الأساســيات التي لا تفُسّـــر في ذاتها. وهذه النتيجة تأتي من الطبيعة الأساســية للتفسير المتعلقة بالسؤال: لماذا يوجد شيء ما على الحالة التي هو عليها.

لنفترض على سبيل المثال، أننا لاحظنا أن الطلاء الأبيض الجديد الموجود فوق الموقد أصبح لونه بنياً متســـخاً، وبعد أن بحثنا عن الســـبب، أكتشـــفنا أن هذا ما يحدث عادة عند تفاعل مثل هذا النوع من الطلاء مع هذا النوع من المواقد. وتقدمنا خطوة ثانية في معرفة السبب، فعلمنا أن هذه الظاهرة يمكن تفسيرها على أساس إطرادات أوسع وأعمق لتركيب كيميائي: فحين يتفاعل الكبريت المتصاعد من لهب الموقد مع شـــيئ ما في الطلاء فإنه يعمل على تكوين مركب كيميائي، وأن هذا هو الســـبب في تغير لون الطلاء. وبعد البحث أكثر أكتشفنا وجود قذارة في مطبخنا، وهـــي إحدى النتائج التي لا تعد ولا تحصـــى المترتبة على نظرية الذرية-الجزيئية atomic-molecular theory لتكون المادة. هكذا هو الحال في عملية التفسير، ففي كل مرحلة نفترض بعض الأمور كحقيقة مسلمة، وهذا هو حال الأشياء.

فـــي مناظراتي مع المعتقدين بوجود إله، شـــاهدت كيـــف أنهم يصلون إلى هذه المرحلة التي لا مفر منها. مهما فكر الموحدون، لتفسير شيء ما، من خلال إرجاعه

إلـــى وجود وطبيعة الإله، فـــلا يمكنهم تفادي أخذ تلك الحقيقـــة بوصفها نهائية وجوهرية وتتجاوز التفســـير. ولا يمكنني رؤية كيف يمكن أن يعرف شيء ما ضمن كوننا، أو يُحدَس عقلانياً، بوصفه يشـــير إلى واقعية ما متعالية تقبع خلف، فوق، أو تتجاوز. إذاً لماذا لا نأخذ الكون ومعظم معالمه الأساســـية بوصفها هي الحقيقة النهائية.

الآن، معظم النقاشـــات التي عرضت لها فيما ســـبق لا تســـتند إلى التطورات الحادثـــة في مجـــال الكونيات. في الحقيقـــة، أن إثنين من كتبي الرئيســـية ضد اللاهوتيـــة كتبتهمـــا قبل وقت طويل مـــن ظهور نظرية الانفجـــار الكبير أو قبل عرض حجة التوافق Fine-tuning argument المنبثقة من فكرة الثوابت الفيزيائية Physical constants. ولكن مـــع بداية الثمانينات من القرن الماضي، بدأت بإعادة النظـــرة فـــي كلا الفكرتين. وقد أعترفـــت آنذاك بأن على الملحدين أن يشـــعروا بالإحبـــاط من الإحصاءات الكونية الحديثة، حيث بدا أن علماء الكونيات يقدمون الدليـــل العلمي على ما قاله القديس توما الأكويني من أنه يصعب على الفلســـفة إثباته، يعني أن للكون بداية.

في البدايـة

In The Beginning

عندمــا تعرفت كملحد على نظرية الانفجار الكبير، بدا لي أنها ســوف تحدث فارقاً كبيراً لأنها تقول بأن للكون بداية، وأول جملة في سفر التكوين تذكر أنه «في البداية خلق الإله السموات والأرض»، وكانت مرتبطة بما حدث في الكون.

طالما أن الكون يمكن أن لا يكون بلا نهاية فحســب، بل أيضاً بلا بداية، فيبقى من الســهل أن ترى وجوده (ومعظم معالمه الرئيسية) كحقائق مسلمة. وإذا لم يكن هنــاك أي ســبب يدعو للاعتقاد بأن للكون بداية، فإنــه لا حاجة لافتراض وجود شــيء ما خلق كل شــيء كمصادرة. ولكن نظرية الانفجار الكبير غيرت كل شيء. فإذا كان للكون بداية، فإنه يصبح من المشــروع تماماً، بل لا مفر من، إثارة السؤال عن الذي أنتج هذه البداية. وهذا ما يغير الوضع بشكل كامل.

وفــي نفس الوقت، توقعت أن الملحدين ســوف يرون أن فكــرة الانفجار الكبير تتطلب تفسيراً فيزيائياً، وهو ما قد لا يكون متاحاً للبشر. ولكن أعترف أيضاً بأن المعتقدين بالإله يمكن أن يرحبوا بشــكل منطقي بفكرة الانفجار الكبير باعتبارها تميل لتأكيد اعتقادهم المسبق بأنه «في البدء» الكون كان قد خُلق بواسطة الإله.

يبدو أن علماء الكونيات المعاصرين مرتبكين، كما هو حال الملحدين، في إمكانية أن تتضمن إكتشافاتهم نتائج لاهوتية. وكنتيجة لذلك، أبتكروا طرقاً للهروب تحافظ علــى الوضع الإلحادي القائم. ومن ضمن هذه الطــرق فكرة الأكوان المتعددة، أي العدد الهائل من الأكوان الذي نشــأ من أحداث متقلبة من الفراغ اللانهائي، أو ما يُسمى بالكون المكتفي بذاته حسب تعبير ستيفن هوكينز.

إلى أن تحين البداية

Until A Beginning Comes Along

كما ذكرت سابقاً، لم أجد أن فكرة الأكوان المتعددة مفيدة. وقلت أيضاً بأن التعاطي مع فرضية الأكوان المتعددة كمصادرة هو بديل يائس. إذا كان وجود كون واحد يحتاج إلى تفسير، فإن وجود أكوان يحتاج إلى تفسير أكبر بكثير، وعندها يتضاعف حجم المشكلة بمقدار عدد الأكوان الكلي. هذا الوضع يبدو مثل طفل صغير لا يصدق معلمه إدعاءه بأن الكلب أكل كراسة واجبه المدرسي، فيستبدل ذلك بالإدعاء بأن مجموعة من الكلاب أكلت كراسة واجبه.

أخذ ستيفن هوكنج إتجاهاً أخر في كتابه «ملخص لتاريخ الزمان». فقد كتب هوكنج قائلاً «إنه إذا كان بإمكاننا أن نفترض وجود بداية لهذا الكون فإنه بإمكاننا كذلك أن نفترض وجود خالق لهذا الكون. ولكن إذا كان الكون في الواقع مكتفي بذاته، وليس له حدود، فإنه لن يكون له بداية ولا نهاية، فهو موجود وانتهى الأمر. إذاً هل بقي مكان للخالق؟»[1]. في عرضي للكتاب بعدما تم نشره، أشرت إلى أن الاقتراح المُتضمن في نهاية السؤال لن يساعد إلا في اللجوء إلى غير الإلهي. وتناسقاً مع هذه الخاتمة، قلت: الذين ليسوا من علماء الفيزياء النظرية، سيكونون مجبرين على أن يردوا، مثل بعض الشخصيات في مسلسل برودواي (مسلسل فكاهي): «إذا لم يكن الانفجار الكبير هو البداية، فإنه سيظل كذلك على الأقل حتى تظهر بداية أخرى». بدا على هوكينج على الأقل شيء من التعاطف مع هذا

(1) Stephen Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, 1988), 174.

الرد، حيث قال «إن تمدُّد الكون لن يمنع من وجود الخالق، ولكنه سوف يزيد فقط من الوقت اللازم لإنجاز عمله»[١].

كتب هوكينز ايضاً قائلاً: «قد يقول قائل أن الزمان بدأ مع الانفجار الكبير، وهذا ببساطة يعني أن الزمان قبل الانفجار الكبير لا يمكن تحديده»[٢].

استنتجت من هذا النقاش أنه حتى لو اتفقنا على أن الكون بدأ مع الانفجار الكبير فإن الفيزياء يجب أن تظل لاأدرية بشكل قاطع، فمن المستحيل من الناحية الفيزيائية إكتشاف من الذي سبب الانفجار الكبير. من المؤكد أن الإيحاء بأن الكون المتغير باستمرار في مقابل التصرف في الكون الثابت الخامل إلى الأبد يحدث فارقاً في المناقشة. لكن المغزى من القصة في نهاية المطاف هو أن القضايا المطروحة قضايا فلسفية وليست قضايا علمية، وهو ما يعيدنا إلى الحجة الكونية.

(1) Antony Flew, “Stephen Hawking and the Mind of God” (1996), http://www.infi dels.org/library/modern/antony_fl ew/hawking.html.
(2) Hawking, A Brief History of Time, 9.

شيء ما أكبر من أن يفسره العلم

Something Too Big For Science To Explain

ديفيد هيوم هو الناقد الفلسفي الأساسي للحجة الكونية لوجود الإله. وعلى الرغم من أنني أتفقت مع حجج هيوم في كتبي السابقة، إلا أنني بدأت في التعبير عن شكوكي حول منهجه. على سبيل المثال، كنت قد أشرت في مقال في كتاب تذكاري للفيلسوف تيرينس بينلهم Terence Penelhum أن بعض فرضيات تفكير هيوم أسفرت عن أخطاء قاتلة. وهذه الأخطاء تشمل أطروحته في أن ما نسميه «أسباباً» ليست سوى نوع من «تداعي المعاني» أو الافتقار لمثل هذا التداعي. قلت أن أصل - أو على الأقل التحقق من صحة - تصوراتنا السببية، والأسس التي يفترض أن تبنى عليها معارفنا السببية، تستند إلى وفرة وتكرار النشاط التجريبي لمخلوقات مكونة من لحم ودم، وفاعلة في عالم العقل-المستقل mind -independent world (تجربة محاولة سحب ودفع أشياء، والنجاح في سحب أو دفع بعضها وعدم النجاح مع البعض الأخر، وتجربة التساؤل ماذا سيحدث لو»، وماذا عن التجريب وبالتالي الإكتشاف من خلال التجربة «ماذا يحدث عندما»). يبدو لي الأمر، أن الخبرة التجريبية تتمثل في أننا كفاعلين نتعرف، ونطبق، ونصحح فكرة السبب والمسبب، ونحدد ماذا نعني بمصطلح ضروري ومصطلح مستحيل. توصلت في النهاية إلى أن محاولة هيوم الخيالية لن توفر لنا بوصلة لتحديد معانى للسبب والمسبب وقوانين الطبيعة»[1].

(1) Antony Flew, "The Legitimation of Factual Necessity," in Faith, Scepticism and Personal Identity, ed. J. J. MacIntosh and H. A. Meynell (Alberta: University of Calgary Press, 1994), 111–17.

ولكن فـــي كتاب ديفيد كونواي «إعادة اكتشـــاف الحكمـــة»، وطبعة عام ٢٠٠٤ من كتاب ريتشـــارد ســـوينبيرن «وجود الإله» وجدت ردوداً متفاعلة من نقد هيوم (وكانـــت) للحجة الكونية. تناول كونواي بشـــكل منهجي كل اعتراضات هيوم.على ســـبيل المثال، يعتقد هيوم أنه لا يوجد سبب لوجود أي سلسلة من الكائنات المادية وراء مجموع كل عضو من أعضاء هذه السلســـلة. إذا كانت هناك سلسلة لا بداية لهـــا لكائنات غيـــر ضرورية الوجود، فإن ذلك يعد ســـبباً كافياً للكون ككل. رفض كونواي هذا الاعتراض على أســـاس أن «التفسيرات السببية لأجزاءٍ من –من هذا القبيل– بلغة الأجزاء الأخرى، لا يمكن أن تضيف شيئاً إلى التفسير السببي للكل، إذا كانـــت المفردات المذكورة كأســـباب هي مفردات يحتـــاج وجودها في ذاته إلى تفســـير ســـببي» . لنفترض أن هناك فيروس كمبيوتر قادر على تكرار نفســـه في أجهزة كمبيوتر متصلة بشـــبكة. حقيقة أن ملايين الكمبيوترات المرتبطة بالشبكة قد أصيبت بالفيروس، لا يفسر بذاته وجود فيروس يكرر نفسه.

وفيما يتعلق بحجة هيوم ذاتها، كتب سوينبيرن:

«السلسلة اللانهائية ككل لن تقدم لنا تفسيراً على الإطلاق، لأنه لن يكون هناك أسباب من أعضاء السلسلة تقع خارج هذه السلسلة. في هذه الحالة، سيكون وجود الكون على مر الزمن اللانهائي حقيقة قاهرة متعذرة التفسير. سيكون هناك تفسيراً (بلغة القوانين) للســـؤال: لماذا يستمر موجود ما بالوجود؟ ولكن ما سيتعذر تفسيره هو اســـتمرار الكون في الوجود في الزمـــان اللامتناهي. وجود الكون المادي المعقد عبر زمن متناهي أو لا متناهي «أكبر بكثير» من قدرة العلم على التفسير»[1].

(1) Richard Swinburne, The Existence of God (Oxford: Clarendon, 2004), 142.

الحاجة إلى عنصر إبداعي

The Need For A Creative Factor

إذا كان ردنـــا على نقد هيوم كافياً، يصبح من الممكن تطبيق الحجة الكونية في ســـياق علم الكونيات الحديث. يجادل ســـوينبيرن بأننا يمكن أن نفســـر الأوضـاع state of affairs فقـــط بلغـــة أوضاع أخرى. القوانين بحد ذاتها غير قادرة بشـــكل كافي على تفسير هذه الأوضاع، وكتب سيونبرن يقول «إذا لم يكن لدينا قوانين في بدايـــة الكون لأنه لم يكن هناك أوضاع قبل ذلك فإنه لا يمكننا تفســـير الكون»[1]. إذا كان هناك قانون معقول لتفسير بداية الكون، فلا بد أن يقول لنا شيئاً ما مثل «الفراغ المكاني يقود بالضرورة لظهور الطاقة – المادة». وهنا «الفراغ المكاني» هو ليس عدماً بقدر ما هو «مفردة مُعرّفة»، شيء ما موجود هناك. هذا الاعتماد على القوانـــين للحصول على الكون الذي بدأ من «الفراغ المكاني» يطرح أيضاً ســـؤالاً: كيـــف أن الطاقة – المادة matter-energy نتجت في الزمن الصفري t0 وليس في زمن أخر.

أظهر فيلسوف فلسفة العلم جون ليزلي John Leslie أن أياً من التكهنات الكونية المألوفة اليـوم لا يمنع من احتـمال وجود الخالق. وقد تكهن عدد من علماء الكون بأن الكون نشـــأ من «العدم». في عام ١٩٧٣، وضع إدوارد تريون Edward Tryon نظريـــة مفادها أن الكون كان يتذبذب في فراغ في فضاء أكبر. وجادل ليزلي بأن الطاقة الكلية للكون كانت صفراً، لأن الجاذبية التي تمسك طاقة الكون هي كمية سلبية في معادلات الفيزياء.

(1) Richard Swinburne, “The Limits of Explanation,” in Explanation and Its Limits, ed. Dudley Knowles (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), 178–79.

باستخدام نهج آخر، تكهن كل من جيم هارتل Jim Hartle، وستيفن هوكينغ Stephen Hawking، وأليكس فيلكن Alex Vilenkin بأن الكون الكمي-المتذبذب quantum-fluctuated جاء من العدم. «العدم» عبارة عن حالة خاصة من الرغوة الزمكانية الفوضوية مع إرتفاع خيالي في كثافة الطاقة. تكهن أخر (من هوكينغ) يقول «إن الوقت يصبح أكثر فأكثر مشابه للمكان في الأوقات الأولى من الانفجار الكبير».

يعتقد ليسلي أن هذه التكهنات لا علاقة لها بالموضوع، ويقول «بغض النظر عن كيفية وصفك للكون باعتباره موجوداً منذ الأزل، أو باعتباره قد انتظم من خارج الزمان والمكان، أو وُجد في الفضاء من دون زمان، أو أنه بدأ بشكل كمي ضبابي حيث لم تكن هناك نقطة بداية، أو أنه نشأ عندما كانت الطاقة الكلية صفراً- فإن الناس الذين يرون أن المشكلة في حدوث وجود هائل نتج من شيئ ما بدلاً من حدوثه من لا شيئ، سوف يكونون أقل ميلاً إلى أن المشكلة قد حُلت» .

إذا كانت لديك معادلة تحسب بدقة إحتمال وجود شيئ من الفراغ فإنه سوف يظل عليك أن تسأل لماذا تنطبق هذه المعادلة في هذه الحالة بالذات. في الحقيقة، لاحظ هوكنج أنه يجب علينا أن نُدخل على المعادلات عنصر إبداعي.

في مقابلة بعد وقت قصير من نشر كتابه «موجز في تاريخ الزمان»، أقر هوكينج بأن نموذجه ليس له أي تأثير على وجود الإله. عندما نقول بأن قوانين الفيزياء هي التي حددت كيف بدأ الكون، فكأننا نقول أن الإله لم يختر «أن يسلك الكون بصورة اعتباطية لا نفهمها. ولكنها لا تقول شيئاً عن أن الإله موجود أو غير موجود- فقط تقول أنه ليس اعتباطياً»[٢].

(1) Richard Swinburne, “The Limits of Explanation,” in Explanation and Its Limits, ed. Dudley Knowles (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), 178–79.
(2) John Leslie, Infi nite Minds (Oxford: Clarendon, 2001), 194–95.

تم إعـــادة صياغة الحجة بلغـــة كونية حديثة. ولكن ليســـلي وجد أن ذلك غير مرضي. لاحظ ليسلي أن بعض الناس يدعون بأن وجود الكون في أي لحظة معينة يمكن تفســـيره على أســـاس حقيقة أنه وجد قبل ذلك الوقت وهلم جراً إلى ما لا نهايـــة. وهناك علماء فيزياء يعتقدون بأن الكون وجد خلال زمن لا نهائي، إما من خلال سلسلة من الانفجارات أو كجزء من حقيقة التمدد الأبدي الذي أوجد أكوان الانفجار الكبير. في حين أن أخرين يقولون أن الكون وجد من زمن محدود بطريقة حساب معينة، ولكنه وُجد من زمن لا متناهي بطريقة حساب أخرى.

ورداً على هذه الأراء، أكد ليسلي على «أن وجود سلسلة لا متناهية من الأحداث الماضية لا يمكن أن يُعد تفسيراً ذاتياً حين يتم تفسير كل مرحلة من خلال المرحلة التي تســـبقها». «إذا كانت هناك سلسلة من كتب الهندسة التي نعتقد بأن كل منها نســـخ مما ســـبقه، فنحن بذلك نظل نحتاج إلى إجابة مقنعة عن سبب وجود هذه الكتب من الأســـاس، فالسلسلة بأكملها تحتاج إلى تفسير». وأضاف ليسلي قائلاً: «فكر في ألة زمن تسافر إلى الماضي حيث لا يوجد أحد صممها أو صنعها. وجود مثل هذه الأداة يمثل دوران للتفســـير الذاتي، وحتى لو كان الســـفر خلال الزمان معقولاً، فإن التفسير الذاتي لن يكون معقولاً»(1).

يلخص ريتشارد سوينبيرن Richard Swinburne عرضه للحجة الكونية بالقول: «هنـــاك فرصة بأن، الإله إذا كان موجوداً، فإنه ســـيخلق تعقيد ومحدودية الكون.

(1) Leslie, Infi nite Minds, 193–94.

إنـــه من غير المرجح أن يكون الكون قد وجد بلا ســـبب، ولكن من المرجح جداً أن الإله وُجد بلا ســـبب. ولذلك فإن حجة وجود الكون ســـوف تُحيل إلى وجود الإله بنوع جديد من أنواع الاستقراء». في نقاش جرى حديثاً مع سوينبيرن، لاحظت أن توصيفه للحجة الكونية صحيح من ناحية أساسية. وبعض معالم الحجة تحتاج إلى تعديل، إلا أن هذا التفسير يقود إلى وجود الكون. حجة ريتشارد سوينبيرن الكونية توفر تفسيراً واعداً، ولعله في النهاية أصح التفسيرات.

الفصل
التاسع

إيجاد مساحة للإله
Funding Space for God

إيجاد مساحة للإله
Finding Space for God

في المشـــهد الأول من مسرحية ماكبث Macbeth لشكسبير، وهي إحدى أشهر مســـرحياته، يواجه ماكبث وبانكو Banquo وهما أثنان من الجنرالات في الجيش الملكـــي ثلاثة من الســـاحرات، حيث تتحدث إليهما الســـاحرات ثم يختفين. يقول بانكـــو «الأرض لها فقاعات كمـــا أن للماء فقاعات، وهـــؤلاء فقاعات كذلك، أين أختفين؟. يرد ماكبث: «في الهواء، ما بدا لك أنه جسد تبخر كهواء في الريح». إنه مســـرح ترفيهي وأدب جميل، وفكرة الشخص الذي يختفي «كما الهواء في الريح» نادراً ما تشـــكل مشكلة لمشاهدي المســـرح والأدب، ولكنها في السابق، مثلت عقبة حقيقية للفلاسفة في سعيهم إلى «إتباع الدليل إينما قادهم».

لا يوجد أحد هناك

There's No One There

في كتابي «الإله والفلسفة»، وفي منشورات لاحقة له، ذكرت بأن تصور الإله غير متماسك، لأنه يفترض أن الإله روح معنوية حاضرة في كل مكان وزمان، ووجهة نظري كانت مباشرة. الإنسان كما نفهمه بالمعنى المعتاد مكون من لحم ودم، ولذلك فإن قولنا أن «شخص من دون جسد يبدو بلا معنى له مثل قافية الأبيات المنسوبة إلى هفز ميرنز Hughes Mearns:

وأنا أسير فوق الدرج

قابلت شخصاً لم يكن هناك

ولم يكن هناك اليوم أيضاً

أه كم أتمنى أن يذهب بعيداً

أن تقول بأن هناك «شخص من دون جسد» مشابه جداً لقولك «هناك شخص ما ليس موجودا هناك». إذا كنا نريد التعرف على شخص من دون جسد، فلابد أن نمتلك وسائل مناسبة للتعرف على ما نسميه «شخص». أستمر الفلاسفة المتأخرون من أمثال بيتر ستراوسن Peter Strawson وبيدي راندل Bede Rundle في تطوير هذا النقد. وفي الآونة الأخيرة، وجدنا نسخة من هذه الحجة في أعمال جون غاسكين John Gaskin أستاذ الفلسفة والزميل في كلية الثالوث بدبلن. فقد كتب غاسكين «غياب الجسد ليس فقط مبرر واقعي للشك في أصل وجود الشخص (لا شخص هناك)! ، بل هو أيضاً مبرر للشك في أن هذا الكيان غير المادي

يمكن أن يكون فاعلاً»[1]. تم الرد على هذا النقد من قبل الموحدين، وقد شـــهدت فترة الثمانينات والتسعينات صحوة للتوحيد في أوساط الفلاسفة التحليليين. قام العديد من هؤلاء المفكرين بدراســـات مطولة عـــن الخصائص المرتبطة بالإله مثل مفهوم الخلود.

تم الرد على هذا النقد من قبل الموحدين. وقد شـــهدت الثمانينات والتسعينات نهضة إيمانية في التوحيد في أوساط الفلاسفة التحليليين. قام العديد من هؤلاء المفكرين بدراسات مطولة عن الصفات المرتبطـة تقليدياً بالإله مثل الخلود.

تصدى إثنان من هؤلاء المفكرين، وهما توماس تريســـي Thomas Tracy وبراين ليفتو Brian Leftow بمنهجية لمســـؤولية الدفاع عن تماســـك فكـــرة «روح معنوية حاضرة في كل زمان ومكان». ففي حين تناول تريســـي الســـؤال عن كيفية تعريف كائـــن لا مـــادي، حاول ليفتو أن يبين أن الإله يجب أن يكـــون خارج المكان والزمان وكيف يمكن أن يتصرف الكائن غير المادي في الكون.

(1) John Gaskin, “Gods, Ghosts and Curious Persons,” unpublished paper.

كمال الفاعلية
The Perfection Of Agency

في كتابه «الإله والفعل والتجسيد» و» الإله الفاعل»، أجاب تريسي باستفاضة على سؤالي كيف يمكن أن يكون هناك شخص دون جسد وكيفية تعريف شخص كهذا. أعتبر تريسي أن الأشخاص (البشري والإلهي) الفاعلين يفعلون عن قصد. وهو يرى الإنسان كفاعل عضوي، كجسد قادر على الفعل القصدي. ولكن على الرغم من أن كل الفاعلين المتجسدين (كأشخاص البشر) يجب أن يكونوا وحدات نفسية (وليست عقول زائد أجساد)، وأنه لا يجب أن يكون كل الفاعلين غير متجسدين.

لا توجد حجة مضادة للثنائية تبين أن الجسد هو شرط ضروري لكينونة الفاعل، طالما أن الشرط الوحيد لكينونة الفاعل هو أن يكون ببساطة قادراً على الفعل القصدي. يرى تريسي أن الإله فاعل، لأن كل أفعاله قصدية. التحدث عن الإله كشخص، هو تحدث عن فاعل يقوم بأفعاله عن قصد. قدرة الإله على الفعل متميزة، والأفعال التي تُعزى إلى الإله لا يمكن من حيث المبدأ أن تُنسب للفاعلين الأخرين. على سبيل المثال، الإله عبر فعله القصدي، فهو الفاعل الذي يمنح الوجود لكل الكائنات.

لاحظ تريسي أنه يمكن تعريف الإله من خلال النمط الفريد لطريقة فعله. «إذا تصورنا الإله بإعتباره الفاعل الكامل، فإنه يمكن القول أن الإله هو فاعل موجد لذاته، وتتبدى حياته كوحدة كاملة من القصد، وهو خالق كل شيء وعلى كل شيء قدير». «أن نقول أن الله يحب، فكأننا نقول أن الله يظهر هذا الحب في أفعاله،

وهـــذه الأفعال تمثل هويته كفاعل. ولكن اللـــه فاعل بحيث أن نمط حياته وقدرته تختلف بشكل جوهري عنا. «بما أن نطاق ومحتوى فعل الإله مميز، فكذلك ستكون خاصية حبـــه وصبره وحكمته». هـــذا الفهم للأفعال الإلهية يســـاعد في إعطاء محتـــوى لوصفنا للإله بأنه محب أو حكيم، ومع ذلـــك لا بد أن نعترف بأن فهمنا محدود للغاية [1].

(1) Thomas F. Tracy, God, Action and Embodiment (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1984), 147, 153. See also The God Who Acts, ed. Thomas F. Tracy (University Park: Pennsylvania State University Press, 1994).

التجهيزات الحقيقة للعالم

The Real Furniture Of The World

براين ليفتو، وهو اســـتاذ بجامعة أكسفورد، يعالج هذه الأفكار في كتابه «الزمان والخلود» Time and Eternity . في نقاشـــي معه، أشـــار ليفتـــو إلى أن فكرة الإله الخارج عن الزمان والمكان تتوافق مع نظرية النسبية الخاصة Special relativity[1]. يقـــول ليفتو «هناك الكثير مـــن الحجج التي يمكن عرضها لبيـــان أن الإله خارج الزمان. الشـــيئ الذي أثر عليّ أنك إذا أخذت النســـبية الخاصة بشكل جاد جداً، فستعتقد بأن كل شـــيء في الزمان هو أيضاً في المكان. إنه مجرد اتصال للأبعاد الأربعة. ليس هناك موحد يقول أن الإله موجود في المكان بالمعنى الحرفي. إذا لم يكـــن الإله في المكان، وكل من في الزمـــان هو في المكان، فهذا يعني أن الإله ليس في الزمان. السؤال إذاً يصبح هكذا: ما هو المعنى الذي يمكن تصوره لكائنٍ مشابهٍ للشخص خارجٍ عن الزمان؟

يستمر لفتو بالقول «حسناً، الكثير من المحمولات الشخصية لن تنطبق. الإله لا ينســـى، أنت تنسى ما هو في الماضي. الإله لا يتوقف عن فعل شيء، أنت تستطيع فقـــط أن تتوقف عن فعل ما هو في الماضي. ولكن هناك محمولات شـــخصية، لا يبدو أن مرجعيتها الأساســـية: الزمان–الأشـــياء مثل العلم Knowing، الذي يمكن

(١) النظرية النســـبية الخاصة أو نظرية اللاتغير the invariant theory، كما كان يسميها أينشتين،وهي التســـمية الأكثر دقة، هي نظرية فيزيائية للقياس في إطار مرجعي اقترحها ألبرت أينشـــتين عام ١٩٠٥. كبديل عن نظرية نيوتن في الزمان والمكان لتحل بشكل خاص مشاكل النظرية القديمة فيما يتعلق بالأمواج الكهرومغناطيســـية عامـــة، والضوء خاصة. وهي تدعى «خاصة « لأنها تعالـــج حالة خاصة تتعلق بحركة المراجع (المختبرات) بالنسبة لبعضها البعض بسرعة منتظمة وفي خط مستقيم.

أن يكـون حالـة من الميل دون مرجعية زمانية. وسـأجادل بـأن القصد هو أيضاً كذلك. القصد هو حالة من الميل بحيث لو كان شـيئاً ما سيقع، فإنك ستفعل شيئاً ما. ولذلك أنا أميل للاعتقاد بأن هناك أسـباباً للاعتقاد بأن الإله خارج الزمان. وأيضـاً أميل للاعتقاد بأنه يمكننا العثور علـى معنى من هذا القبيل دون الغوص في مستنقع الوحل.

السـؤال الثاني الذي تصدى لـه ليفتو كان هو: كيف يمكـن أن نتكلم عن روح حاضرة بكل زمن ومكان تقوم بممارسة العمل في المكان أو الكون:

«إذا كان الإله غير زماني، فإن أي شيء يفعله سوف يفعله دفعة واحدة [1]، فلا يمكنه أن يفعل شيئاً ما أولاً ثم يفعل الثاني بعد ذلك، وإنما هو فعل واحد له تأثير فـي أزمـان مختلفة. قد يقوم الإله بفعل إرادي واحد، بـأن يقول بكلمة واحدة أن الشمس سوف تشرق اليوم، وسوف تشرق غداً، إلا أن هذا الشروق يظهر اليوم ثم يظهر غداً. مع ذلك، هذا ليس هو السؤال الأساسي.

السؤال الأساسي هو كيف يمكن أن يكون هناك رابط سببي بين كائن لا زماني ولا مكاني وبين الكون الزماني – المكاني[2]؟ قدرتك على تقديم معنى لذلك يعتمد على تصورك للسببية [3]. إذا كنت تعتقد أن تصور السبب يستبطن بشكل أساسي مرجعيـة زمانية –مثال: إذا وقع حدث ما، اسـتتبعه حـدث أخر وبينهما علاقات

(١) يذكرنا هذا بقوله تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ (سورة القمر، ٥٠).

(٢) وهي معضلة تناولها فلاسـفة الإسـلام ببحث عميقً تحت عنوان «ربط القديم بالحادث»، أنظر: «أصول الفلسـفة والمنهج الواقعي» للسـيد الطباطبائي، وتعليق الشـيخ المطهري، المقالة الحادية عشرة، والمقالة الرابعة عشرة.

(٣) وهـذا بالضبط ما قدمه صدر الدين الشـيرازي، عند طرح نظريته في منـاط احتياج المعلول إلى العلة، وبين أن مناط تلك الحاجة أن المعلول هو عين الربط والتعلق بالعلة، وليس شيئاً يعرض له الربط والتعلق بالعلة.

معينة- فإن هذا المعنى للسـبب سوف يتم استبعاده. ولكن هناك تحليل لا يتضمن مرجعية زمانية أساسـية. أنا شخصياً أميل إلى أن تصور السبب لا يحمل تحليلاً لأنه مفهوم أولي، والسببية علاقة أولية. إنها جزء من أثاث (تجهيزات) العالم . إذا لم يكن لتصور السبب تحليل، فليس ثمة شيء يمكن أن تقتلعه منه عن طريق تحليل ما يستبعد الربط السببي الأولي بين الإله اللازماني والزمان بأسره[1].

(1) Brian Leftow, personal conversation with the author, Oriel College, Oxford University, October 2006

إمكانية متماسكة

A Coherent Possibility

على أقل تقدير، بينت دراســات تريس وليفتو أن فكرة الروح الحاضرة في كل زمان ومكان ليســت غير متماســكة في جوهرها إذا نظرنا إلى هذه الروح خارج الزمــان والمكان حيث تقوم بأفعالها القصدية بطريقة خاصة في المتصل الزماني- المكاني. الســؤال عما إذا كانت هذه الروح موجودة، كما نرى، يقع في صلب حجج وجود الإله.

إما بالنســبة لصلاحيــة، هذه الحجج فأنا أتفق مع اســتنتاج كونوي الذي قال فيه: «إذا كان منطق الفصل الســابق صحيحاً، فإنه لا توجد حجة فلســفية جيدة تنفي وجود الإله لتكون تفسيراً للكون المنظم الذي يظهر لنا. وإن كان الأمر كذلك، فلا يوجد ســبب يمنع الفلاسفة للعودة مرة أخرى للتصور الكلاسيكي لموضوعهم، بشرط ألا يكون هناك طريق أخر للظفر بالحكمة»[1].

(1) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 134.

الفصل العاشـــر

المجال مشرع لإله الكامل القدرة
Open Tp Iminipotence

المجال مشرع لإله الكامل القدرة
Open Tp Iminipotence

العلم كعلم لا يمكن أن يقدم حجة تؤيد وجود الإله. ولكن البراهين الثلاثة التي ذكرناهـــا في هذا الكتـــاب: قوانين الطبيعة، الحياة الغائيـــة، ووجود الكون، يمكن فقط تفســـيرها على ضوء ذكاء يفســـر وجوده بذاته ويفســـر كذلك وجود العالم. اكتشاف الإله على هذا النحو لا يأتي من خلال معادلات وتجارب، ولكن من خلال فهم التركيب الذي من خلاله تستطيع إزاحة الغموض عن الخريطة.

الآن، قد يبدو هذا الأمر مجرداً وغامضاً. قد تســـأل: كيف أتصرف كشـــخص عند اكتشـــاف الواقعية القصوى لروح حاضرة في كل زمان ومكان وقادرة على كل شـــيء؟ لابد أن أعيد تكرار القول بأن رحلة إكتشافي للمقدس كانت إلى حد بعيد رحلة عقل. لقد اتبعت الحجة إلى حيث أخذتني، وهي قادتني إلى وجود إله ذاتي الوجود، غير متغير، غير مادي، على كل شيء قدير وبكل شيء عليم.

بالتأكيد، لا بد من مواجهة مشـــكلة الشـــرور والمعاناة في العالم. ولكن فلسفياً، هذا الموضوع مختلف عن موضوع وجود الإله. من وجود العالم نصل إلى الأســـاس لوجـــوده. قد يكون للطبيعة نواقصها، ولكن هذا لا علاقة له إذا ما كان لها مصدر نهائي او لا. ولذلك فوجود الإله لا يعتمد على أن هناك تبرير أو عدم تبرير لوجود الشر.

فيما يخص مســـألة الشرور، هناك تفســـيران لمن يؤمن بوجود الإله. التفسير الأول هو في إله أرسطو الذي لا يتدخل في العالم. أما التفسير الثاني فيستند إلى

حجة الإرادة الحرة، وهي فكرة أن الشـــر ممكن دائماً ما دام الإنسان حر الإرادة. في الإطار الأرسطي، الإله بمجرد أن أتم خلق الكون، ترك الأمر لقوانين الطبيعة، وإن كان في بعض الأحيان يتدخل من بعيد في القضايا المبدئية مثل إقامة العدل. حجة الإرادة الحرة تعتمد على القبول المســـبق بإطار الوحي الإلهي، وهي فكرة أن الإله قد تجلى بذاته.

منفتح لتعلم المزيد

Open To Learning More

إلـــى أيـــن أنا ذاهب الآن؟ في المقام الأول، أنا منفتـــح للتعلم أكثر عن الواقعية الإلهية، وخصوصاً على ضوء ما نعرفه عن تاريخ الطبيعة. وثانياً أن الســـؤال عما إذا كان الإله قد تجلى بذاته في التاريخ البشـــري يظل موضوعاً مشروعاً للنقاش. لا نســـتطيع أن نقصـــر (نُحدِّد) إمكانيات الإله الذي هو على كل شـــيء قدير، إلا إذا كان ذلـــك يـــؤدي إلى نتيجة غير منطقية. عدا ذلك، كل شـــيء مفتوح لإله كُلِّي القدرة.

الملحق الثاني في هذا الكتاب هو عرض للنقاش الذي دار حول المسألة الأخيرة مع الأسقف الإنجيلي رايت N. T. Wright، مع إشارة خاصة إلى المقولة المسيحية بأن الإله أصبح رجلاً في شخص السيد المسيح. كما قلت أكثر من مرة ليس هناك دين يتمتع بمزيج من شـــخصية تمتلك جاذبية مثل شـــخصية المســـيح، ومفكر من الدرجـــة الأولى مثل القديس بولس. إذا كنت تريد من إلهٍ على كل شـــيء قدير أن يصنع ديناً، فإن ما يبدو لي هو أن هذا هو الدين المطلوب.

أريــد أن أعود الآن إلى المثال الذي بدأت به هذا الجزء من الكتاب. تكلمنا عن الهاتف الذي يعمل بالاقمار الصناعية، والذي يتم اكتشافه من قبل قبيلة تعيش في جزيرة والمحاولات التي جرت لفهــم طبيعة الهاتف. أنتهى المثال مع حكيم القبيلة الذي تعرض لســخرية وتجاهل من علماء القبيلــة. ولكن لنفترض أن المثال أنتهى نهايــة مختلفة؛ بقبول العلماء قول الحكيم بأن الهاتف مجرد وســيلة للتواصل مع أنــاس آخريــن. وأنه بعد مزيد من البحث، توصلوا إلــى نتيجة أن الهاتف مرتبط بشــبكة تبث أصوات أناس واقعيــين. وهم الآن (العلماء) يقبلــون بفرضية وجود كائنات ذكية «هناك».

ذهب بعض علماء القبيلة إلى أبعد من ذلك، فعملوا على فك شــفرة الأصوات التــي تأتي من الهاتف، وتوصلوا إلى فهم النغمات والنســق الذي تتحدث به هذه الأصوات. عندهــا تغير عالمهم، وعرفوا أنهم ليســوا وحيدين. وفي لحظة معينة أجروا إتصالاً.

من الســهل تطبيق التشــبيه في هذا المثال. اكتشاف ظواهر كقوانين الطبيعة- شــبكة الاتصال في المثال السابق- قاد علماء، وفلاسفة، وآخرين إلى قبول وجود عقل ذكي لا نهائي. البعض يدعي أنه قد أجرى مكالمة مع هذا العقل. أما أنا فليس بعد. ولكن من يعرف ما سيحدث لاحقاً؟ «هل بمقدورك أن تسمعني الآن؟»

الملحق الأول

الإلحاد الجديد

تقييم نقدي لدكونز، دينيت، ولبرت، هاريس وستينجر

روي أبراهام

Roy Abarahm

الإلحاد الجديد

The New Atheism

الأساس الذي يقوم عليه كتاب «الإلحاد الجديد» new atheism هو الاعتقاد بعدم وجود إله، إذ لا وجود للإله الخالد اللامتناهي مصدر كل الموجودات. هذا الاعتقاد الأساسي يحتاج إلى أساس من أجل أن تصح بقية الحجج. أريد أن أقول هنا أن الملاحدة الجدد من أمثال ريتشارد دوكنز Richard Dawkins، ودانيال دينيت Daniel Dennett، ولويس ولبرت Lewis Wolpert، وسام هاريس Sam Harris، وفيكتور شتينجرVictor Stenger، لم يفشلوا فقط في البرهنة على هذا الاعتقاد، بل أنهم أهملوا الظواهر المرتبطة بالسؤال فيما إذا كان الإله موجوداً.

أرى أن هناك خمس ظواهر واضحة في تجربتنا المباشرة لا يمكن تفسيرها إلا بلغة وجود الإله. هذه الظواهر هي:

الأولى، العقلانية المتضمنة في جميع خبراتنا الحسية عن العالم الفيزيائي.

الثانية الحياة، القدرة على الفعل المستقل.

الثالثة الوعي، القدرة على أن تكون على علم.

الرابعة، الفكر التصوري Conceptual thought، القدرة على التعبير وفهم الرموز الموجودة في اللغة. الخامسة، النفس البشرية، «مركز» الوعي والفكر والفعل.

هناك ثلاثة أشياء يجب أن تقال عن هذه الظواهر وارتباطها بوجود الإله.

أولاً، نحن اعتدنا على سماع الحجج والبراهين لوجود الله. في رأيي، أن هذه الحجج مفيدة في توضيح بعض الأفكار الأساسية، ولكن لا يمكن إعتبارها «براهين» تحدد مشروعية صورية فيما إذا كان هناك إله. بدلاً من ذلك، فإن كل واحدة من الظواهر الخمسة التي نستشهد بها هنا، بطريقتها الخاصة، تفترض مسبقاً وجود عقل بديل نهائي. الإله هو الشرط الذي يكمن وراءه كل ما هو بديهي في خبرتنا.

ثانيا، يجب أن يكون واضحاً من النقطة السابقة، أننا لا نتحدث عن إحتمالات وفرضيات، وإنما نتحدث عن مواجهة مع حقائق أساسية لا يمكن إنكارها، وإلا وقعنا في التناقض الذاتي. وبعبارة أخرى، نحن لا نطبق مبرهنات الاحتمال على مجموعات معينة من البيانات، ولكننا نركز أكثر بكثير على السؤال الأساسي حول كيف يمكن تقييم البيانات من الأساس. وبالمثل، فإن الأمر ليس مجرد مسألة أستنتاج وجود الإله من خلال بعض الظواهر المعقدة. بدلاً من ذلك، فإن وجود الإله هو فرض مسبق لكل هذه الظواهر.

ثالثاً، يشتكي الملحدون القدماء والجدد من عدم وجود دليل على وجود الإله، وقد رد بعض الموحدين على ذلك بالقول أن فكرة الإرادة الحرة يمكن أن تصمد فقط إذا كان الدليل غير متعسف Noncoercive. النهج المتبع هنا هو أن لدينا كل الأدلة التي نحتاجها في تجربتنا المباشرة، وأن الرفض المتعمد لرؤية الواقع هو المسؤول عن الإلحاد بصيغه المتعددة.

عند النظر في تجربتنا المباشرة، دعونا نقوم بتجربة فكرية. فكر لدقيقة واحدة أن أمامك طاولة من الرخام، هل يمكن أن تتصور أنه بعد مليارات السنين أو بعد

مرور زمــن لا نهائي إمكانية أن تتحول هذه الطاولة بصــورة مفاجئة أو تدريجية إلى طاولة مدركة وواعية لما حولها، وواعية بهويتها بالكيفية التي نفهم بها الأمور؟ ببســاطة هذا أمر لم ولن يقع، وهو ما ينطبق على جميع الجمادات غير الطاولة. بمجــرد أن تدرك طبيعة المادة المكونة من كتلة وطاقة تدرك أن طبيعتها تجعل من المســتحيل عليها أن تعي أو تفكر و «لا أن تقول أنا». ولكن موقف الملحدين يتمثل في أنه في نقطة معينة في تاريخ هذا الكون تحول هذا المســتحيل وغير المتصور إلى واقع، وانتقلت المادة غير المميزة إلى الحياة وبعد ذلك أصبحت مدركة وبعدها أصبحت متقنة ثم «صارت أنا» (الكلام بصيغة المتكلم).

لكن عندما نعود إلى مثال الطاولة، نجد ببساطة أن ذلك مثير للضحك، فالطاولة لا تمتلــك خصائــص الوعي، وإعطاءها وقت لانهائي لا يمكنها من إكتســاب هذه الخصائــص. حتى إذا قبلنا ببعض الســيناريوهات غير المعقولة عن أصل الحياة، فإنه لابد للمرء أن يتخلى عن عقله حتى يقبل بسيناريو يقول أن الطاولة يمكن أن تنتج تصورات، وعلى المستوى دون الذري Subatomic level ما ينطبق على الطاولة ينطبق على بقية الأشياء.

على مدى الثلاثمائة الســنة الماضية، كشــفت العلــوم التجريبية بما لا يعد ولا يحصــى المزيد من البيانات حول العالم الفيزيائــي أكثر من أي وقت مضى، وهو ما يصعب على أجدادنا تصوره. وهذا يشــمل الفهم الشــامل للشــبكات الوراثية والعصبية التي تكمن وراءها الحياة والوعي والفكر والذات. بل أبعد من ذلك، فهذه الظواهر الأربعة تعمل مع البنية التحتية الفيزيائية بشكل يُمكننا من الفهم بشكل أفضل من أي وقت مضى.

لا يستطيع العلم أن يخبرنا شيئاً عن أصل أو طبيعة الظواهر في ذاتها. وعلى الرغم من محاولة بعض العلماء تفسير هذه الظواهر على أنها استظهار Manifestations للمادة، فإنه لا مجال للبرهنة على أن فهمي لجملة ما هو إلا انتقال لإشارات عصبية محددة.

من المؤكد أن هناك إشارات عصبية ترافق عملية تفكيري، وقد بين علم الأعصاب الحديث كيف أن مناطق في المخ مسؤولة عن جوانب عقلية معينة. ولكن القول بأن فكرة معينة هي مجرد إنتقال لإشارات عصبية هو قول تافه بنفس درجة تفاهة فكرة أن العدل ما هي إلا حبر على ورق. ولذا فإن القول بأن الوعي والفكر هو ببساطة مجرد إنتقال مادي Physical transactions هو قول غير متماسك.

نظراً لضيق المساحة هنا، أقدم نظرة عامة مختصرة جداً للظواهر الخمس الأساسية التي تمثل أساس لتجربتنا عن العالم، والتي لا يمكن تفسيرها ضمن إطار «الإلحاد الجديد» New atheism. ويمكن الاطلاع على دراسة أكثر تفصيلا في كتابي المقبل «الحلقة المفقودة».

العقلانية

Rationalism

يســـأل دوكنز وأخرين: «مـــن خلق الإله؟» من الواضـــح أن الموحدين والملحدين يتفقون على شـــيئ واحد، وهو أنه إذا كان هناك شـــيئ ما موجود فلابد أن هناك من سبقه، وأنه دائم الوجود. ولكن كيف جاءت هذه الحقيقة الأبدية ؟ الجواب هو أنهـــا لم تأت مطلقاً، لإنها موجودة على الدوام. أختر أمر من الأمرين، إما الإله أو الكون. لابد من شيئ ما دائم الوجود.

في هـــذه النقطة بالذات تبرز الحاجة للعقلانية. خلافاً لاعتراضات الملحدين، فـــإن هناك فرقاً جوهرياً بين إدعاء الملحدين والموحدين فيما يخص الكائن الدائم الوجـــود. يقول الملحدون أن تفســـير وجود الكون هو موجـــود منذ الأزل، ولكننا لا نستطيع تفسير الحالة التي جاءت بهذا الكون الدائم إلى الوجود.

هذا الكون عصي على الشرح ويجب أن يُقبل كما هو. يصر الموحدون في المقابل على أن الإله ليس عصياً على التفسير: وجود الإله عصي على فهمنا، ولكنه ليس عصي على الإله.

إن وجـــود الإلـــه الأبـــدي لابـــد أن له منطقـــه الخاص، لأن وجـــود العقلانـــية في الكـــون مشـــــروط بـــأن يكون هذا الوجود قـائم على أســـس عقلانية مطلقة Uultimate rationality.

بعبارة أخرى، الحقائق الفردية Singular facts مثل قدرتنا على معرفة وتفسير الحقيقة، والترابط ما بين الأعمال Workings الموجودة في الطبيعة ووصفنا المجرد لهذه الأعمال Abstract descriptions (ما يسميه عالم الفيزياء يوجين فيغنر Eugene Wigner التاثير المنطقي للرياضيات Reasonable Effectiveness of Mathematics) ودور الرموز في النظام الوراثي والعصبي في المستويات الرئيسية للحياة تتمظهر بإعتبارها الركائز الأساسية للطبيعة العقلانية Nature of rationality.

ما هو المنطق الداخلي الذي لا نستطيع رؤيته رغم أن الأفكار التقليدية تعطي بعض المؤشرات عن طبيعة الإله؟

على سبيل المثال، السيدة اليانور ستمب Eleonore Stump والسيدة نورمان كرتزمان Norman Kretzmann، تناقشان بالقول أنه عندما نفهم بشكل كامل خاصية البساطة المطلقة للإله فإنه يمكننا تبين كيف أن عدم وجود الإله غير ممكن. يشير ألفن بلانتينغا إلى أن الإله يُفهم على أنه الواجب الوجود في كل الأكوان الممكنة. يمكن للملحدين أن يردوا على هذا الكلام بطريقتين: أن للعالم منطق داخلي لا نستطيع رؤيته، أو أننا لا نحتاج أن نعتقد بوجود إله له منطقه الخاص في الوجود. في النقطة الأولى سوف يرد الموحدون بالقول أنه لا وجود لكون أكبر من مجموع ما يتكون منه، ونحن نعلم حقيقة أنه لا يوجد شيئ في الكون له منطق داخلي لا نهاية لوجوده.

في النقطة الثانية، يشير الموحدون إلى أن وجود العقلانية -التي نحن على يقين بوجودها - تتراوح ما بين قوانين الطبيعة إلى قدرتنا على التفكير العقلاني -ولا يمكن تفسيرها إذا لم يكن لها أساس مطلق Ultimate ground، وهذه العقلانية

ليست ســوى العقل اللانهائي. «الكون عقلاني»، هذا ما لاحظه عالم الرياضيات المشهور كيرت جوديل[1] Kurt Gödel. علاقة العقلانية بالكون تتمثل في أن «نظام الكــون هو إنعكاس لنظام العقل الخارق الذي يحكمــه»[2]. لا يمكن تجنب حقيقة العقلانية فــي الكون من خلال لجوءنا إلى فكرة الانتخــاب الطبيعي، فالانتخاب الطبيعي Natural selection يفترض وجود كيانات فيزيائية تتفاعل فيما بينها وفقاً لقوانين محددة ورموز تنظم عمليــة الحياة. وعندما نتكلم عن الانتخاب الطبيعي فلابد أن نفترض وجود منطق ما لما يحدث في الكون، بشــرط أن يكون بمقدورنا فهم هذا المنطق.

وبالعودة إلى المثال الســابق لطاولة الرخام، نقــول أن العقلانية الحقيقية التي تقــف خلف تفكيرنا والتي تواجهنا في دراســتنا للكون الدقيق رياضياً لا يمكن أن تكون نشــاءت من الحجارة. الإلــه ليس حقيقة قاهــرة Ultimate brute fact، بل حقيقة عقلانيـــة مطلقة في كل جوانب الوجود.

يزعم دانيال دينيت Daniel Dennett بأن «الإله خلق نفســه من العدم، أو على أحسن الأحوال من شيئ لا يمكن تمييزه عن العدم»[3].

تم عــرض هذه الفكرة بشــكل أكثر وضوحا من جانب ملحــد أخر حديث هو عالم الفيزياء فيكتور شتينجر Victor Stenger، الذي قدم حله لمسألة أصل الكون وقوانين الطبيعة في كتابه «ليس من خلال التصميم: أصل الكون، هل وجد العلم الإله، الكون القابل للفهم والإله: الفرضية الفاشلة»[4].

(1) Hao Wang, A Logical Journey: From Gödel to Philosophy (Cambridge, MA: MIT Press, 1996), 316.
(2) Palle Yourgrau, A World Without Time: The Forgotten Legacy ofGödel and Einstein (New York: Basic Books, 2005), 104–5.
(3) Daniel Dennett, Breaking the Spell (New York: Viking, 2006), 244.
(4) Not by Design: The Origin of the Universe, Has Science Found God? The Comprehensible Cosmos, and God: The Failed Hypothesis

من بين أمور أخرى، يقدم شتينجر نقداً جديداً لفكرة قوانين الطبيعة وما يترتب عليها. في كتابه «الكـون القابل للإدراك» The Comprehensible Cosmos، يقول شتينجـر أن القوانين لم تنـزل من أعلى، ولا هي عبـارة عن قيود ذاتية Built-in restrictions لسـلوك المادة، وإنما هي قيود بالمعنى الذي يمكن لعلماء الفيزياء أن يصيغوا معادلاتهم الرياضية عن المشاهدات الحسية.

موقف شـتينجر مبني على تفسيره لفكرة أساسـية في الفيزياء الحديثة وهي التناظـر Symmetry. وفقاً لوجهة النظرة الفيزيائية الحديثة، فإن التناظر هو أي حالة تحول Transformation تحافظ على ثبات قوانين الفيزياء عند تطبيقها على النظام.

تم تطبيـق الفكرة في البداية في المعادلات التفاضلية Differential equations للميكانيكا الكلاسيكية والكهرومغناطيسية ومن ثم تم تطبيقها بطرق جديدة على نظرية النسـبية الخاصة ومشاكل ميكانيكا الكم. يقدم شتينجر لقراءه لمحة عامة لهـذه الفكرة القوية، ولكن بعد ذلك ينتهي إلى نتيجتين غير متماسـكتين. الأولى هي أن فكرة التماثل تسـتبعد فكرة قوانين الطبيعة، والثانية أنه لا شـيئ يمكن أن ينتج شـيئ ما لأنه لا شـيئ مسـتقر. من المدهش أن كتاباً صدر بعنوان «التناظر المخيـف» Fearful Symmetry لمؤلفه أنتونـي زي Anthony Zee، وهو معروف في مجال دراسات التناظر يستخدم نفس الحقائق التي يسوقها شتينجر للوصول إلى نتيجة مختلفة:

«لقد لعبت التناظرات دوراً مركزياً بشـكل متزايد في فهمنا لعالم الفيزياء ... علماء الفيزياء الأساسـيين يقولون أن التصميم المطلـق Ultimate design يواجه صعوبـات مع التناظرات. الفيزياء المعاصرة لـم تكن ممكنة بدون التناظرات التي

ترشدنا ..... كلما تقدمت الفيزياء إلى الأمام من خلال تجربتنا اليومية، واقتربت من المصمم المطلق Ultimate Designer... لقد تم تدريب عقولنا بعيداً عن مراسيها المألوفة ... أُفضل أن أفكر في المصمم المطلق الذي يتم تعريفه من خلال التناظر»[1].

يجادل شتينجر أن «لا شيء» متناظر تماماً لأنه لا يوجد موقع مطلق Absolute position، أو وقت مطلق، أو سرعة مطلقة، أو تسارع مطلق في الفراغ Acceleration in the void.

ورداً على سؤال «من أين جاء التناظر؟» يقول شتينجر إنها التماثلات في الفراغ Symmetries of the void، لأن قوانين الفيزياء هي مجرد ما يتوقعونه إذا جاءت من لا شيئ».

مغالطة شتينجر الاساسية مغالطة قديمة، وتتمثل في خطأ النظر إلى «لا شيئ» على أنه شيئ ما.

على مدى قرون من البحث في مفهوم «العدم» Concept of nothing، حرص المفكرون على التأكيد على أن مصطلح «العدم» لا يعني «شيئاً ما». العدم المطلق يعني أن لا وجود لقوانين، لا فراغ، لا طاقة، لا هيكل، لا وجود لكيانات مادية أو عقلية من أي نوع، ولا وجود لتناظرات، وليس هناك خصائص أو قابليات Potentialities. العدم المطلق لا يمكن أن ينتج شيئاً ما في وقت لا نهائي- وفي الحقيقة لا يمكن أن يوجد زمان في العدم المطلق. ولكن ماذا عن الفكرة الرئيسية لكتاب شتينجر «الفرضية الفاشلة» والتي تذهب إلى أن ظهور الكون من العدم لا يخالف قوانين الفيزياء لأن الطاقة الصافية net energy للكون صفر؟

(1) Anthony Zee, Fearful Symmetry (New York: Macmillan, 1986),280–81.

طرحت هذه الفكرة لأول مرة من قبل الفيزيائي إدوارد تريون Edward Tryon، الذي بين أن الطاقة الصافية للكون هي صفر تقريباً، وبالتالي لا يوجد تناقض في القــول أنها جاءت من العدم لأنها عــدم. إذا أضفت طاقة الجاذبية الأرضية التي هي ســالبة إلى بقية كتلة الكون وهي موجبة فإن الناتج سوف يكون صفراً تقريباً. وعندها لا توجد حاجة لطاقة تصنع الكون، ولذلك لا حاجة لخالق.

بخصــوص هذا الإدعــاءات وأمثالــها، أشــار الفيلســوف الملحــد سمــارت J. J. C. Smart إلى أن فرضية وجود كون بطاقة صافية تســاوي الصفر لا تجيب على الســؤال لماذا لابد أن يكون هناك شــيئ ما من الأســاس. لاحظ سمارت أن الفرضيــة وصياغاتها الحديثة تفترض وجود منظومــة الزمان والمكان[1]، والحقل الكمي The Quantum Field، وقوانين الطبيعة، وبالتالي فهي لا تجيب على السؤال لماذا توجد الأشــياء، كما لا تجيب على سؤال عما إذا كان هناك سبب غير زماني للكون الزمكاني. الواضح من هذا التحليل، أن شتينجر ترك أثنين من الأسئلة دون إجابة، وهما: لماذا توجد بعض الأشــياء وليس عدم مطلق؟ ولماذا تتوافق الأشــياء الموجودة مع التناظرات أو تُكون هياكل Structures معقدة؟

عرض زي Zee حقائق التناظر نفســها التي أعتمد عليها شتينجر للوصول إلى نتيجة مفادها أن عقل المصمم المطلق هو مصدر التناظر، وأن قوانين الطبيعة في الوقع تعكس التناظر الكامن في الطبيعة، والتناظر وليس قوانين الطبيعة هو الذي يشير إلى عقلانية وذكاء الأكوان- وهي العقلانية المتجذرة في عقل الإله.

(1) J. J. C. Smart and John Haldane, Atheism and Theism (Great Debates in Philosophy) (Oxford: Blackwell, 2003), 228 ff.

الحيـــاة

Life

الظاهرة الأخرى التي نريد مناقشتها هنا هي الحياة. وفقاً لرؤية توني فلو بشأن المـــادة في هذا الكتاب، لا حاجة لقـــول المزيد حول أصل الحياة. يجب لفت النظر إلى أن النقاش الحالي حول هذا الســـؤال لا يبدو أنه يتناول القضايا الاساســـية. هناك أربعة جوانب للكائنات الحية. هذه الكائنات فاعلة Agents، وتســـعى لهدف Goal seekers، وهـــي ذاتية التكاثر، وذات طبيعة ســـيميائية (وجودها يعتمد على التفاعـــل بين الرموز والكيمياء) . كل كائن حي أمـــا فاعل أو له قدرة على الفعل. وكل وجـــود هو المصدر الموحد Unified source لكل أفعاله. بما أن هؤلاء الفاعلين قادرون على البقاء والعمل بشـــكل مستقل، فإن أعمالهم موجهة نحو أهداف بنحو ما، وهم يســـتطيعون التكاثر، وبالتالي فهم كائنات هادفـــة Goal-seeking وذاتية التكاثر. أشـــار هوارد باتي Howard H. Pattee إلى أنه يوجد تفاعل بين العمليات السيميائية (الرموز، اللغات، المعلومات، التحكم) مع الأنظمة الفيزيائية (القوانين، الدينامية، الطاقة، القوى والمادة)[1].

(1) Howard H. Pattee, “The Physics of Symbols: Bridging the Epistemic Cut,” Biosystems 60 (2001): 5–21.

مــن بين الكتب التــي نراجعها في هذا الموضوع، فقــط ديكونز هو الذي تناول الســؤال عن أصل الحياة. يقــول ولبيرت Wolpert، وهو أحــد البارزين في هذا الحقل «لا نقول بأن كل الأســئلة العلمية المتعلقة بالتطور قد تم حلها. على العكس مــن ذلك فإن أصل الحياة بحــد ذاته وتطور الخلية الذرية التــي نتجت منها كل الكائنــات الحية لازالت غير مفهومة»[1]. في أعماله الســابقة، يأخذ دينيت بعض المواقف المادية أخذ المســلمات. لســوء الحظ فإن وجهة نظر دوكنز لم تكن كافية حتى على المســتوى الفيزيائي- الكيميائي، بل هي أســوء، ولكنه يتسائل [2] «كيف بدأت الحياة؟ أصل الحياة حدث كيميائي أو سلســلة من الأحداث، حيث تم توفير الشــروط الضرورية للانتخاب الطبيعي .... عندما تتوفر المكونات فإن الانتخاب الطبيعــي الداروينى يأتي كنتيجة. كيف حدث ذلك؟ أبتكر العلماء ســحر الأرقام الكبيرة. الجميل في المبدأ الانثروبولجي أنه يقول لنا على عكس حدسنا، يقول بأن هذا النموذج الكيميائي لا يحتاج سوى إلى توقع أن الحياة سوف تبرز على الكوكب بالمليارات لتعطينا تفسيراً كاملاً ومرضياً للحياةً [3].

بنــاءاً على هذا النــوع من التفكيــر المنطقي والذي يمكن وصفــه بأنه تمرين جريئ للخرافة، فإن كل شــيئ نرغب بوجوده ينبغي أن يوجد، فقط إذا استدعينا الأرقــام الكبيرة. الحيوانــات وحيدة القرن يجب أن توجــد على عكس الحدس. النموذج الكيميائي هو المتطلب الوحيد الذي تحتاجه لتوقع ما يحدث على الكوكب بالمليارات.

(1) Lewis Wolpert, Six Impossible Things Before Breakfast (London:Faber and Faber, 2006), 212–13.
(2) Richard Dawkins, The God Delusion (London: Bantam, 2006), 137.
(3) Dawkins, The God Delusion, 137–38.

الوعـي

Consciosness

لحسن الحظ أن الوضع ليس سيئاً في دراسات الوعي على عكس ما هو موجود في المجالين السـابقين. هناك فـي الوقت الحالي وعي متزايـد بمفهوم الوعي. نحـن واعـون، ونحن نعي أننا واعون. لا أحد يمكـن أن ينكر ذلك دون الوقوع في التناقض الذاتي، وإن كان البعض يصر على ذلك. المشـكلة تصبح غير قابلة للحل عندما ندرك طبيعة الخلايا العصبية. كبداية، الخلايا العصبية لا تشـابه حياتنا الواعية. الأمر الثاني، وهو أكثر أهمية، أن خصائص الخلايا العصبية من الناحية الفيزيائية لا توفر بأي حال من الأحوال سبباً للاعتقاد بأن بإمكانها، أو أنها سوف تنتج وعياً. يرتبط الوعي ببعض مناطق الدماغ، ولكن عندما توجد أنظمة الخلايا العصبية المكونة من نيرونات في جذع الدماغ فإنها لا تنتج وعياً.

في الواقع، كما أشار العالم الفيزيائي جيرالد شرويدر Gerald Schroeder، إنه لا يوجد هناك فرق جوهري من الناحية المادية بين كومة من الرمل وعقل آينشتين. فقط الإيمان الأعمى الذي لا أساس له بالمادة، يقف وراء الإدعاء بأن جزيئات Bits المادة تسـتطيع إيجاد حقيقة جديدة لا تشبه المادة. رغم أن التيار العام لدراسات

الجسد-العقل اليوم يعترف بحقيقة الوعي وما يستتبعه من غموض، إلا أن دانيال دنييت Daniel Dennett أحد القلة من الفلاسفة الذين لايزالون يتهربون مما هو واضح. يقول دينيت بأن السؤال عما إذا كان هناك بعض الأشياء واعية سؤال غير قابل للإجابة، ويؤكد على أنه يمكن للمكائن أن تكون واعية لأننا مكائن واعية.

الوظيفية [1] Functionalism هي «تفسير» دينيت للوعي. يقول دينيت إننا لا ينبغي أن نكون قلقين مما يصطلح على تسميته بالظاهرة العقلية. بدلاً من ذلك، ينبغي لنا أن نتحقق من العمليات التي تقوم بها هذه الظاهرة. الألم هو الشيء الذي يخلق رد فعل التفادي Avoidance reaction؛ والفكر هو تمرين على حل المشكلة. لا يجب أن يُنظر للوعي باعتباره حدثاً خاصاً وقع في وقت خاص، كما سبق مع بقية الظواهر العقلية. أن تكون واعياً يعني أن تقوم بهذه العمليات. ولأن هذه العمليات يمكن تكرارها من خلال أنظمة غير حية (مثال: كمبيوتر يحل مسائل) فإنه ليس هناك أي غموض بخصوص الوعي، وبالتالي ليس هناك أي سبب موجب للذهاب لما هو غير فيزيائي.

ما أغفلته وجهة نظر دينيت، هو أن كل الأفعال العقلية تقترن بحالات وعي Conscious states، وهي الحالات التي نكون فيها على وعي بما نقوم به. لا تستطيع الوظيفية بأي حال من الأحوال تفسير أو الزعم بالقدرة على تفسير الحالات التي نكون فيها مدركين وواعين، فنحن نعرف ما نفكر فيه (الكمبيوتر لا يعرف ما يقوم به). حتى الآن، لا تقول لنا الوظيفية شيئ عمن هو المدرك، من هو الواعي، ومن هو الذي يفكر. يقول دينيت بطريقة تثير التعجب إن فلسفته تقوم على فكرة

(١) نظرية في فلسفة الذهن تقوم فكرتها الأساسية على أن الحالات الذهنية تتقوم بدورها الوظيفي فحسب.

«الشخص الثالث المطلق»[1] Third-person absolutism، وهو ما يجعله في موقف الجزم «أنا لا أؤمن بأنا» I do not believe in I".

ومن المثير للاهتمام، أن بعض أقوى منتقدي دينيت والوظيفية هم في ذاتهم علماء فيزياء من أمثال ديفيد بابينو David Papineau، وجون سيرل John Searle وغيرهم. جون سيرل بالخصوص حاد في نقده لهذه النظرية، حيث يقول «إذا كنت تميل إلى الوظيفية، فأعتقد أنك لست بحاجة إلى تفنيد، وإنما أنت بحاجة الى مساعدة»[2]. على النقيض من دنييت، دافع سام هاريس Sam Harris بقوة عن الطبيعة غير المادية للوعي بقوله «المشكلة ليست متعلقة بالمخ الذي عندما نستكشفه فإنه يُظهر المخ على أنه حامل للبعد الداخلي Interior dimension الذي يعيش فيه كل واحد منا، أي الوعي بطريقته الخاصة. حسب قول هاريس، «الوعي ظاهرة أكثر بدائية من الكائنات الحية وأمخاخها، ولا يبدو أن هناك طريقاً واضحاً لاستبعاد هذه الأطروحة بطريقة تجريبية»[3].

يُحسب لديكونز أنه أعترف بأن حقيقة كل من الوعي واللغة تطرح مشكلة محيرة «لا أنا ولا ستيف بنكر Steve Pinker نستطيع تفسير الوعي الإنساني الشخصي Consciousness Human Subjective وهو ما يسميه الفلاسفة الوعي الشخصي Qualia. في كتابه «كيف يعمل العقل»، يعرض ستيف لمشكلة الوعي الشخصي، ويطرح السؤال: من أين جاء الوعي الشخصي، وما هو تفسيره»، وكان دوكنز نزيهاً بالقول « علّي أن أكون نزيها وأصرح بأننا لا نعرف الجواب، وأننا لا نفهم تفسيراً لذلك»[4].

(١) القبول بفكرة وجود كيانات لا هي مادية ولا هي معنوية.

(2) John Searle, The Rediscovery of the Mind (Cambridge, MA: MITPress, 1992), 9.

(3) Sam Harris, The End of Faith (New York: Norton, 2004), 208–9.

(4) Richard Dawkins and Steven Pinker, "Is Science Killing the Soul?" The Guardian-Dillons Debate, Edge 53 (April 8, 1999).

يتجنب ولبرت عمداً مسـألة الوعي برمتها قائلاً «لقد تجنبت بشكل متعمد أي نقاش حول الوعي»[1].

(1) Wolpert, Six Impossible Things Before Breakfast, 78.

الفكر

Thought

مـــا وراء الوعـــي Beyond consciousness، هناك ظاهـــرة الفكر والفهم ورؤية المعنى. كل اســـتخدام للغة يكشـــف ترتيباً ذكياً فطرياً للوجود. تقف وراء عمليات التواصل -واســـتخدام اللغة وهما أســـاس لعملية التفكير لدينا- قوة خارقة، قوة تعرف الاختلافات والتشـــابهات differences and similarities والتعميم والشمول Universalizing وهو ما يسميه الفلاسفة تصورات Concepts وكليات Universals وما شابهها. الفكر عبارة عن قوة معروفة للبشر، وهي قوة مميزة وفريدة من نوعها. كيـــف يمكنك منذ بداية طفولتك أن تميز دون جهد بين كلبك قيصر Caesar وبين بقية الكلاب. أنت تســـتطيع أن تتصور اللون الأحمـــر دون أن تتصور بالخصوص شـــيئ لونه أحمـــر (بالتأكيد أن اللون الأحمـــر لا يوجد بذاته وإنما في الأشـــياء الحمراء). أنت تُجرد Abstract وتميـــز Distinguish وتوحد Unify دون أن يأخذ الأمر من تفكيرك لحظة واحدة. هذه القوة التي تفكر بالتصورات بطبيعتها تتعالى Transcends فوق المادة.

إذا كان هنـــاك من يعترض على ذلك فمن باب الإتســـاق يجب عليه أن يتوقف عن الكلام والتفكير. في كل وقت يســـتخدم هؤلاء اللغة فإنهم يؤكدون على الدور

الواسع للمعنى، والتصورات، والنوايا والمنطق في حياتنا. ولذلك فإن من غير العقلاني الحديث عن قدرة مشابهة لدى المادة (ليس هناك عضو في الجسد يمارس التفكير)، ولكن بالتأكيد البيانات التي تأتي من الحواس كمواد خام يتم توظيفها في عملية التفكير. بمجرد أن تتأمل في هذا الأمر لعدة دقائق سوف تعرف على الفور أن الفكرة التي تقول بأن تفكيرك بشيئ ما هو مجرد عمل فيزيائي تبدو فكرة سخيفة ولا تستحق التفكير فيها.

لنقل أنك تخطط للقيام بنزهة مع عائلتك وأصدقائك، حينها سوف تفكر في الأماكن المناسبة لقضاء النزهة فيها، وتفكر في الأشخاص الذين تريد أن تدعوهم، والأغراض التي تريد أن تحضرها معك، والسيارة التي سوف تستخدمها وبقية الأمور. هل إفتراض أن التفكير بأي نحو بهذه الأمور هو عمل فيزيائي يُعد افتراضاً متماسكاً؟

النقطة المهمة هنا هي أن مخك لا يفهم، وإنما أنت الذي تفهم، فعقلك يساعدك على الفهم ولكن ليس لأن أفكارك تحدث في المخ، ولا لأنك سبب حركة الخلايا العصبية. تصرفك على أساس أن فهمك بأن التخلص من الفقر شيئ جيد عبارة عن عملية كلية Holistic لها جانبان، فهي عملية غير فيزيائية في جوهرها (كمعنى)، وهي عملية فيزيائية في التنفيذ (الكلمات والخلايا العصبية). لا يمكن فصل الفعل Act إلى فيزيائي وغير فيزيائي، لأنه فعل غير قابل للقسمة، فهو مركب Structure من الإثنين معاً: الفيزيائي وغير الفيزيائي، ولكن تزاوجهما كامل، بحيث أنه ليس من المنطقي السؤال عما إذا كانت الأفعال فيزيائية أو غير فيزيائية أو مزيج منهما. الأفعال كما هو الحال مع الشخص المكون من المادي والروحي.

تنشـــأ الكثير من التصورات الخاطئة عن طبيعة الفكر من التصورات الخاطئة حول أجهزة الكمبيوتـــر. ولكن دعونا نفترض أننا نتتعامل مع كمبيوتر عملاق مثل كمبيوتر الجـــين الأزرق The Blue Gene، والذي يســـتطيع القيام بأكثر من مائتي تريليون عملية حسابية في الثانية الواحدة. خطأنا الأول أن نفترض أن الكمبيوتر العملاق مثل النحلة أو البكتيريا. نحن نتعامل في حالة النحلة أو البكتيريا مع فاعل هو المركز في عملية عضوية موحدة. هدف كل نشاطات هذا الفاعل الحفاظ على وجـــوده بالتكاثر. أما «الجين الأزرق» فهو عبارة عن قطع تقوم مجتمعة أو منفردة بعمليات مزروعة Implanted وموجهة Directed من خالق هذا التجميع.

ثانياً، الكمبيوتر عبارة عن حزمة من الأجزاء التي لا تعرف ما تفعل عندما تقوم بمعالجة ما Performs a transaction. تتم العمليات التي يقوم بها الكمبيوتر العملاق إســـتجابة لبيانات وأوامر هي مجرد إشـــارات إلكترونية صرفـــة ودوائر كهربائية وموصلات. يقوم الإنســـان بنفس العمليات والمعالجات هذه، ولكن باستخدام آلية خاصة بالمخ، وهي تتم من خلال مركز الإدراك الذي هو على وعي بما يقوم به وهو يفهم ما تم إنجازه، وهو يؤدي كل ذلك عن قصد. ولكن لا يوجد لا فهم، ولا إدراك، ولا معنى، ولا قصد ولا شخص يقوم بذلك عندما يقوم الكمبيوتر بالأفعال نفسها، حتى لو أفترضنا أن الكمبيـــوتر يمتلـــك معالجـــات متعددة Multiple processors تعالج البيانات بســـرعات بشـــرية. مخرجات الكمبيوتر تعني لنا شـــيئاً (توقعات الطقس أو حســـابك المصرفي)، ولكن من زاوية حزمة القطع التي تُسمى كمبيوتر فإن الأرقام الثنائية: Binary digits الصفر والواحد تؤدي إلى نشاطات ميكانيكية. القول بأن الكمبيوتر يفهم ما يقوم به، هو مشابه للقول بأن خط الكهرباء يمكن أن

يفكر في مسألة الإرادة الحرة والحتمية، أو أن المواد الكيميائية في أنبوب الاختبار تُطبق مبدأ عدم التناقض Principle of noncontradiction في حل المسائل، أو أن مشغل الأقراص DVD Player يستمتع بالموسيقى التي يعزفها.

النفس

The Self

من أهم المفارقات التي وقع فيها الملحدون الجدد قولهم أن الحقيقة الفيزيائية – غير الفيزيائية Supraphysical/physical reality الأساسية التي نعرفها من خلال التجربة هي ذاتها الشخص الذي يعيش التجربة، وهي نحن. بمجرد أن ندرك حقيقة الكائن الأول First-person الذي يتكلم بصيغة «أنا»، وندرك صيغ المتكلم الأخرى، فإننا نواجه أعظم لغز ككل وهو «أنا موجود» إذاً أنا أفكر وأشعر وأعتزم وأقصد وأتفاعل. من هو «أنا»، وأين هو، وكيف أتى إلى الوجود؟ من الواضح أن ذاتك ليست شيئاً فيزيائياً، ولكنها ليس غير فيزيائية كذلك، وإنما هي بدن مادي ومحتوى روحي، فأنت لست موجوداً في خلية معينة في المخ أو جزء من أجزاء البدن. خلايا بدنك تتغير باستمرار، ومع ذلك فأنت تظل كما أنت. عندما تدرس خلاياك العصبية فستكتشف أن أياً منها لا يملك خاصية أن تكون «أنا». بالطبع، جسدك جزء مكمل، ولكنه يظل بدن لأنه مركب من أعضاء فيزيائية. أن تكون إنساناً هو أن تكون جسداً وروحاً.

في المقطع الشهير في كتابه «مقال في الطبيعة البشرية»[1]، يعلن هيوم «أنه

(1) A Treatise of Human Nature

عندما كنت أدخل بعمق فيما أسميه «نفسي» .... لم أكن قادراً قط على أن أدرك نفسي دون إحساس، ولم أكن قادراً على مراقبة أي شيئ سوى الإحساس». في هذا المقطع ينكر هيوم وجود النفس، ببساطة لأنه كما يقول «لم يجد نفسه». ولكن ما الذي يوحد Unifies خبراته المتعددة، ما الذي يجعله يعي وجود العالم الخارجي، وأن يظل كما هو خلال هذه العملية؟ يفترض هيوم أن «ذاتي» Myself هي حالة قابلة للمشاهدة Observable state مثل تفكيره ومشاعره، ولكن النفس ليست شيئاً يمكن مشاهدته. إنها حقيقة ثابتة للتجربة Experience، والتي هي فوق الواقع، وأساس لكل التجارب.

في الواقع، من بين كل الحقائق التي يمكن أن نتعرف عليها، فإن النفس هي الأكثر وضوحا، ولا يمكن إنكارها، وفي الوقت نفسه هي الأكثر غموضاً لجميع الكيانات «الفيزيائية» Physicalism. وفي البداية،لابد من القول بأنه لا يمكن إدعاء عدم وجود النفس من دون الوقوع في التناقض. الجواب على السؤال «كيف أعرف أنني موجود» هو برد السؤال بسؤال أخر «ومن هو السائل؟». النفس هي ما نحن عليه، وليس ما لدينا.

إنها «أنا» التي تنبثق من منظور المتكلم First-person perspective. نحن لا نستطيع أن نحلل النفس لأنها ليست حالة عقلية Mental state يمكن ملاحظتها أو وصفها. الحقيقة الأساسية القصوى التي نعيها هي النفس البشرية، وفهم النفس يلقي حتماً بأثره على بقية الأسئلة الأساسية ويعطينا إنطباعاً ما عن الحقيقة ككل. نحن ندرك أن النفس لا يمكن وصفها، ومن حيث الكيمياء أو الفيزياء: العلم لا يكتشف النفس، النفس هي التي تكتشف العلم. نحن ندرك أن الموقف من تاريخ الكون لن يكون متماسكاً إذا لم يكن الموقف Account من النفس متماسكاً.

الأصل اللامادي

The Origin Of The Supraphysical

كيف حدثت الحياة؟ كيف وجد الفكر والنفس؟ يبين تاريخ العالم الظهور المفاجئ لهـذه الظواهر، فالحياة ظهرت مباشـرة بعد أن برد كوكـب الأرض، وبرز الوعي بغموض في الإنفجار الكمبري[1] Cambrian explosion، وظهرت اللغة من «الرموز النوعيـة» [2] Symbolic species دون تطور مسـبق. نطاق الظاهرة محل النقاش يبدأ مع الشفرة Code، ونظم معالجة الرموز، والقصد Goal-seeking، والفاعلين الواعـين، هذه الأمور في الطرف الأول في مقابل الوعي الذاتي والفكر التصوري Conceptual thought والنفس البشرية، في الطرف الأخر.

الأمر المتماسـك الوحيد بالنسـبة لهذه الظواهر هو أن لها أبعاداً مختلفة من الوجـود، وأنها ذات طبيعة غير فيزيائية بطريقة أو بأخرى. تتكامل هذه الظواهر مـع مـا هو مادي ولكـن بصورة «جديدة» بشـكل جذري. نحـن لا نتكلم هنا عن «أشباح في الآلة»[3] Ghosts in machines، بل نتكلم عن فاعلين من أنواع مختلفة،

(١) ظهور مفاجيء جيلولوجي لمستحدثات أسلاف الحيوانات المألوفة ضمن السجل الأحفوري الأرضي.

(٢) إشـارة إلى كتاب تيرنس ديكون Terremce Deacon يجمع وجهات نظر من الأحياء العصبية ونظرية التطور والسميئيات.

(٣) مصطلح أبتكره غلبرت رايل للتعبير عن ثنائية العلاقة بين المادي والمعنوي.

بعضها واعي، والبعض الأخر واعي ويفكر. وفي كل حالة لا توجد ثنائية Dualism أو حيوية Vitalism، ولكن مجموع من التكامل Integration that is total، كلية Holism تتضمن ما هو فيزيائي وما هو معنوي.

على الرغم من أن الملحدين الجدد فشلوا في إستيعاب طبيعة مصدر الحياة والوعي والفكر والنفس فإن السؤال عن أصل غير فيزيائي يبدو واضحاً: لابد أن الأصل غير الفيزيائي نشأ من مصدر غير فيزيائي. لابد أن الحياة والوعي والنفس نشاؤا من مصدر حي وواعي ويفكر. إذا كنتُ في مركز الوعي والفكر الذي يمكنه أن يحب ويعتزم وينفذ فإنني لا أفهم كيف أن مراكز هذه النشاطات أتت من شيئ ما غير قادر على مثل هذه النشاطات.

على الرغم من أن العمليات الفيزيائية البسيطة يمكن أن تخلق ظواهر فيزيائية معقدة، فإننا لسنا بصدد العلاقة بين الظواهر البسيطة والمعقدة، ولكن نحن بصدد أصل المراكز. ببساطة، إن من غير المعقول أن أي مصفوفة مادية Material array يمكن أن تنتج فاعلين يفكرون ويفعلون. المادة لا يمكن أن تنتج إدراكات أو إحساسات. حقل القوة A force field لا يفكر أو يخطط. إذاً على المستوى المنطقي وعلى مستوى التجربة اليومية، نصبح على وعي مباشر بأن عالم الموجودات الحية والواعية والمفكرة أساسه مصدر حي هو العقل.

الملحق الثاني

الوحي الذاتي للإله
في التاريخ البشري

THE SELF-REVELATION OF GOD IN HUMAN HISTORY

نقاش حول المسيح مع رايت

أنتوني فلو: أسئلة عن الوحي الإلهي

حتى الآن ناقشت المعلومات التي قادتني للقبول بوجود العقل الإلهي. اولئك الذين يسمعون هذه الحجج حتماً سيتسألون عن رأيي بخصوص إدعاءات الوحي الإلهي. في كل كتبي ضد الإلوهية ومناظراتي المتعددة وقفت موقفاً مؤيداً لإدعاءات الوحي الإلهي أو التدخل الإلهي. موقفي الحالي هو أكثر إنفتاحاً تجاه هذه الإدعاءات. في الواقع، أنا أعتقد أن الدين المسيحي يستحق بكل وضوح الإحترام والتقدير بغض النظر عما إذا كان موقفه من الوحي الإلهي صحيحاً.

ليس هناك أي دين يمتلك مزيجاً من شخصية لها جاذبية مثل جاذبية السيد المسيح ومفكر من الطراز الأول مثل القديس بولس St. Paul. تقريباً، كل الحجج المتعلقة بالمحتوى الديني تمت صياغتها من قبل القديس بولس، الذي كان يمتلك عقلاً فلسفياً ذكياً، وكان بمقدوره التحدث والكتابة بكل اللغات ذات العلاقة بالمحتوى الديني. إذا كنت تريد من الإله المقتدر أن يصنع لك ديناً، فإن الدين المسيحي هو ذلك الدين.

ناقشت في الطبعات الأولى من كتاب «الإله والفلسفة» الإدعاءات المسيحية إلى حد ما، وذهبت إلى أن التقدم الهائل الذي أُحرز في الدراسات النقدية للعهد الجديد وغيرها من المصادر لتاريخ نشأة المسيحية لا يدع لأولئك الذين يقدمون

إدعاءات واسعة وكبيرة مجالاً للاختباء. ثانياً، أنه لا يمكن معرفة المعجزات من خلال دليل تاريخي، وهذا يخل بمصداقية الإدعاء بأن قيامة المسيح يمكن معرفتها باعتبارها حقيقة تاريخية.

في مناظراتي المختلفة عن عودة المسيح، قدمت نقاطاً إضافية. النقطة الأولى، هي أن الوثائق التي تؤرخ للحدث المُدعى كُتبت قبل ثلاثين أو أربعين سنة بعد ذلك الحدث. ليس هناك دلائل معاصرة، وإنما مجرد وثائق كُتبت بعد وقوع الحدث. النقطة الثانية، هي أننا لا نملك وسيلة للتحقق من أن المسيح العائد هو نفسه الذي ظهر للمجموعات التي أدعت رؤيته، لأن ما عندنا من وثائق يقول فقط أن هذا الحدث غير الإعتيادي قد وقع بالفعل. والنقطة الأخيرة هي إن الدلائل على عودة المسيح محدودة جداً. في الواقع أن وثائق العهد الجديد New Testment عن عودة المسيح كانت رسائل القديس بولس، ولم تكن نصوصاً إنجيلية Gospels، وفي هذه الوثائق هناك القليل جداً من التفاصيل الحسية على عودة المسيح.

اليوم أقول بأن التحدي المتعلق بفكرة عودة المسيح أكثر تاثيراً من أي تحدي ديني أخر. لا أزال أعتقد بأنه عندما ينظر علماء التاريخ بطريقة إحترافية إلى دلائل عودة المسيح فإنهم يحتاجون إلى أكثر بكثير مما هو متوفر، فهم يحتاجون إلى دلائل من أنواع مختلفة. أعتقد أن الإدعاء بأن الإله تجسد في المسيح هو إدعاء فريد من نوعه، ولا أعرف كيف يمكن الحكم على ذلك سوى بالإيمان أو عدم الإيمان بصحته. لا أرى أية مبادئ عامة يمكن أن ترشدنا إلى ذلك. في سياق منظوري الفكري الجديد، شاركت في نقاش عن المسيح مع الفقيه التاريخي المعروف الأسقف رايت Bishop N. T. Wright أسقف دورهام، والباحث في العهد الجديد، وفيما يلي ردوده على بعض المواضيع التي طرحتها في كتاباتي.

رد نيكولاس توماس رايت

N. T. Wright: Response

لا أعرف من أين أبدأ، فالدلائل على وجود المسيح كثيرة جداً، بحيث أنني كعالم تاريخ أجد أن لدينا دلائل كثيرة على المسيح أكثر من أي شخص في العالم القديم. من الواضح أن هناك بعض شخصيات من العالم القديم لدينا لها تماثيل ونقوش. مــن ناحية أخرى، لدينا أيضاً تماثيل للآلهة والإلهات في العالم القديم جداً، ومع ذلــك لا يمكنك أن تكــون متأكداً من وجود هذه الشــخصيات. ولكن فيما يخص المســيح فإن كل الدلائل تشير بشكل قاطع إلى وجود هذه الشخصية العظيمة في العشرينات إلى الثلاثينات من القرن الأول، والأدلة تتسق مع ما نعرفه عن اليهودية فــي تلك الحقبة (على الرغم من أن الكثير منه كُتب لاحقاً) بحيث أنه من الصعب على أي باحث تاريخي –لا أعلم أي باحث تاريخي– أن يشــك في وجود المســيح. ربما يكون هناك شخص أو شخصين. هناك رجل أسمه ويلس Wells هو الوحيد الذي شكك في ذلك حديثاً. من وقت لأخر تجد شخص مثل اليغرو J. M. Allegro الذي كتب قبل جيل من الآن كتاباً إســتناداً إلى مخطوطات البحر الميت، واستنتج أن المسيحية ليست سوى عبادة الفطير المقدس[1].

(١) المقصود بالفطير المقدس ذلك الفطير الممزوج بدم بشــري من دم (الجوييم) أي الغرباء، وخلطه بالدقيق الذي تعد منه فطائر عيد الفصح. وقد سَرت هذه العادة المتوحشة إلى اليهود عن طريق كتبهم المقدسة.

لا يوجد عالم يهودي أو مسـيحي أو لاأدري Agnostic على الإطلاق أخذ هذا الكلام على محمل الجد. من الواضح جداً أن المسـيح شـخصية موثقة جداً في التاريخ الحقيقي، ولذلك لابد لهذا السؤال أن يُنحى جانباً.

ما هي الأسس للإدعاء من خلال النصوص بأن الإله تجسد في المسيح؟

إيماني بالمسيح كأبن الإله المتجسد لا يستند إلى النصوص الواردة في الإنجيل التي تزعم ذلك، بل إن إيماني بذلك أعمق من ذلك بكثير، بل يعود إلى سؤال مهم جداً حول كيف فهم يهود القرن الأول وجود الإله، وفعل الإله في العالم، وحتماً أن ذلك يعود إلى المزامير[١]، وإلى أشعيا [٢]، وإلى سفر التثنية[٣] وسفر التكوين[٤] وهلم جرا. ونستطيع أن نرى كيف أن التراث اليهودي من أيام المسيح فسر هذه النصوص. لقد تكلموا عن الإله الذي صنع الكون، وهو أيضاً إله إسرائيل [٥]، ويتكلمون عن هذا الإله على أنه مؤثر في العالم، وموجود ويفعل أمور في العالم وداخل إسرائيل، ويتحدثون عن ذلك بخمسة طرق (لا علاقة لذلك بطرق توما الأكويني الخمسة[٦]).

(١) المزامير أو مزامير داود هي تسابيح لله، وأناشيد حمد وسجود وتمجيد له، وقد جاءت المزامير في الكتاب المقدس في عدة أماكن،

(٢) يعتبر الكاتب لسفر أشعيا في العهد القديم من الكتاب المقدس.

(٣) سفر التثنية أو سفر تثنية الاشتراع (بالعبرية: דברים) أحد الأسفار المقدسة في الكتاب المقدس لدى الديانة اليهودية والعهد القديم في المسيحية؛ ولا خلاف بين مختلف طوائف الديانة اليهودية والمسيحية حول قدسيته

(٤) سفر التكوين هو أول أسفار التوراة (أسفار موسى الخمسة) وأول أسفار التناخ، وهو جزء من التوراة العبرية، كما أنه أول أسفار العهد القديم لدى المسيحيين

(٥) في التوراة وفي التراث اليهودي يعتبر اسم «إسرائيل» اسم بديل ليعقوب، وتظهر قصة تسمية يعقوب بإسرائيل في سفر التكوين

(٦) خمس حجج قدمها القديس توما الإكويني للبرهنة على وجود الله

يتحدثــون عن كلمة الإلــه: لقد تكلم وكفى، لقد قال الإلــه «ليكن نور» فأصبح هناك نور. كلمة الإله حية وفاعلة، وفي ســفر أشــعيا لدينا صورة قوية جداً عن كلمــة تنزل من الأعلى كالمطر أو كالثلوج وتفعل أشــياءاً في هذا العالم. يتحدثون عــن حكمة الإله، ونحن نرى ذلك في الأمثال بشــكل خاص، وفي عدة روايات في الإنجيل كذلك. الحكمة تصبح نوعاً من التجســيد لذات الإله الثانية. حكمة الإله فاعلة في العالم، وتتواجد في إسرائيل، وهي تقوم بأعمال تساعد الناس أنفسهم حتى يعرفوا كيف يصبحوا حكماء.

يتحدثــون عن مجــد الإله الحاضر في المعبــد. علينا أن لا ننســى بأن المعبد بالنســبة لليهود في القرن الأول، كان رمزاً للتجسيد وهم يؤمنون بأن خالق الكون وعد بالعودة، وأن يكون مســكنه في المعبد بالقرب مــن الطريق إلى القدس. قبل أن تذهــب بالفعل إلى القدس وتفكر في هذا الأمر فإنك لن تدرك ذلك، وهو أمر غير عادي على الإطلاق. ويتحدثون عن قانون الإله الكامل الذي ينعش الروح (كما فــي المزمور ١٩). القانون مثل الحكمة، ليس مجرد قانون مكتوب. إنه قوة وجودية موجــودة وحاضــرة عندما أراد الإله أن يُظهر ذاته. ثــم، أخيرا يتحدثون عن روح الإله، الروح التي تُسرع إلى شمشون[١] في سفر القضاة [٢].

روح الإله التي تمكن الأنبياء أن يصبحوا أنبياء. روح الإله التي تســكن البشــر حتى يتمكنوا من القيام الاستثنائي بتمجيد الإله.

---

(١) شمشــون بن منوح الدني (بالعبرية: שִׁמְשׁוֹן) من شــخصيات العهد القديم، هو بطل شــعبي من إســرائيل القديمة اشتهر بقوته الهائلة وورد ذكره في سفر القضاة في الأصحاحات ١٣ إلى ١٦.

(٢) هو سابع أسفار التناخ الكتاب المقدس في الديانة اليهودية والعهد القديم في المسيحية؛ ولا يوجد خلاف على قدســيته لدى مختلف طوائف الديانتين باستثناء الصدوقيون إحدى الطوئف اليهودية القديمة التي رفضت جميع أسفار التناخ عدا أسفار موسى الخمسة الأولى المعروفة باسم التوراة.

هذه الطرق الخمسة عن فعل الإله في العالم هي الطرق التي كان اليهود في القرن الأول يُعبرون فيها عن إيمانهم بالواحد الذي يعرفونه على أنه هو الإله الأبدي خالق العالم حيث كان موجوداً وفاعلاً في العالم، وبشكل خاص داخل أرض إسرائيل. ونستطيع أن نرى ذلك ليس في العهد القديم فحسب، وإنما نستطيع رؤيته في الأثار التي خلفها العهد القديم في يهودية القرن الأول وفي كتابات الحاخامات [١]، وفي مخطوطات البحر الميت [٢]، وفي نصوص أخرى.

الآن، عندما نأتي إلى هذه الطرق الخمسة في الأناجيل نكتشف أن يسوع لا يتحدث فقط بل يتصرف، ولكن يتصرف كما لو أن هذه الطرق الخمسة تصبح حقيقة بطريقة جديدة من خلال ما يقوم به. ونرى ذلك بشكل خاص في مثال الزارع. الزارع يزرع الكلمة والكلمة تقوم بعملها، ولكن من الذي يقوم بعملية التعليم، إنه يسوع ذاته.

يتحدث يسوع كذلك بطرق مختلفة حول الحكمة: حكمة الإله حيث يقول: «أنا أفعل هذا، وأنا أفعل ذلك». ويمكنك تتبع تقاليد وحكم العهد القديم، ليس فقط في الأقوال الفردية ليسوع، ولكن في الطريقة التي يمارس فيه ما كان يقوم به، ونقاشاته مع الرجل الحكيم الذي بنى بيته على الحجارة والرجل الجاهل الذي بنى بيته على الرمال، وهي نموذج لتعليم الحكمة. الرجل الحكيم هو «الشخص الذي

---

(١) الرَبّانيّ في اليهودية، ويسمى الحبر [والراب والحاخام، هو زعيم ديني. كلمة حاخام العربية ترجع إلى الكلمة العبرية חכם أي «حكيم».

(٢) مخطوطات البحر الميت تضم مايزيد على ٨٥٠ قطعة مخطوطة، بعضها مما سمي لاحقا الكتاب المقدس وبعضها من كتب لم تكن تعرف أو كانت مفقودة. وقد كانت في في جرار فخارية كانت مطلية بالنحاس أول من عثر عليها راعيان من بدو التعامرة المتجولين واكتشف المزيد بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥٦ في ١١ كهفًا في وادي قمران قرب خربة قمران شمال البحر الميت. وقد أثارت المخطوطات اهتمام الباحثين والمختصين بدراسة نص العهد القديم لأنها تعود لما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأول منه.

يسمع هذه الكلمات من الألغام (الحكم الرمزية) ثم يفعلها. وهكذا فإن الحكمة ويسوع متلازمان معاً بشكل وثيق جداً.

ومن ثم، هناك المعبد حيث يتصرف يسوع كما لو كان هو المعبد شخصياً. عندما يقول يسوع إن «خطاياك مغفورة» فهي صدمة حقيقية، غفران الخطايا يُعلن عادة عندما تذهب إلى المعبد وتستغفر، ولكن يسوع يقول لك أنك تستطيع أن تستغفر في الشارع، عندما تكون مع يسوع وهو يحدق في مجد الإله.

عندما نعود إلى الشريعة اليهودية، نكتشف شيئاً رائعاً. أحد العلماء اليهود الكبار في يومنا هذا، يعقوب نوسنر Jacob Neusner، وهو الذي كتب العديد من الكتب الرئيسية في اليهودية، كتب كتاباً عن يسوع. في ذلك الكتاب، يقول نوسنر إنه عندما يقرأ أن يسوع قال أشياءاً مثل «لقد سمعت أنه قيل كذا وكذا، ولكن أقول لكم: هذا وهذا وهذا «، أريد أن أقول ليسوع هذا: من تعتقد نفسك؟ الإله؟

لقد قدم يسوع قانوناً جديداً، وقدم تفسيراً جذرياً جديداً للقانون، ويدعي بمعنى ما بأنه تجاوز الطريقة التي كان يُفهم أو يُفسر بها القانون. وأخيراً هناك الروح، يقول يسوع «إذا كُنت أنا روح الإله أتخلص من الشياطين فإن مملكة الإله نزلت علي». فما نراه ليس كثيراً، فيسوع يدور بين الناس قائلا: «أنا هو الشخص الثاني من الثالوث. إما أن تؤمنوا بذلك أو لا». وهذه في الحقيقة ليست وسيلة لقراءة الانجيل. بدلاً من ذلك، يجب أن تُقرأ كما قرأها المؤرخون في القرن الأول، بحيث يمكننا أن نرى يسوع يتصرف بحيث نقول جميعا: الطريقة الرائعة التي يتعامل بها الإله مع البشر قد حدثت بالفعل.

إنها ليست من خلال كلمة أو حكمة أو غيرها، إنها مَن، وفي، ومن خلال شخص. الشيء الذي يجمع كل ذلك معاً (كتبت هذا في الفصل قبل الأخير من

كتابي يسوع ونصر الإله Jesus and the victory of God) هو أن الكثير من اليهود في أيام يسوع كانوا يعتقدون أنه في يوم ما سوف يعود إله إسرائيل Yahweh في شخص للعيش داخل الهيكل. تجد ذلك في سفر حزقيال، وسفر أشعيا، وسفر زكريا[١]، والعديد من النصوص اللاحقة. ولذلك هم يعيشون على أمل أنه في يوم من الأيام سوف يعود الإله، لإنه إذا عاد سوف يعيد بناء الهيكل، ولكن ليس بالطريقة التي فعل بها هيردوس[٢] Herod ذلك. هناك سلسلة من التوقعات تتعلق بعودة الإله. كما نجد في الأناجيل صورة إستثنائية عن يسوع عند قيامه بالرحلة الأخيرة إلى القدس وهو يحكي قصص الملك الذي عاد.

لقد وجدت كما وجد الأخرون بأن يسوع عندما كان يحكي قصص الملك الذي عاد إلى شعبه، أو السيد الذي عاد إلى خدمه، لم يكن يتحدث عن العودة الثانية في المستقبل. لم يكن التلاميذ مهيئين لذلك، كما إنهم لم يكونوا يعلمون بأنه ذاهب ليُصلب. كان يسوع يتحدث عن أهمية رحلته إلى القدس، وهو كان يدعو من لهم آذان إلى أن يسمعوا وأن يأخذوا صورة الإله Yahweh في العهد القديم إلى صهيون Zion ويضعوها في عقولهم وهم يرون النبي الصغير وهو يسافر إلى القدس راكباً حمار. أعتقد أن يسوع راهن على حياته، على أساس الاعتقاد بأنه دُعي لتجسيد عودة الرب إلى صهيون[٣].

---

(١) أسفار من العهد القديم.

(٢) هوردس أو هيرودس (العبرية: הוֹרְדוֹס؛ ٧٣ قبل الميلاد – ٤ قبل الميلاد) هو ابن الدبلوماسي انتيباتر الإدومي من زوجته النبطية، عين حاكماً على الجليل ثم أصبح ملك اليهودية. وقد بسط نفوذه على المنطقة الممتدة من هضبة الجولان شمالا إلى البحر الميت جنوبا، وكانت ايام حكمه تمثل ازدهاراً ثقافياً واقتصادياً، وقد كان حليفاً أميناً للإمبراطورية الرومانية كان مقره في مدينة القدس، أي اورشليم، وقد اشتهر بمشاريع البناء الفاخرة التي بادرها في هذه المدينة، ومنها بناء معبد القدس الكبير المسمى هيكل سليمان.

(٣) صهيون (بالعبرية : צִיּוֹן ومعناها الحصن) هو واحد من التلين الذين كانت تقوم عليهما مدينة أورشليم القديمة حيث أسس داود عاصمته الملكية.

كلمة تجسد Embody كلمة إنجليزية، أما المقابل اللاتيني لها فهو Incarnation، ولكنني أفضل كلمة Embody على الأقل في الأماكن التي أقوم فيها بالوعظ حيث يمكن للناس إستيعابها أكثر من اللفظ اللاتيني، ولكنها تؤدي نفس المعنى.

أنا لا أظن أن يسوع يعتقد أنه طُلب منه أن يتصرف على أساس هذا الافتراض. وأعتقد أن هذا كان مخيفاً بشكل كبير ليسوع. أعتقد أنه كان يعلم أنه قد يكون في الواقع مخطئ. ولكن في نهاية الأمر هناك أناس يصدقون بأن شيئ ما يمكن أن يتحول، مثل الرجل الذي يعتقد بأنه إبريق من الشاي. أعتقد أن يسوع كان يعلم أن هذه دعوته، وأنه يجب أن يتعامل على هذا الأساس، وأن عليه أن يعيش ويعمل على أساس أن يجسد عودة الرب إلى شعبه.

لهذا السبب أود أن أقول إن يسوع، بعد موته وقيامته (وهذه قصة مختلفة تماما. سنأتي إليها قريباً) تم التعرف عليه بسرعة كبيرة جداً من قبل أتباعه على أنه المجسد لإله إسرائيل. واجهوا قيامته، ولكن بعد أن عادوا إلى عقولهم، إلى كل ما شاهدوه وسمعوه وما عرفوه عن يسوع، صفعوا وجوههم «هل كنتم تعرفون مع من كنتم كل هذا الوقت؟ لقد كنا مع شخص تجسد فيه إله إسرائيل، ثم راحوا يحكون القصص مراراً، بشيئ من الرهبة والهلع والإدراك المتاخر، متفكرين في كل ما حدث طوال الوقت الفائت.

هذه فكرة استثنائية جبارة، ومع ذلك فإن هذه الفكرة تعطي معناً عميقاً ومتجذراً تاريخياً لطريقة رؤية يسوع لنفسه. والآن بالتأكيد يمكن لأي شخص أن يقول لي: قد تكون على حق، وقد يكون يسوع بالفعل نظر إلى نفسه على هذا النحو، وقد يكون تلاميذه وصلوا للتفكير بذلك أيضاً، ولكن بالتأكيد أن يسوع كان مخطئاً، إما لأننا نعلم مسبقاً بأنه إذا كان هناك إله فإنه لا يمكن أن يكون إنساناً، وإما لأننا

نعلم بشـــكل مسبق بأن أي شخص يتكلم عن نفســـه بهذه الطريقة يجب أن يكون مجنوناً أو مختلاً عقلياً أو مخدوعاً.

لهؤلاء أريد أن أقول حســـناً، أتركوا هذه المســـلمات جانبـــاً في الوقت الحالي، وحاولوا أن تســـتحضروا صورة يهود القـــرن الأول وهو يعتقدون بذلك ويتصرفون على هذا الأســـاس، وبعد ذلك أطرحوا السؤال عن قيامة المسيح، وبعدها أطرحوا جميع أسئلتكم عما نعنيه بكلمة «إله»، لأن المسيحيين الأوائل قالوا بأن كلمة «الإله» لازالت غامضة وأنها تصبح واضحة فقط عندما ننظر إلى يســـوع. يقول القديس يوحنـــا الإنجيلي[1] «لم ير أحد الإلـــه في أي وقت، ولكن الإبن الوحيد الذي يعيش فـــي حضن الأب جعل منه معروفـــاً». وفقاً للغة اليونانية، فإن المعنى الحرفي لهذا الكلام هو «قَدَم لنا تفســـيراً لما هو الإله، وأرانا من هو الإله على وجه الحقيقة». إنه جواب طويل لسؤال جوهري، ولكنني لا أستطيع إختصاره أكثر من ذلك. معظم الناس حســـب خبرتنا يفكرون في الإله والمسيح بهذه الطريقة، ولكن هذه الطريقة التي أفكر بها أنا وهي الطريقة التي فكر بها المســـيح والمسيحيون الأوائل، وكذلك الذيـــن كتبوا الأناجيل، ونحن نقوم بعمل جيد في أن نجعل عقولنا تلتف حول هذا الفهم.

(١) أحد تلامذة السيد المسيح.

ما هي الدلائل على قيامة يسوع؟

دعونـــي أختصر قدر الإمكان. لقد قرأ والـــدي كتابي المطول «قيامة أبن الإله» The Resurrection of the Son of God عندما كان في الثالثة والثمانين من عمره. أســـتغرقت منه قراءة الكتاب المكون من ٧٠٠ صفحة ثلاثة أيام فحســـب. لقد ركز على قراءة الكتاب بشـــكل كامل خلال هذه الأيام، وبعدها أتصل بي تلفونياً وقال لـــي: لقد أنتهيت من قراءة الكتاب، فتعجبت مـــن ذلك، فقال «نعم لقد قرأته وقد بدأت أستمتع بقراءته بعد الصفحة رقم ٦٠٠». أعتقدت أن كلامه نوع من المجاملة الفاترة. لقد كان والدي يعمل في صناعة الأخشاب. قلت لوالدي «هل تعلم يا أبي أن الصفحات الخمسمائة هي جذع النظام Root system، وإن الشجرة إذا لم يكن لها جذع رئيسي فإنها لن تكون قادرة على الانتصاب ولن تعطي أية ثمرة. رد والدي قائلاً «لقد أدركت ذلك ولكنني أفضل دائماً الفروع العليا من الشجرة».

أعود للحديث عن جذع النظام Root system قليلاً. من الأمور التي اســـتمتعت بهـــا عند تأليف الكتاب هو العودة إلى الأســـس التقليديـــة والبحث عن معتقدات الحيـــاة بعد الموت لدى الشـــعوب. يعتقد اليونانيون والرومـــان والمصريون بالحياة بعد الموت، وهناك تنوع كبير في المعتقدات بهذا الشأن، ولكن فكرة القيامة ليست موجودة في العالم اليوناني الروماني.

في الواقع، يقول بليني Pliny، وإسخيلوس Aeschylus، وهوميروس Homer، وشيشرون Cicero، وجميع أطياف الكتّاب الأوائل بأننا «نعرف بالتأكيد أن القيامة لم تحدث». وفي الوقت نفسه طور اليهود إعتقاداً لاهوتياً محدداً عن القيامة (المقصود قيامة المسيح)، وهو «أن شعب الإله سوف يعود جسدياً إلى الحياة بعد الموت في النهاية». عامل الوقت مهم، لأن معظم المسيحيين في العالم الغربي يستخدمون كلمة «القيامة» Resurrection بشكل غامض على أنها تعني «الحياة بعد الموت»، وهو ما لم يحدث أبداً في العالم القديم. لقد كان المصطلح يُستخدم بشكل دقيق جداً، وهو ما أسميه الحياة بعد الحياة بعد الموت. وبعبارة أخرى، فإنت أولاً تموت وتصبح ميتاً وجسدك غير حي، وبعد ذلك تبعث بمعنى أنك تعيش حياة جسدية، وهي حياة جديدة بعد «الحياة بعد الموت».

نستطيع تتبع الطريقة التي يُتكلم بها عن معتقد «القيامة» في الديانة اليهودية. القيامة هي سلسلة من مرحلتين: بعد وفاتك مباشرة تدخل في مرحلة إنتظار[1]، وبعد ذلك تنتقل إلى مرحلة حياة جديدة تماماً تسمى «القيامة». في الكتاب الذي استمتعت بكتابته، رسمت خريطة عن المعتقدات اليهودية في موضوع الحياة بعد الموت على ضوء خريطة أكبر من المعتقدات القديمة لموضوع الحياة بعد الموت، وهناك ضمن الديانة اليهودية تباينات بهذا الخصوص.

أمن الفريسيون [2] Pharisees بالقيامة، ويبدو أن هذا كان هو الاعتقاد الشائع

---

(١) مشابهة لفكرة البرزخ في الديانة الإسلامية.

(٢) الفريسيون أحد الأحزاب السياسية الدينية التي برزت خلال القرن الأول داخل المجتمع اليهودي في فلسطين؛ يعود أصل المصطلح إلى اللغة الآرامية ويشير إلى الابتعاد والاعتزال عن الخاطئين؛ كان الفريسيون يتبعون مذهبًا دينيًا متشددًا في الحفاظ على شريعة موسى والسنن الشفهية التي استنبطوها. كان الفريسيون على خلاف دائم مع الصدوقيين الذين أنكروا القيامة والملائكة والأرواح.

في فلسطين اليهودية أيام يسوع. أما الصدوقيين [1] Sadducees فلم يعتقدوا بالحياة بعد الموت على الإطلاق، وقد أعتقد أشخاص مثل فيلو Philo وربما إسنس Essenes بوجود حياة جسدية خالدة واحدة، بحيث أنك بعد الموت تذهب إلى حيث تذهب وتبقى هناك، بدلاً من أن تمر بتجربة «القيامة» أكثر من مرة [2].

أكثر ما يثير الاهتمام أنه في كل المجتمعات التي خضعت للدراسة في هذا الصدد، تجد الناس محافظين جداً في معتقدات الحياة بعد الموت. وفي مواجهة الموت، يميل الناس إلى المعتقدات والممارسات التي يعرفونها والتي أخذوها عن عوائلهم ومن عاداتهم ومن قراهم، وهكذا تتم طقوس الدفن. ولذا فإنه من اللافت للنظر حقاً أن المسيحيين الأوائل المعروفين لدينا في الفترة حتى نهاية القرن الثاني عندما بدأ الغنوصيين[3] Gnostics باستخدام كلمة القيامة بمعنى مختلف تماماً فإن كل المسيحيين الأوائل المعروفين لدينا خلال الأجيال الأربعة أو الخمسة الأولى يعتقدون بالحياة الجسدية بعد الموت، رغم أن أغلب ما جاء في هذه القصص جاء من أيام العالم الوثني حيث كانت فكرة القيامة تعتبر هراءاً مطلقاً.

هناك أسطورة حديثة هذه الأيام تقول أننا نحن فقط ممن يمتلك علماً معاصراً

---

(١) الصدوقيون هم إحدى الأحزاب الدينية السياسية التي نشأت ضمن الديانة اليهودية وذكرت في العهد الجديد؛ فمن المعروف أنه خلال القرن الأول قبل الميلاد ومن ثم خلال القرن الأول انقسم المجتمع الديني اليهودي إلى عدد من الأحزاب والجماعات السياسية داخل المؤسسة الدينية، وقد كان أكبر حزبين هما الصدوقيين والفريسيين

(٢) بمعنى عدم وجود حياة برزخية

(٣) الغنوصية (أو العارفية أو العرفانية) هي مدرسة عقائدية أو فلسفية حلولية نشأت حول القرن الأول الميلادي. خذت الغنوصية طورا جديدا لدى ظهور المسيحية لإثبات تواؤم المعتقدين. وكانت لا تتعارض مباشرة مع الديانات التوحيدية كالمسيحية واليهودية ولكنها تم مقاومتها وقمعها من قبل الكنيسة منذ فترة مبكرة.

لفترة ما بعد التنوير[1] أكتشف أن الأموات لا يبعثون. هؤلاء الناس يؤمنون بالمعاجز الخيالية، ولكنهم بالتأكيد مخطئون، وهناك نص جميل للويس C. S. Lewis متعلق بهذا الموضوع.

هذا النص يتكلم عن حمل العذراء بالمسيح، وكيف أن جوزيف[2] Joseph لم يكن قلقاً بشأن حمل العذراء، ليس لأنه لم يكن يعلم مصدر هذا الحمل، وإنما كان قلقاً لأنه كان يعلم بذلك. وكذلك الحال مع قيامة المسيح، فالناس في العالم القديم كانوا يشعرون بالإضطراب من الإدعاء المسيحي، لأنهم كانوا يعتقدون أن من يموت يظل ميتاً إلى الأبد.

وكخلاصة، نستطيع تتبع صيغ مختلفة من الديانة اليهودية في فترة المسيحية الأولى فيما يخص القيامة.

أولاً: أنه بدلاً من قيامة تحصل لجميع البشر في النهاية، فإن المسيحيين الأوائل كانوا يعتقدون أن القيامة تختص في البداية برجل واحد فقط. وحسب علمي لا يوجد يهودي في القرن الأول يعتقد بأن القيامة مختصة برجل واحد يُبعث قبل كل البشر، ورغم أن هذا تطور جديد، إلا أن الجميع يعتقدون بالبعث.

ثانيا: أنهم يعتقدون أن القيامة تنطوي على تحول لجسد مادي. يبدو أن اليهود الذين يعتقدون بالقيامة قد ذهبوا في إتجاهين، فالبعض قال أن القيامة

---

(١) عصر التنوير ويسمى عصر الأنوار (بالفرنسية: Siècle des Lumières) مصطلح يشير إلى القرن الثامن عشر في الفلسفة الأوروبية والذي برز فيه مفكرون وفلاسفة الأنوار.

(٢) النبي يوسف الصديق. يحتفَل بذكرى يوسف كواحدٍ من الأجداد المقدسين في تقويم القديسين في الكنيسة الأرمنية الرسولية يوم ٢٦ يوليو. وفي الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والكنائس الكاثوليكية الشرقية التي تتبع المذهب البيزنطي، يُعرَف باسم «يوسف ذو الجمال الآسر

(البعث) هي خلق جسد جديد مشابه تماماً لما نحن عليه، في حين ذهب البعض الأخر إلى أنه سوف يكون هناك بدن نوراني، يضيئ مثل النجم. تكلم هؤلاء عن نوع جديد من المادية Physicality، نوع جديد من التجسيد Embodiedness – هذا الاعتقاد موجود في كتابات بولس- فهو جسد لكونه جماد وله حجم، ولكنه تحول بحيث لم يعد يحس بالألم أو المعاناة أو الموت، وهذا أمر جديد غير موجود في اليهودية.

ثالثاً: يعتقدون بأن المسيح نفسه بُعث من جسد ميت، وهو ما لا يعتقد به يهود المعبد الثاني Second Temple، لأن أتباع المعبد الثاني يعتقدون أن المسيح ما كان ليُقتل أبداً، وهذا أمر جديد أيضاً.

رابعاً: هم يستخدمون فكرة القيامة بطريقة جديدة تماماً. تم استخدام هذه الفكرة في اليهودية في استعارة Metaphor «العودة من السجن» كما نجدها في سفر حزقيال Ezekiel، ولكن في بدايات المسيحية تم استخدام هذه الفكرة وربطها بالتعميد[1] Baptism والقداسة Holiness ومفاهيم أخرى من العقيدة المسيحية التي لم تكن في البال في اليهودية، ولم يكن معروفاً كيفية إستخدامها لمفهوم القيامة، وهو يمثل طفرة في وجهة النظر اليهودية.

خامساً: أن المسيحيين الأوائل يعتبرون أن إله البشر قدم القيامة كنوع من

(١) التعميد أو المعمودية هي طقس مسيحي يمثل دخول الإنسان الحياة المسيحية. تتمثل المعمودية باغتسال المعمّد بالماء بطريقة أو بأخرى.لشخص الذي يجري تعميده يصبح تابعاً ليسوع المسيح وتابعاً للكنيسة المسيحية. والعماد يمثل موت يسوع المسيح وقيامته في الحياة الجديدة. أيضاً الطفل المعمد يخلّص من الخطيئة الأصلية التي هي خطيئة آدم وحواء ويدخل الحياة مرة أخرى كإنسان جديد. وبحسب الإعتقاد المسيحي، فإن أول عماد في التاريخ كان عماد المسيح على يد يوحنا المعمدان في نهر الأردن.

الهدية، والمسـيحيون مدعوون للعمل مع الإله في عيد الفصح [1] Easter لتوقع ما سـيفعله إله العالم الجديد[2]. هذه الفكرة جديدة للغاية، ولكنها تمثل تطوراً في إطار الديانة اليهودية فقط.

سادساً: أن عقيدة القيامـة تحولـت من عقيدة مهمة من ضمن عقائد عديدة مهمـة – كمـا هو الحال فـي اليهودية – إلى أن تصبح مركز كل شـيئ، وإذا مـا اقتطعنا هذا الاعتقاد من معتقدات أباء القرن الثاني فإن البناء الفكري لهم يتعرض للتدمير . لابد أن نصل إلى نتيجة مفادها أن شيئاً ما حدث جعل من الاعتقاد بالقيامة ينتقل من الإطار الخارجي إلى المركز.

سابعاً وأخيـراً: لا نجد في بواكيـر المسيحـية توجهاً في الاعتقاد لما يحصـل بعد المـوت. أما في اليهوديـة، فهناك وجهات نظر عـدة، وهناك أيضاً عدد كبير من وجهات النظر بهذا الخصوص في العالم الوثني، ولكن في بواكير المسـيحية لا نجد سـوى القيامة في ذاتها. تثير معتقدات معظم الناس المحافظـين في موضوع الحياة بعد الموت الدهشـة، ولذلك يبدو أن المسيحيين الأوائل كان لديهم سبباً منطقياً في إعادة التفكير في هذا الاعتقاد الهام والشخصي جداً. وعندما ننظر إلى الطيف الفكري لبواكير المسـيحية نجد أن المسـيحيين الأوائل يختلفون حول أمور كثيرة، ولكنهم يُجمعون بصورة تثير الدهشة ليس في إعتقادهم بالقيامة فحسب، بل في كيفية حصولها وكيف ستتم، وكل ذلك شرحته في كتابي بالتفصيل.

(١) عيد القيامة (باليونانية: Πάσχα)، ويعرف بأسـماء عديدة أخرى أشـهرها عيد الفصح وأحد القيامة، هو أعظم الأعياد المسيحية وأكبرها، يستذكر فيه قيامة المسيح من بين الأموات بعد ثلاثة أيام من صلبه وموته كما هو مسـطور في العهد الجديد، وفيه ينتهي الصوم الكبير الذي يسـتمر عادة أربعين يومًا؛ كما ينتهي أسبوع الآلام، ويبدأ زمن القيامة المستمر في السنة الطقسية أربعين يومًا.

(٢) هذه الفكرة شبيهة بمفهوم ليلة القدر الذي تقدر فيه أعمال البشر.

كل هذا يفرض علينا كمؤرخين أن نسأل سؤالاً بسيطاً جداً: كيف أعتقد المسيحيون الأوائل منذ أقدم الأزمان بالإجماع بفكرة القيامة (البعث). هذا السؤال التاريخي مثير للإهتمام بحد ذاته. بالتأكيد، سوف يرد المسيحيون الأوائل بالقول «لقد كان لدينا هذا الاعتقاد لأننا نؤمن بيسوع». إذا كانت فكرة أن يسوع بُعث من جسد ميت ظهرت بعد عشرين أو ثلاثين سنة من بداية المسيحية كما يقول بعض الباحثين المشككين فإنك سوف تعثر على الكثير من الشواهد التي تبين أنه لم يكن هناك مكان لفكرة القيامة في بواكير المسيحية. لذلك فإن إتساع نطاق وإجماع المسيحيين الأوائل على الاعتقاد بالبعث يجبرنا على القول بأن شيئاً ما حدث قبل ذلك بوقت طويل مما شكل وصبغ التحرك المسيحي ككل.

عند هذه النقطة لابد من القول «حسناً وماذا عن القصص الإنجيلية؟ ماذا عن الرواية الثامنة والعشرون في إنجيل متى[١] Matthew، وماذا عن الرواية السادسة عشر في إنجيل مرقس[٢] Mark؟ وماذا عن القصة الأطول منها في الرواية الرابعة والعشرون من إنجيل لوقا[٣] Luke؟ وماذا عن الروايتين الأطول الواحدة والعشرون والثانية والعشرون في إنجيل يوحنا[٤] John ؟ وبطبيعة الحال، ومثل باقي علماء

(١) إنجيل البشير متى (حرفيا «نسبت إلى الرسول متى»). هذا الانجيل هو أحد الاناجيل الاربعة التي هي ضمن العهد الجديد الكتاب الذي يعتمده المسيحيين في حياتهم. الأناجيل الاربعة التي هي ضمن العهد الجديد من الكتاب المقدس والتي تم طباعتها بصورة تقليدية ابتداء من :متى ويليه وبحسب الترتيب مرقس ولوقا ومن ثم يوحنا. إنجيل متى يسمى تقليديا بإنجيل متى البشير أو المبشر.

(٢) إنجيل البشير مرقس تقليدياً هو الانجيل الثاني في تسلسل الاناجيل الاربعة في العهد الجديد من الكتاب المقدس للمسيحيين، ويسمى إنجيل مرقس البشير أو المبشر. يشرح ويحكي هذا الانجيل عن حياة المسيح ابتداءً بيوحنا المعمدان إلى صعود المسيح إلى السماء بعد قيامته من بين الأموات، لكن إنجيل مرقس يركز بالخصوص على الاسبوع الأخير من حياة المسيح.

(٣) إنجيل البشير لوقا يسرد إنجيل لوقا حياة السيد المسيح ،مماته وقيامته. وان كاتب هذا الانجيل وأعمال الرسل هو ليس واحد، لكن بحسب التقليد تُنسب كتابة أعمال الرسل إلى لوقا.

(٤) إنجيل البشير يوحنا هو رابع إنجيل من الاناجيل التشريعية في العهد الجديد من الكتاب المقدس للمسيحيين، وتقليديا يسمى بأنجيل يوحنا البشير أو المبشر. القديس يوحنا هو كاتب هذا الإنجيل في الإيمان المسيحي وهذا الإنجيل مقدمته تشهد بلاهوت يسوع المسيح كلمة الله.

الإنجيل أعتقد أن هذه الفقرات كتبت بعد فترة طويلة من موت المسيح. وأنا في الحقيقة لا أعرف متى كُتبت الأناجيل، ولا أحد يعرف متى كُتبت، بالرغم من أن العلماء يقولون لنا إنهم يعرفون.

ربما تكون هذه الإناجيل كُتبت في الخمسينات أو الستينات من القرن الأول، وبعضهم يقول أنها كتبت قبل ذلك، كما يمكن أن تكون قد كُتبت في الثمانينات أو التسعينات، ولكن فيما يخص حجتي، فهذا الأمر لا يعني شيئاً على الإطلاق. النقطة هي أن القصص الإنجيلية المتعلقة بالبعث لها صفات خاصة ومشتركة بين الأناجيل الأربعة، والذي يتبين تاريخياً أنه رغم أنها كُتبت في مرحلة متأخرة فإنه يتضح أنها لم تتعرض للتحريف إلى درجة كبيرة، لقد تم تحريرها قليلاً، ولكنها لم تتعرض للتحريف، وهذا مهم جداً.

الخاصية الأولى، هي صورة يسوع في روايات البعث. لقد قيل مراراً وتكراراً بأن:

١) إنجيل مرقس كُتب أولاً، وأنه بالكاد كان فيه إشارة إلى البعث.

٢) إنجيل متى الذي جاء بعد إنجيل مرقس، لم يحتوي كذلك على الكثير مما يخص البعث.

٣) مع نهاية القرن، ظهر كل من إنجيل لوقا وإنجيل يوحنا، وعند ذلك فقط وجدنا قصص أكل يسوع للسمك المشوي وطبخه للفطور على الشاطئ وطلبه من توما Thomas أن يمسه وأمثال ذلك. ووفقاً لهذه النظرية فإن المسيحيين في نهاية القرن الأول بدأوا يعتقدون بأن يسوع في الحقيقة ليس إنساناً، أي إنه ليس رجلاً حقيقياً، ولذلك قام لوقا ويوحنا بتأليف القصص في هذه

المرحلة للقول بأن يسـوع كان إنساناً، وأن يسوع الذي رُفع كان له كيان بدني وما إلى ذلك.

المشـكلة في هذه الروايات أنها كانت شـعبية. وجهة النظر الأخرى تقول، أنه إذا كنت يهودياً في القرن الأول وأردت أن تحيك قصة عن المسـيح الذي بُعث من جسد ميت فإن المصدر الإنجيلي الطبيعي سيكون الرواية الثانية عشرة من إنجيل دانيال[1] التي تُعد واحدة من أكبر النصوص التي تتحدث عن البعث بالنسبة ليهودية المعبد الثاني. تقول الرواية الثانية عشرة بأن الصالحين سوف يلمعون مثل النجوم في مملكة الأب. في الواقع، إن يسـوع أستشهد بهذه العبارة في الفقرة الأولى من الروايـة الثالثة عشـر من إنجيل مرقس. مما يزيد الأمر روعة أن يسـوع لم يكن ليظهر كنجم يلمع في أي من روايات البعث لو كانوا قد حبكوا هذه القصص.

من خـلال وجهتي النظر هاتين، تبدو صورة يسـوع غريبة جـداً، فهي صورة ليست كما نتوقع، وهي صورة مخالفة لما هو موجود في الروايات اليهودية في ذلك الوقت، وهي متسقة مع ما ورد في أناجيل متى ولوقا ويوحنا، ولذلك يبدو أن شيئاً غريباً ما قد حدث.

كأن الإنجيليـين Evangelists كانوا يريدون أن يقولوا لنا «نعلم أنكم سـتجدون صعوبة فـي التصديق، ولكن هذا ما حدث». لا يمكن للناس أن يصدقوا مثل هذه الأمور. أي شخص يكتب قصصاً خيالية عن عيد الفصح كان ينبغي أن يجعل يسوع أكثر وضوحاً.

(١) دانيـال هـو أحد الأنبياء الأربعة الكبار في التراث اليهودي المسـيحي، والشـخصية المركزية في سـفر دانيال.

دعوني أقول شيئاً هنا:

إذا أخـذت روايـات البعث في أناجيـل لوقا ومرقس ومتـى ويوحنا في النص اليوناني ووضعتها جنباً إلى جنب فستجد أنها مختلفة (حتى عندما يتحدثون عن قصة النسـاء اللاتي يذهبن إلى القبر). إنهم يستخدمون كلمات مختلفة مرة بعد أخرى. من الواضح أنهم كانوا ينسخون من بعضهم البعض. الشيئ الثاني، أن هناك غياباً شـبه كامل لروايات البعث في العهد القديم. في قصة الصلب Crucifixion يبدو واضحاً أن قصة موت يسـوع قيلت مراراً وتكراراً من قبل الطائفة المسيحية، وقد نسـج عليها في الرواية الثانية والعشرين من المزمور Psalm، والرواية الثالثة والخمسـين من مزمور أشعيا Isaiah ومزمور زكريا Zechariah وبقية التلميحات فـي روايات البعث وأيضاً في روايـة الدفن. ولكن عندما تنتقل إلى الصفحة التي تليها إلى رواية البعث لا تجد ذلك في أناجيل لوقا ومرقس ومتى ويوحنا. وبالمثل، فإن يوحنا يقول عندما ذهب التلاميذ إلى القبر لم يكونوا يعرفون الكتاب المقدس الذي يقول أن يسـوع سوف يُبعث من جسد ميت، ولكن يوحنا لم يستشهد بذلك. وفي الطريق إلى عمواس Emmaus يشرح يسوع الكتاب المقدس، ولكن مرة أخرى لا يقول لنا لوقا أي شيئ عما قاله يسوع.

هـذا أمر غريب جداً. فإما أن نقول أن الكنيسـة الأولـى هي التي كتبت رواية البعـث علـى غرار ما ورد في العهـد القديم وأن متى ويوحنـا ولوقا ومرقس قد اسـتندوا إلى هذه الروايات، أو أن نقـول أن هذه القصص تعود إلى حقبة قديمة جداً في النقل الشـفهي التي تسبق الإنعكاس اللاهوتي Theological Reflection. في تقديري أن الاحتمال الثاني هو الأرجح بدرجة كبيرة.

الميــزة الثالثة الرائعة لهذه الروايات، هو موقع المرأة فيها. في العصور القديمة والعصر اليهودي والوثني، لم تكن تُقبل شهادة المرأة في المحكمة. ينقل بولس Paul عن الإنطباع الســائد عن المســيح في ذلك الوقت قائلاً «هذه قصة قيلت لي. لقد صُلــب من أجل تخليصنــا من الذنوب، ووفقاً للكتاب المقــدس فإنه رُفع في اليوم الثالث ثم رأه رجال ســيفاس Cephas عن طريق جيمس، ومن قبل بعض تلامذته، ورأه ايضاً خمســمائة شــخص في إحدى المرات، وأخيراً رأيتــه أنا». ولكن نرفع رؤوسنا ونسأل بولس ولكن أين النساء؟ والجواب أنه في بداية الخمسينات لم يكن يُسمح للنساء بالخروج لأنهم كانوا يعلمون أنهم سيكونون في ورطة، ونحن نرى هذه الورطة عندما نقرأ سيلســوس Celsus وهو يصــب جام غضبه على البعث بقوله «هذا الاعتقاد مبني على شهادة نساء مجنونات».

مــن المدهش أننــا نجد في أناجيــل متــى ومرقس ولوقــل ويوحنا ذكر لمريم المجدلية [1] Mary Magdalene أو مرايم (جمع مريم) أخريات ونساء غيرهن.

ومــن بين كل الناس أختيرت مريم المجدلية كشــاهدة رئيســية، ولذلك نجدها فــي الأناجيل الأربعة، ونحن كمؤرخين ملزمين بالقــول أن هذه القصص لو كانت وُضعت بعد خمس ســنوات ناهيك عن ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة لما وجدنا مــريم المجدلية تلعب هذه الــدور. من وجهة نظر المدافعين عن المســيحية الذين يريدون إقناع الجمهور المشــكك بأن المســيح قد بُعث من جســد ميت فإن إدخال مريم المجدلية هنا مثل من يطلق النار على قدميه. لا يمكن للمسيحيين الأوائل ان يفعلوا ذلك مطلقاً. القصص –التي تتحدث عن عثور النسوة على القبر– لابد من التعامل معها على أنها صحيحة تاريخياً.

(١) مريم المجدلية من أهم الشخصيات المسيحية المذكورة في العهد الجديد وتعتبر من أهم النساء من تلاميذ المسيح والشاهدة على قيامته وأول الذاهبين لقبره حسب ماذكره الانجيل.

الصفة الرابعة والأخيرة لهذه المواقف، وهنا أتحدث كوني مبشراً مارس التبشير في كل عيد فصح لمدة خمس وثلاثون سنة. المبشرون وفقاً للعادة الغربية يقومون بالتبشير عن قيامة المسيح، والتبشير عن المستقبل، وعن بعثنا نحن وعن ذهابنا للجنة. ولكن في أناجيل لوقا ومرقس ويوحنا ومتى لا نجد ذكراً لقصص البعث. على العكس من ذلك فإن بولس كان في كل مرة يتحدث فيها عن البعث يتحدث فيها عن مستقبلنا. العبرانيين Hebrews (اليهود أو بني إسرائيل) يوجهون لنا الكلام عن قيامة المسيح وعن بعثنا نحن، وفي كتاب الوحي نجد ربطاً بين بعثنا وبعث يسوع. يتفق كل من جستن الشهيد[١] Justin Martyr، وأغناطيوس الأنطاكي[٢] Ignatius of Antioch، وإيريناوس[٣] Irenaeus بالقول: «نتحدث عن بعث المسيح لينعكس ذلك علينا». ولكن متى ويوحنا ولوقا ومرقس لا يقولون «أن يسوع سوف يُبعث، وبالتالي فإننا سوف نبعث في اليوم التالي». هم يقولون، وهذا مثير لتعجب الناس «إن يسوع سوف يُبعث، وإنه هو حقاً المسيح». مخلوق الإله الجديد ظهر، ومهمتنا هي عبادته لأنه يجسد إله إسرائيل خالق الكون». وبعبارة أخرى، تريد القصص التي نجدها في الإنجيل أن تقول ببساطة لم تقال من قبل «إن يسوع قد بُعث، وأننا سوف نُبعث»، وهو ما نجده واضحاً عند بولس بدءاً من أواخر الأربعينات.

(١) القديس جستن كان من المبشرين الأوائل وهو أقدم الشارحين للوجس في القرن الثاني. استشهد مع تلامذته واعتبر قديساً للكنيسة الكاثيولكية.

(٢) أغناطيوس الملقب بالنوراني أو الأنطاكي والذي يدعى أيضا ثيوفوروس (باليونانية: Θεοφόρος أي حامل الإله)، وهو قديس وأحد آباء الكنيسة كان على الارجح أحد تلامذة الرسولين بطرس ويوحنا .هو ثالث أساقفة أو بطاركة أنطاكية بعد بطرس وإفوديوس الذي توفي حوالي سنة ٦٨.

(٣) القديس إيرينيئوس (القرن الثاني الميلادي – نحو عام ٢٠٢ م) هو أسقف مدينة لوغدونوم في بلاد الغال، ثم أصبح علمًا وجزءًا من الإمبراطورية الرومانية (الآن هى مدينة ليون، بـ فرنسا). وكان القديس إيرينيئوس أحد أشهر آباء الكنسية الأوائل ومن أهم المدافعين عن العقيدة المسيحية، وكانت كتاباته تقويمية خلال فترة بداية انتشار ونمو علم اللاهوت المسيحي.

من كل ما سبق نصل إلى عدة استنتاجات. حتى نتمكن من تفسير صعود نجم المسيحية في بدايتها، وحتى نستطيع تفسير وجهات النظر الأربع في موضوع البعث علينا أن نقول أن الكنيسة في وقت مبكر جداً كانت بالفعل تعتقد أن يسوع بُعث جسدياً من جسد ميت، وليس لدينا دلائل على أن المسيحيين الأوائل كانوا يعتقدون على خلاف ذلك. ولكن هل نستطيع كمؤرخين أن نفسر ذلك؟ كثيراً ما يقول الناس «إنه بالتأكيد أبن الإله، وكان بإستطاعته أن يفعل أي شيئ. ولكن هل هذا يستند إلى العقل؟ ولكنني لا أريد أن أفعل ذلك، وإنما أريد أن أكون مخلصاً للنصوص التي لا تقول ذلك. علينا أن نسأل: كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة الاستثنائية في المقام الأول، والقول بأن هناك قصصاً تؤكد حصولها.

لقد اكتشفت خلال نظري في التفسيرات التاريخية أن هناك شيئين قد حصلا:

١) كان هناك قبر فارغ وكان معروفاً أنه القبر الصحيح.

٢) وكان هناك ظهور Appearances ليسوع الذي رُفع.

من المؤكد أن هذين الشيئين حصلا. لأنه إذا كان هناك قبر ولم يكن هناك شبيه فإن كل شخص في العالم القديم كان سيصل إلى نتيجة مفادها أن الجسد قد أُختطف. كان من المعتاد سرقة القبور، وخاصة إذا كان الموتى من الأغنياء أو المشهورين، فقد يكون هناك جواهر أو شيئ يستحق السرقة، ولكن الناس سوف يقولون ما قالته مريم «لقد أخذوا الجسد، لا أعرف ماذا حدث له»، ولم يكن ليتكلموا أبداً عن البعث إذا كان القبر فارغاً.

وبالمثل لا يمكننا تفسير البيانات التاريخية التي رأيناها بالقول أن تلامذته كانت لهم خبرة من نوع ما جعلتهم يلتقون بيسوع. هؤلاء يعلمون أن يسوع قد قُتل، ولكنهم

جميعاً يعرفون عن الهلوسة والرؤى والأشباح. الأدب القديم – اليهودي والوثني- مليئ بمثل هذه الأمور، وهي تعود إلى زمن هوميروس Homer، ونجدها في شعر فيرجيل[1] Virgil، فهي موجودة في كل مكان.

حاول البعض حديثاً من باب الجدال أن يقول أن البعث لا يمكن أن يكون قد حصل «عندما يموت الذين تحبهم فأنت تتصورهم معك في الغرفة، يضحكون معك وربما يتحدثون إليك، وفجاءة يختفون مرة أخرى، ولعل هذا ما حدث مع التلامذة». وفي الواقع أنني قرأت بعض من هذا سابقاً. هذه الظاهرة موثقة كجزء من حالة الحزن، ويمكنك أن تفسرها كما يحلو لك، ولكن المسيحيين الأوائل كانوا يعرفون عن هذه الظاهرة كما نعرف. هم يعرفون جيداً أن هناك هلوسة وأشباح ورؤى وما إلى ذلك. بعبارة أخرى، إذا كانت لهؤلاء تجربة قوية مشابهة مع المسيح، ولكن إذا كان القبر ليس فارغاً عندها سيقولون «يا إلهي، لقد كانت تجربة قوية ولكن يسوع بالتأكيد لم يرفع من جسد ميت، لأن الجسد الميت لا يرتفع، وها هو جسده في القبر».

في هذه النقاط علينا أن نذكر أنفسنا بالطريقة التي يدفن بها اليهود موتاهم. معظم اليهود في فلسطين يدفنون موتاهم على مرحلتين. المرحلة الأول بلف الميت بكفن مع الكافور ووضعه في لحد في قبر صخري، أو وضعه في سرداب في المنزل، وهم لا يدفنون الموتى على الطريقة الغربية كما يحدث في الوقت الحالي، حيث يُدفن الميت في قبر محفور في الأرض ويملئ.

النقطة هنا هي، أن جسد يسوع لو كان موجوداً في القبر لكان من السهل على التلاميذ أن يجدوه، ولذلك فإن علينا أن نقول أنه لابد أنه كان هناك قبراً فارغاً،

(١) فيرجيل (٧٠ ق.م – ١٩ ق.م) شاعر روماني .

ولابد أنهم شـــاهدوا أو اجتمعوا مع شخص ما اعتقدوا أنه يسوع، على الرغم من أنه تحول بطريقة لا نتوقعها، ونجد نحن كقراء أنها مربكة جداً لنا.

والآن نأتـــي إلى الحركة الأخيرة في مباراة شـــطرنج. كيـــف يمكننا كمؤرخين أن نفســـر الحقيقتين اللتين ذكرتهما: القبر الفارغ وظهور شـــبيه ليسوع؟ التفسير الأســـهل لذلك هو أن يسوع بالفعل قد رُفع من الجسد الميت، وأن التلاميذ بالفعل التقوا بيســـوع على الرغم من أنه تم تجديد جسده وتحول بطريقة يمكن معها أن يبدو حياً. لكن بعث يسوع بالفعل لا يوفر لنا تفسيراً كافياً للقبر الفارغ واللقاء مع يســـوع. بعد قراءتي لكل الفرضيات الأخرى المحتملة في كل الأدبيات أجد أن هذا التفسير ضروري.

■ أنتوني فلو: ملاحظات ختامية

انا معجب بطريقة الأسقف رايت، فهي جديدة تماماً. إنه يعرض الأمر بطريقة جديـــدة لأول مرة. وهذا مهم جداً، خصوصاً في المملكة المتحدة والتي يكاد الدين المسيحي يختفي منها.

من المؤكد أن هذا شيئ رائع وراديكالي. هل يمكن أن يكون هناك وحي مقدس؟ كما قلت لا يمكنك أن تحد من قدرات الإله المقتدر إلا إذا كان ذلك مســـتحيلاً من الناحية المنطقية، وماعدا ذلك فهو ممكن للإله المقتدر.